ألِسَّاندرو باريكُّو

البحر المحيط

ترجمها عن الإيطالية: أمارجي



المتوسط

"مرَّةً أخرى، مع روايته *البحر المحيط*، يُنجز السَّاحر عملَه ببراعةٍ: يخلق العالمَ، عالماً بحريَّاً... حسِّيَّاً، مُذهلاً، ومؤلماً، كما لو كان عالماً حقيقيَّاً."

صحيفة الـ «ليبراسيون».

"البحرُ المحيطُ روايةٌ تتشعَّب وتتكشَّف على طريقتها من الإضمارِ الشِّعريِّ. السَّيِّد باريكُّو روائيٌّ تكعيبيٌّ، ذو أسلوبٍ ينظرُ في وقتٍ واحدٍ إلى الجوانب المتعدِّدة للأشياء. إنَّه ينتقل بنا من أسلوبٍ بلاغيٍّ إلى آخر، مِن شكلٍ من أشكال الشِّعر الرَّمزيِّ إلى مغامرةٍ سرديَّةٍ مهيبة إلى ملهاةٍ تشرُّديَّة."

ريتشارد بيرنستاين (ذي نييورك تايم)

"غرائبيَّة... إيروسيَّة... رواية *البحر المحيط* رومانسيَّةٌ للغاية وغنائيَّةٌ بشكلٍ مُذهِل."

جيني ماكفي (ذي نييورك تايم)

المتوسط

ألِسَّاندرو باريكُّو: الكاتب الأكثر شعبية في إيطاليا بلا منازع، هو أيضاً مخرج ومؤدي. تُرجمت رواياته إلى عدد كبير من اللغات العالمية، مثل أراضي الزجاج، وحرير، والبحر المحيط، ومدينة، وبلا دماء. وتم تحويل مونولوجه المسرحي ١٩٠٠ إلى فيلم سينمائي حقق نجاحاً وشهرة كبيرتين، الفيلم هو أسطورة ١٩٠٠.

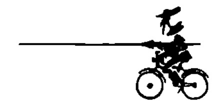


ألِسَّاندرو باريكُّو

البحر المحيط

ترجمها عن الإيطالية: أمارجي

مكتبة | 306

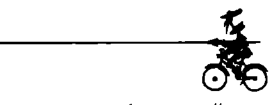


المتوسط

Oceano mare *by* "Alessandro Baricco"

المؤلف: أليسَّاندرو باريكُّو / المترجم: أمارجي / عنوان الكتاب: البحرُ المحيط
الطبعة الأولى: ٢٠١٨.
صورة الغلاف: دوتشو بوسكولي / الغلاف والإخراج الفني: الناصري

ISBN: 978-88-99687-72-4



منشورات المتوسط

ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:
Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142 Milano / Italia
العراق / بغداد / شارع المتنبي / محلة جديد حسن باشا / ص.ب 55204.
www.almutawassit.org / info@almutawassit.org

عن الكتاب أيضاً

"البحرُ المحيطُ ضربٌ من كتابٍ، يُجرجرُ معه الصِّفات التَّالية مثلما تُجرجرُ معها مجسَّاتها قناديلُ *البحر*: مستحوِذٌ، باطنيٌّ، غنائيٌّ، ساحرٌ، منوِّمٌ، كئيبٌ، تراجيديٌّ [...]. موشوريَّةً ومتعدِّدةَ الأوجه مثل قصيدة، تعيد هذه الرِّواية إلى الأذهان مقولةَ أرشيبلد ماكليش، "ليس على القصيدة أن تعني، بل أن تكون". ولكنَّ هذه ليست قصيدةً، إنَّها رواية، وهنا تكمن المشكلة."

وِندي أورِنت (News Observer)

"يذكِّرنا باريكُّو، من وقتٍ لآخر، بكافكا مثلما بسيلين، ببيريك مثلما بالاتْسِسْكي، وربَّما حتّى بكالفينو، ولكنْ: في النِّهاية، وبما لا يترك مجالاً للشَّكِّ، يُذكِّرنا بنفسِه، كواحدٍ من أساطين السُّجوفِ المزركشة والسِّمفونيَّات."

جوڤـانِّي جوديتْشي (L'Unità)

"تنفحُ هنا أجواءٌ شبيهةٌ بأجواء ستيفنسون، وميلفيل، وكونراد، تلك الأجواء التي تشكِّل إلهاماً صلباً لهذه الحكاية التي تتغذَّى، مع ذلك، من التَّوتُّرات الميتافيزيقيَّة المبهَمة المنبعثة من أسطورة *البحر*."

ستِفانو جوڤـاناردي (La Repubblica)

"هذا الكتاب الذي يقطرُ تعباً وانكساراً، الذي يحتضن من حيث المبدأ الإرث الأدبيَّ لكتَّاب *البحر* من نبويِّين وملعونين، يُفلِح في الحفاظ على خيطه الخاصِّ من الغبطة، من موسيقى موتزارتيَّة جذلى ومستخِفَّة."

لورِنْتزو موندو (La Stampa)

"كاتبٌ جديرٌ بالقراءة والتَّقدير، لما ينقله إلينا من بهاءٍ ومتعة."

(The Washington Times)

"إنَّه انتصار الأسطورة. البحرُ نفسُه ليس إلَّا سراباً. وألسَّاندرو باريكُّو ليس إلَّا شاعراً."

(Le Figaro)

إلى موللي، صديقتي الأثيرة

الكتاب الأول

نُزلُ آلماير

-١-

رمالٌ على مدِّ البصر، ما بين آخرِ الأكماتِ والبحر - ذلك *البحر* - في الهواء البارِد لظهيرةٍ مضتْ إلَّا قليلاً، تباركُها الرِّياح التي تهبُّ على الدَّوام من جهة الشَّمال.

إنَّه الشَّاطئ، والبحر.

ربَّما حسبناه الكمالَ في تجلِّيه - صورةً لعيونٍ إلهيَّة - عالَماً يتَّخذ مجرياته وحسب، الوجودَ الأبكمَ للماء والبرِّ، عملاً فنِّيَّاً ناجزاً ومُتقَناً، حقيقةً ما - حقيقة - ولكنْ؛ هي ذي مرَّةً أخرى البذرةُ الخلاصيَّةُ للرَّجُل الذي يعطِّلُ آليَّةَ ذلك الفردوس، تُرَّهةٌ قمينةٌ في حدِّ ذاتها أن توقف تلك الآلة الهائلة بحقيقةٍ لا ترحم ولا تلين، شيءٌ لا يستحقُّ الذِّكر، غير أنَّه مغروسٌ في الرِّمال، مِزقةٌ غيرُ مُدرَكة على سطحِ تلك الأيقونة المقدَّسة، شذوذٌ طفيفٌ يجثم فوق ذلك الكمال، كمالِ شاطئٍ لامُتناهٍ. أنْ تراه من بعيدٍ، لن تحسبه أكثر من نقطةٍ سوداء: داخلَ العدَمِ، يقبعُ العدمُ الآخرُ المكوَّنُ من رجلٍ، ومن مِسندِ رسْم.

مِسندُ الرَّسم مثبَّتٌ بحبالٍ رفيعةٍ إلى أربعةِ صخورٍ جاثمةٍ في الرِّمال. إنَّه يهتزُّ على نحوٍ غير محسوس مع الرِّياح التي تهبُّ على الدَّوامِ من جهة الشَّمال. الرَّجلُ ينتعلُ حذاءً فرسانيَّاً عالياً، ويرتدي سترةَ صيَّادِ سمك. قائماً على قدميه، قُبالةَ *البحر*، يقلِّبُ بين أصابعه ريشة رسمٍ رفيعة. على المِسندِ قماشُ لوحة.

لكأنَّه حارسٌ - هذه المسألة ينبغي إدراكُها - ينتصبُ دفاعاً عن ذلك الجزء من العالَم ضدَّ الغزوِ الصَّامتِ للكمال، أو لكأنَّه شَرْخٌ صغيرٌ يسحقُ ذلك التَّصويرَ المشهديَّ للوجود. ولأنَّ الحالَ دائماً هذه، فإنَّ الوميضَ الشَّاحبَ لرجلٍ كان كافياً لخدشِ سكينةِ ما يبدو قيدَ هُنيهةٍ من التَّحوُّلِ حقيقةً بين الحقائق، ولكنَّه عِوَضَ ذلك يعودُ ليبقى محضَ انتظارٍ وسؤال، وكلُّ ذلك عِبرَ القوَّة البسيطة واللامتناهية لذلك الرَّجل الذي هو ثلمةٌ وكوَّة، بابٌ صغيرٌ منهُ تتدفَّق الحكايا أنهاراً، ومعها ذخيرةٌ من الأدوار والألحاق الغنائيَّة لِما يُحتَمَلُ أن يوجَدَ ويكونَ؛ هو مَزْقٌ بلا نهاية، جرحٌ باهرٌ، ممرٌّ لآلافِ الخطوات؛ حيث لا شيء قادرٌ بعدئذٍ على أن يصيرَ حقيقةً، وإنَّما أن يكون فحسب - تماماً مثلما هي كائنةٌ خطواتُ تلك المرأة التي، مُلتَفِعةً بمُلاءةٍ بنفسجيَّة، ومُغطَّاةَ الرَّأس، تمسحُ الشَّاطئَ بِفتورٍ، وهي تحاذي مِكْسَرَ الأمواج، وتخدِّدُ من اليمين إلى الشِّمال الكمالَ المفقودَ لِلَّوحةِ الكبرى، قارضةً المسافة التي تفصل بينها وبين الرَّجل ومِسندِ رسمِه، قليلاً قليلاً حتّى تبلغَ بضعَ خطواتٍ منه، ثمّ حتّى تصيرَ بجانبه؛ حيث تتحوَّلُ عدماً ساكناً آخرَ - وهو، بصمتٍ، يحدِّق.

حتّى إنَّ الرَّجلَ لا يلتفتُ أبداً. يواصلُ التَّحديق في *البحر*. صمتٌ. بين الفينة والأخرى يغمسُ الرِّيشةَ في كأسٍ نحاسيَّةٍ، ويضربُ بها على اللوحة بضعة خطوطٍ خفيفة. شَعرُ الرِّيشةِ يخلِّف وراءَه ظلالَ إعتامٍ فائقة الشُّحوب، لا تلبث الرِّياح أن تجفِّفها مُعيدةً البياضَ سيرتَه الأولى على سطحِ اللوحة. ماءٌ. في الكأس النُّحاسيَّة ثمّة ماءٌ فحسب. وعلى قماش اللوحة، لا شيء. لا شيء هناك تمكن رؤيته.

تهبُّ، كعهدِها دوماً، رياحُ الشَّمال، والمرأة تنكمش على نفسِها في الملاءة البنفسجيَّة.

مكتبة أحمد

- ها بلاسُّون، منذ أيَّامٍ وأيَّام وأنت تعملُ في هذا المكان. ما الذي يحملك على صُنعِ كلِّ هذه الألوان، إن كنتَ لا تملك الجرأة على استخدامها؟

كأنَّ حضورها أيقظه. بل إنَّ حضورها باغتَه؛ فإذا به يستديرُ؛ ليحدِّق في وجه المرأة. وإذْ ينطق، فإنَّه لا ينطق جواباً.

- أرجوكِ، لا تتحرَّكي - يقول.

ثمَّ يقرِّب الرِّيشة من وجه المرأة، يتردَّد لحظةً، يضعها برقَّةٍ على شفتيها، وبرفقٍ يجعلها تنساب بين زاويتي فمِها. شَعرُ الرِّيشة يصطبغُ بأحمرَ قرمزيٍّ. ينظرُ إليه، يغمسه بالكادِ في الماء، ويرفع ناظريه صوبَ *البحر*. على شفتي المرأة يتبقَّى ظلُّ طَعمٍ يدفعُها رغماً إلى التَّفكير "ماءُ *البحر*، هذا الرَّجل يرسمُ البحرَ بالبحر"- وتلك فكرةٌ تبعث على الارتعاش.

الآن وقد تحوَّلتْ عنه، هي ذي تعودُ لتمسحَ الشَّاطئ الرَّحيب بالسُّبحةِ الحسابيَّةِ لخطواتها، فيما الرِّيح تمرُّ على اللوحة؛ لتجفِّف نفثةَ ضياءٍ ورديٍّ، نفثةَ ضياءٍ تعومُ عُريانةً في قلب البياض. في مُكنةِ المرء أن يمكثَ ساعاتٍ يتأمَّلُ ذلك *البحر*، وتلك السَّماء، وكلَّ شيءٍ هناك، لكنْ ليس في مُكنته العثورُ على لونٍ كذلك اللون. لا شيء هناك تمكن رؤيته.

المدُّ، عندَ تلك الجهات، يصعدُ قبلَ هبوطِ الظَّلام. قبلَه بقليل. الماءُ يطوِّق الرَّجلَ ومِسندَ رَسمِه، فإذا هو اقتلعهما، بأناةٍ، ولكنْ؛ بإحكام، بقيا هناك، واحدُهما لِصْقَ الآخر، لا يعبآن بشيء، كمثلِ جزيرةٍ مصغَّرة، أو كغريقٍ برأسين لفظه *البحر*.

بلاسُّون، الرَّسَّام.

يجيء لِيُقِلَّه، كلَّ مساءٍ، زورقٌ صغيرٌ قُبَيل الغروب، حين يكون الماءُ قد بلغَ قلبَه. ذلك هو ما يرغبُ فيه. يصعدُ إلى الزَّورق، يسِقُ مِسندَ الرَّسمِ وبقيَّة الأشياء، ويُسْلِمُ نفسَه للمُضيِّ صوبَ البيت.

الحارسُ يمضي. رسالته انتهت. باتَ في منجىً من المهلَكة. تنطفئ تحتَ المغيب الأيقونة التي لم تُفلحْ مرَّةً أخرى في أن تصيرَ مقدَّسة. وكلُّه بسبب ذلك الرَّجل الضَّئيل وأرياشِ رَسْمِه. أمَّا الآن، وقد مضى؛ فلم يعد ثمّة زمنٌ. الظُّلمةُ تُبطِلُ كلَّ شيء. ما مِن شيءٍ يقدرُ، داخلَ الظُّلمةِ، أن يصيرَ حقيقةً.

-٢-

... ليس إلَّا لِماماً، وفي حال قُيِّضَ للبعض، في تلك اللحظات، أن يراها، كان يُسمَعُ قولُه، بصوتٍ خفيضٍ

- ستموت من ذلك.

أو بالأحرى

- ستموت من ذلك.

أو أيضاً

- ستموت من ذلك.

أو حتّى

- ستموت من ذلك.

أكماتٌ، في كلِّ الأنحاء.

إنَّها أرضي، فكَّرَ بارونُ كايروول.

ليس مرضاً بالضَّبط، قد يكون كذلك، غيرَ أنَّه شيءٌ أقلُّ، شيءٌ لو امتلكَ اسماً لكان الاسمُ خفيفاً للغاية، اسماً ما إن تنطقه حتّى يتلاشى المسمَّى.

- عندما كانت طفلةً جاءَ ذاتَ يومٍ متسوِّلٌ، وراح يرنِّمُ تهويدةً، التَّهويدةُ أفزعتْ شُحروراً ارتفعَ في السَّماء...

- ... أفزعتْ قُمريَّةً ارتفعتْ أيضاً، وهي تصفِّق بجناحيها...

- ... الجناحان المصطفِقان، صخبٌ لا يُذكَر...

- ... كان ذلك منذ عشرة أعوام...

- ... القُمريَّة مرَّتْ أمامَ نافذتها، هُنيهةً، على هذا النَّحو، فرفعتْ عينيها عن الألعاب، ولا أعلم، اعتراها الذُّعرُ، ولكنَّه ذعرٌ أبيض، أقصد أنَّه لم يكن كالذُّعر الذي يبثُّ الخوفَ، بل كالذُّعر الذي يبقى ليتوارى...

- ... اصطفاقُ الأجنحة...

- ... كمَن تسرَّبت منه روحُه...

- ... أتصدِّقينني؟

ظنَّ النَّاسُ أنَّها كبُرتْ، وأنَّ كلَّ شيءٍ ولَّى. لكنْ: في أثناء ذلك، كانت السَّجاجيدُ تمُدُّ في سائر أنحاء القصر، ذلك أنَّ خَطْوَها في حدِّ ذاته، وهذا جليٌّ، كان يُرعبُها؛ سجاجيدُ بِيضٌ، في كلِّ موطئ قدَم؛ لونٌ لا يورثُ مرضاً؛ خَطْوٌ منزوعُ الصَّوت وألوانٌ عمياء. في الحديقة، كانت المسالك دائريَّةً مع استثناءٍ وحيدٍ، يتَّسمُ بالجرأة لزوجٍ من الممرَّات يتلوَّى كالثُّعبان صانعاً من العَطْفات المتَّسقة الطَّيِّعة خواتمَ - مزامير(*)- وهذا أصوب، وفي الحقيقة يكفي قليلٌ من الحساسية؛ لنفهمَ أنَّ كلَّ ركنٍ مُعتمٍ إنْ هو إلَّا كمينٌ محتمَل، وأنَّ دربين متصالبين ليسا إلَّا ضرباً من الوحشيَّة الهندسيَّة

---

*) ربَّما يريد القول إنَّ جميع تلك المسالك والدُّروب تفضي إلى نفس المكان بالإشارة إلى المثل الإيطاليِّ الذي يقول: «جميع المزامير تنتهي بتمجيد الرَّب»؛ (م).

التَّامَّة، الخليقةِ بترويع أيِّ امرئٍ تتملَّكه على نحوٍ جدِّيٍّ حساسيةٌ حقيقيَّة، ولا سيَّما هي، هي التي لم تتملَّك بالضَّبط روحاً حسَّاسة، وإنَّما، إذا ما توخَّينا دقَّة المصطلحات، كانت تتملَّكها حساسيةُ روحٍ لا يمكن لجمُها، تفجَّرتْ إلى الأبدِ لا أدري في أيَّة لحظةٍ من لحظات حياتها المبهَمة - حياةٍ لا تستحقُّ الذِّكر، ضئيلةٍ مثلما كانت - ثمّ صعدتْ نحوَ القلب عِبْرَ دروبٍ لامرئيَّة، ونحوَ العيون، ونحوَ الأيدي وكلِّ جارحةٍ أخرى، كمثلِ مرضٍ ما هو بِمَرَضٍ، بل شيءٌ أقلُّ، شيءٌ لو امتلكَ اسماً لكان الاسمُ خفيفاً للغاية، اسماً ما إن تنطقه حتّى يتلاشى المسمَّى.

لأجل ذلك، في الحديقة، كانت المسالك دائريَّة.

ولا ينبغي في هذا المقام إغفالُ رواية إيديل تْرُوْت، التي لم يكن لها في كلِّ البلدِ نظيرٌ في حياكة الحرير ولأجل ذلك استدعاها البارون، ذاتَ يومٍ شتائيٍّ، حين كان الثَّلج بارتفاع قاماتِ الأطفال، والبردُ كأنَّه قادمٌ من العالَم الآخر، أمَّا الوصول إلى هناك؛ فكان الجحيمَ بعينه، كان الحصان ينفث الدُّخان، حوافره تتقدَّم جزافاً في الثَّلج، والزَّلاقة مِن ورائه كشراعٍ تسوقه الرِّياح، سأموت ربَّما إنْ أنا لم أصل في غضون عشر دقائق؛ مثلما لا لبسَ في أنَّ اسمي إيديل، كذلك لا لبسَ في أنِّي سأموت، وفوق ذلك دون أن أعلم حتّى بحقِّ أيِّ شيطانٍ عليَّ أن أقابل البارون بهذه السُّرعة...

- ماذا ترين، يا إيديل؟

في غرفةِ الابنة، البارون واقفٌ على قدميه أمامَ الحائطِ الطَّويل الذي لا نوافذ فيه، يتحدَّث برفقٍ، بعذوبةٍ عتيقة.

- ماذا ترين؟

نسيجٌ بورغنديٌّ، ثوبٌ فاخرٌ، وتصاويرُ مناظرَ طبيعيَّةٍ تشبه الكثيرَ من المناظر، عملٌ مشغولٌ بإتقان.

- إنَّها ليست كأيٍّ منظرٍ من المناظر، يا إيديل. أو أقلُّه، هي ليست كذلك في عيني ابنتي.

ابنته.

إنَّه لَضربٌ من الأحجيات، لكنْ: لا بدَّ من محاولة فَهْمه بإعمالِ الخيال، لا بدَّ من إغفالِ ما هو معلوم بصورةٍ، يكون الخيال فيها قادراً على التَّطوافِ بحُرِّيَّة، على التَّوغُّل بعيداً في أعماق الأشياء حتّى يبلغ نقطةً، يُرى عندَها كيف أنَّ الرُّوح ليست دائماً حِليةً ماسيَّة، فهي تكون أحياناً حجاباً مِن حرير - هذا يمكنني فَهْمُه - تخيَّلي حجاباً شفَّافاً من الحرير، وأيُّ شيءٍ يمكن أن يمزِّقه، حتّى نظرة، وفكِّري في اليد التي تأخذه - يدِ امرأة - أجل - يدٍ تتحرَّك برفقٍ، وتهصره بين الأصابع، وإذْ تغالي في ذلك، ترفعه كما لو أنَّها ليست يداً، بل عصفةَ ريحٍ، وتقفلُ عليه أصابعها، كما لو أنَّها ليست أصابعَ، بل...

- كما لو أنَّها ليست أصابعَ، بل خواطر. هكذا. هذه الغرفة هي تلك اليد، وابنتي حجابٌ من حرير.

أجل، لقد فهمت.

- لا أريد شلَّالاتٍ، يا إيديل، وإنَّما أريد سكينةَ بُحيرة، لا أريد أشجارَ سنديانٍ، بل بَتولا، وتلك الجبال في الخلفيَّة يجب أن تصير آكاماً، والنَّهارُ مغيباً، والرِّياحُ نسَماً، والمُدُنُ أريافاً، والقِلاعُ حدائقَ. وإن كان لا بدَّ من بواشقَ، فلتكن على الأقلِّ محلِّقةً، وفي البعيد.

أجل، لقد فهمت. ثمّة أمرٌ واحدٌ وحسب: ماذا عن البشر؟

يصمتُ البارون. يحدِّق في شخوصِ الزَّربيَّةِ الهائلةِ كلِّها، واحداً واحداً، كأنَّه يريدُ أن يسمعَ رأيهم. ينتقلُ من جدارٍ إلى آخر، ولكنْ: لا أحد ينبس ببنت شفة. ذلك كان متوقَّعاً.

- إيديل، هل من سبيلٍ إلى صنعِ بشرٍ، لا يصنعون الشَّرَّ؟

سؤالٌ كان ينبغي أن يُطرَحَ على الله أيضاً، في اللحظةِ المناسبة.

- لا أعلم. لكنْ؛ سأحاول.

في ورشةِ إيديل تَرُوْت عملوا شهوراً مع كيلومتراتٍ من خيطٍ حريريٍّ، طلبه البارون لهم. عملوا بصمتٍ لأنَّه، كما قالت إيديل، كان على الصَّمت أن يدخلَ في حَبكةِ النَّسيج. كان خيطاً كسائر الخيوط، عدا أنَّك لم تكن لِتراه، ولكنَّه كان موجوداً. على هذا المنوال، عملوا في صمتٍ.

شهورٌ مرَّت.

ثمّ ذاتَ يومٍ وقفت عربةٌ أمام قصر البارون، وفي العربة كانت تحفةُ إيديل الفنِّيَّة. ثلاث لِفافاتٍ ضخمةٍ من القماش المنسوج تزنُ ما تزنه صُلبانٌ في موكب. حملوها إلى أعلى عِبرَ الأدراجِ الهائلة، ثمّ على طولِ الممرَّات وباباً بعد بابٍ، إلى أن بلغوا قلبَ القصر، داخلَ الغرفة التي كانت تنتظرهم. كانت هنيهةً قصيرةً قبل أن يُتمُّوا حلَّ اللِفافات حين هَمْهَمَ البارون

- والبشر؟

ابتسمت إيديل.

- إن كان لا بدَّ من بشر، فليكونوا على الأقلِّ محلِّقين، وفي البعيد.

اختارَ البارون ضوءَ المغيب ليأخذ ابنته من يدِها، ويصطحبها إلى غرفتها الجديدة. تقول إيديل إنَّها ما إن دخلت حتّى تضرَّج وجهها بالدِّماء، من روعةِ ما رأتْ، ولهنيهةٍ خشي البارون أن تكون المفاجأة ثقيلة الوطأة

عليها، ولكنَّها لم تكن سوى هُنيهة، ففي الحالِ، صار مسموعاً الصَّمتُ المتعذَّرُ دفعُه لتلك الأكوان الحريريَّة؛ حيث أرضٌ رؤومٌ تسترخي مغتبطةً كلَّ الغبطة وبشرٌ ضؤلاء، معلَّقون في الفضاء، يمسحون ببطءٍ الزُّرقة الشَّاحبة للسَّماء.

تقول إيديل - وهذا لا يمكن نسيانه - إنَّها راحت تنظرُ حولَها مليَّاً، ثمّ استدارتْ- مُتبسِّمةً.

كانت تُدعى إليزوين.

كانت تمتلك صوتاً فائق العذوبة - مخمليَّاً - وحين كانت تمشي كانت تبدو وكأنَّها تنزلق في الهواء، فلم يكن في مُكْنتِكَ كفُّ بصرِكَ عنها. من وقتٍ إلى آخر، ودونما سببٍ، كان يطيب لها الرَّكضُ، على طولِ الممرَّات، نحوَ شيءٍ لا أحد يدري ما هو، على تلك السَّجاجيد البيض المروِّعة؛ كانت تكفُّ عن كونها الظِّلَّ الذي كانتْه، وتنطلق جرياً، لكنْ ليس إلَّا لِماماً، وفي حال قُيِّضَ للبعض، في تلك اللحظات، أن يراها، كان يُسمَعُ قولُه، بصوتٍ خفيضٍ...

-٣-

يمكن للقاصدِ أن يبلغ نُزلَ آلماير(*) سيراً على الأقدام، نزولاً عِبرْ الدَّرب المتحدِّرِ مِن معبدِ القدِّيسة أماندا، غير أنَّ بلوغه ممكنٌ أيضاً بالحنطور، عِبرَ شارع كوارتايل، أو بالعوَّامة كذلك، مع النَّهر الهابط. البروفسور بارتلبوم وصل إلى هناك بطريق الصُّدفة.

- أهذا هو نُزلُ "السَّلام"؟

- لا.

- نُزلُ "القدِّيسة أماندا"؟

- لا.

- خانُ استبدال الخيول؟

- لا.

- خانُ "الرَّنجة الأصليَّة"؟

- لا.

- حسناً. أثمَّة غرفةٌ شاغرة؟

---

*) تسمية النُّزل بهذا الاسم تكريمٌ لطيفٌ من طرف باريكُّو لروح الأديب جوزيف كونراد الذي لأغلب رواياته علاقةٌ بالبحر، وكان عنوان أوَّل رواية له صدرت في سنة ١٨٩٥ «حماقة آلماير»؛ (م).

- نعم.

- سآخذها.

كان السِّجلُّ الكبيرُ ينتظر مع تواقيعِ النُّزلاء مفتوحاً فوق مسندٍ خشبيٍّ؛ سريراً من الورق، بالكاد أُعيدَ ترتيبه ينتظر أحلامَ أسماءٍ أخرى، أسماءِ آخرين. بشهوانيَّةٍ ولجَ قلمُ البروفسور بين أغطية السَّرير.

البروف. بارتلبوم، إسماعيل أدِلانتي إسماعيل

بكلِّ ما أُوتي من زخرفةٍ خطِّيَّة. شيءٌ في غاية الإتقان.

- إسماعيل الأوَّل هو أبي، الثَّاني جدِّي.

- وذلك؟

- أدِلانتي؟

- لا، لا أقصدُ الاسمَ الذي هناك... بل هذا.

- البروف.؟

- أجل.

- البروفسور، أليس كذلك؟ إنَّه يعني أستاذ.

- يا له من اسمٍ أخرق.

- هو ليس اسماً... أنا في منزلة بروفسور، إنَّني أُدرِّس، هل فهمتِ؟

أنا أمشي في الشَّارع، فيخاطبني النَّاس صباح الخير، بروفسور بارتلبوم، مساء الخير بروفسور بارتلبوم، ولكنَّه ليس اسماً، إنَّه عملي، فأنا أدرِّس...

- ليس اسماً إذن.

- لا.

- حسناً. أمَّا أنا؛ فأدعى ديرا.

- ديرا.

- أجل. أمشي في الشَّارع، فيخاطبني النَّاس، صباح الخير، يا ديرا، عمتِ مساءً، يا ديرا، تبدين جميلة اليوم، يا ديرا، ما أجمل فستانك، يا ديرا، هل صادفتِ بارتلبوم؟ لا، إنَّه في غرفته، الطَّابق الأوَّل، الغرفة الأخيرة في آخر الممرّ، هي ذي المناشف، تفضَّل، البحرُ يُرى من غرفتك، آملُ ألَّا يضايقك ذلك.

البروفسور بارتلبوم - والذي بدءاً من تلك اللحظة أصبح بكلِّ بساطةٍ مجرَّدَ بارتلبوم - تناولَ المناشف منها.

- آنسة ديرا...

- نعم؟

- أتسمحين لي بسؤالٍ، من فضلك؟

- وهو؟

- ما عمرك، يا تُرى؟

- عشر سنوات.

- آه، هوَ ذا.

أخذ بارتلبوم - البروفسور بارتلبوم سابقاً - الحقائب، وخطا نحو الأدراج.

- بارتلبوم...

- نعم؟

- الفتياتُ لا يُسألنَ عن أعمارهنَّ.

- معك حقّ، أعتذر.

- الطَّابق الأوَّل. الغرفة الأخيرة في آخر الممرّ.

في الغرفة التي في آخر الممرّ (الطَّابق الأوَّل) كان ثمّة سريرٌ، وصُوانٌ، وكرسيَّان، ومدفأةٌ، ومنضدة كتابةٍ صغيرةٌ، وبساطٌ (أزرقَ داكنٌ)، ولوحتان متطابقتان، ومغسلةٌ مع مرآة، وأريكةٌ وطفلٌ: جالسٌ على حافَّة النَّافذة (المفتوحة)، ظهرُه إلى الغرفة، وساقاه تتأرجحان في الفراغ.

صرَّح بارتلبوم عن حضوره بإطلاق كُحَّةٍ موزونة، هكذا، لأجل صنعِ جلبةٍ كيفما اتَّفق.

لا شيء.

دخلَ الغرفةَ، وضعَ الحقائب، دنا ليتأمَّل اللوحتين (إنَّهما متطابقتان، على نحوٍ لا يصدَّق)، جلس على السَّرير، خلعَ حذاءه مع شعورٍ جليٍّ بالرَّاحة، نهض من جديد، خطا لينظرَ في المرآة، بدا له أنَّ صورته بقيت على الدَّوام نفسَها (ذلك أيقنه دوماً)، ألقى نظرةً داخلَ الصُّوان، علَّق معطفه، ثمّ اقتربَ من النَّافذة.

- أأنت جزءٌ من الأثاث؟ أم تُراك موجودٌ صُدفةً هنا؟

لم يتحرَّك الطِّفلُ قيدَ أنملة. ولكنَّه أجاب.

- أثاثٌ أنا.

- آه.

استدار بارتلبوم عائداً إلى السَّرير، حلَّ ربطة العنق، واستلقى. ثمّة بقعٌ من الرُّطوبة، على السَّقف، كأنَّها أزهارٌ استوائيَّةٌ مرسومةٌ بالأبيض والأسود. أغمض عينيه، وغطَّ في النَّوم. حلُمَ أنَّهم استدعوه لينوبَ منابَ سيِّدة الدُّهون في سيرك بوسندورف، فلمَّا ارتقى الحلبة ميَّز في الصَّفِّ الأوَّل عمَّته أديليدة، وهي امرأةٌ رقيقة الحاشية، ولكنَّ عاداتها مثارُ نقاشٍ وجدل، ورآها تقبِّلُ أوَّل الأمر قرصاناً، ثمّ امرأةً تِرْباً لها، وفي النِّهاية التِّمثالَ الخشبيَّ لقدِّيسٍ، لم يعد الآن تمثالاً، بما أنَّه على حين غرَّةٍ أخذ يمشي، ويتَّجه مباشرةً نحوه، نحوَ بارتلبوم، وهو يصيح بكلماتٍ، لم يكن في الإمكان فَهْمُها تمامَ الفَهْم، ولكنَّها مع ذلك أثارت حنقَ الجمهورِ برمَّته، إلى الحدِّ الذي أُرْغِمَ هو، بارتلبوم، معه على الفرارِ في أقصى سرعة، متنازلاً حتَّى للقدِّيس إيَّاه عن أجره المتَّفق عليه مع مدير السِّيرك، ١٢٨ فلساً، على وجه الدِّقَّة. استفاق، وإذا بالطِّفل ما يزال هناك. غيرَ أنَّه استدارَ، وكان ينظر إليه. بل إنَّه كان يتحدَّث إليه.

- هل سبق أن شاهدتَ، يوماً، سيرك بوسندورف؟

- عفواً؟

- سألتكَ إن كنتَ قد شاهدتَ، يوماً، سيرك بوسندورف.

نهضَ بارتلبوم جالساً على السَّرير.

- وما الذي تعرفه أنت عن سيرك بوسندورف؟

- لا شيء، سوى أنَّني شاهدته. لقد مرَّ من هنا العامَ الفائتَ. كان ثمّة حيوانات وكلُّ شيء. كان ثمّة أيضاً سيِّدة الدُّهون.

تساءل بارتلبوم إن كانت الفرصة مناسبة؛ ليسأله عن أخبار العمَّة أديليدة. صحيحٌ أنَّها ماتت منذ سنوات، إلَّا أنَّ ذلك الطِّفل يبدو داهيةً. في النِّهاية آثرَ الاقتصار على النُّزول عن السَّرير والدُّنوَّ من النَّافذة.

- أيزعجك هذا؟ أحتاجُ بعض الهواء.

تنحَّى الطِّفلُ قليلاً إلى النَّاحية الأخرى من حافَّة النَّافذة. طقسٌ باردٌ وريحٌ شماليَّة. أمامهما، إلى ما لا نهاية، يمتدُّ *البحر*.

- ما الذي تفعله جالساً هنا فوق، كلَّ هذا الوقت؟

- أنظر.

- ليس ثمّة الكثير لتنظر إليه...

- أتمزح؟

- حسناً، ثمّة *البحر*، أوافقك في ذلك، ولكنَّ *البحر* هو دائماً ذاك، دائماً نفسُه، بحرٌ إلى تخوم الأفق، إذا سكنتِ الرِّياحُ مخرته سفينة، ومن ثمّ فهو ليس نهاية العالَم.

استدار الطِّفلُ نحو *البحر*، وعاد واستدارَ نحوَ بارتلبوم، ثمّ استدار ثانيةً نحو *البحر*، ثمّ عادَ، فاستدارَ نحو بارتلبوم.

- كم يوماً ستقيم هنا؟ - سأله.

- لا أعلم. بضعة أيَّام.

نزل الطِّفلُ عن حافَّة النَّافذة، سارَ نحو الباب، وقفَ على العتبة، لبث قليلاً يتأمَّلُ بارتلبوم.

- أنتَ شخصٌ لطيف. آملُ عندما تغادر، أن تغادرَ، وقد صرتَ أقلَّ بلاهةً بقليل.

تعاظمَ، في نفْسِ بارتلبوم، الفضولُ إلى معرفةِ مَن الذي يقومُ على تربيتهم وتهذيبهم، أولئك الأطفال. إنَّها لَظاهرةٌ عجيبة، بكلِّ وضوح.

المساء. نُزلُ آلماير. غرفةٌ في الطَّابق الأوَّل، في آخر الممرِّ. منضدةُ كتابة، مصباحٌ نفطيٌّ، وصمت. مِبذَلٌ رماديٌّ، وفي داخله بارتلبوم. خُفَّان رماديَّان، وفي داخلهما قدماه. ورقةٌ بيضاء على المنضدة، ريشةٌ ومحبرة. بارتلبوم يكتب. يكتب.

معبودتي،

لقد وصلتُ إلى البحر. سأجنِّبكِ الحديث عن مشاقِّ وبأساء الرِّحلة: ما يهمُّ هو أنَّني الآنَ هنا. النُّزلُ مِضيافٌ: بسيطٌ، ولكنَّه مِضياف. يقع على قمَّة أكمة، قُبالةَ الشَّاطئ تماماً. في المساء يصعدُ المدُّ والماءُ، يبلغُ أسفلَ نافذتي تقريباً. يبدو الأمرُ وكأنَّني على سطح سفينة. كان ليروقكِ ذلك.

لم أصعد سفينةً في حياتي أبداً.

سأبدأ من الغد دراساتي. يبدو لي المكان مثاليّاً. إنَّني لا أخفي صعوبة المجازفة، ولكنْ تعلمين - أنتِ وحدكِ في العالمُ مَن يعلم - كم أنا دقيقٌ

في إنهاء العمل الذي يمثِّلُ منتهى طموحي الذي عزمتُ عليه، وابتدأته ذات يومٍ ميمونٍ منذ اثنتي عشرة سنةً خلتْ. سيكون عزاءً لي أن أتخيَّلكِ بصحَّةٍ جيِّدة وبحالةٍ من الغبطة الرُّوحيَّة.

حقيقةً لم أفكِّر في الأمر مُطلقاً من قبل: ولكنَّني صدقاً لم أصعد سفينةً في حياتي أبداً.

في عزلةِ هذا المكان المُقصَى عن العالَم، يُلازمني اليقين بأنَّك لا تريدين، في هذا التَّنائي، أن تضيعَ ذكرى ذلك الذي يحبُّكِ والذي سيبقى إلى أبد الآبدين مُلككِ.

إسماعيل أ. إسماعيل بارتلبوم

يضعُ الرِّيشة، يطوي الورقة، يضعها داخلَ مغلَّفٍ. ينهض، يُخرج من صندوقه حُقَّةً من خشب الماهوغاني، يرفع عنها الغطاء، ويُسقِط في داخلها الرِّسالة، مفتوحةً وبلا عنوان. في الحُقَّةِ ثمّة مئاتٌ من المغلَّفات المماثلة. كلُّها مفتوحةٌ وبلا عنوان. لِبارتلبوم ٣٨ عاماً من العمر. هو يظنُّ أنَّه في مكانٍ ما من العالَم سيلتقي ذات يومٍ بامرأةٍ كانت، منذ الأزل، امرأته. من حينٍ إلى آخر يغتمُّ من أنَّ القدرَ يصرُّ بعِنادٍ فظٍّ على جعلِه ينتظر، لكنْ مع الوقت تعلَّم أن يتأمَّل الأمرَ بصفاءٍ فائق. كلَّ يومٍ تقريباً، وذلك منذ أعوام، يُمسك الرِّيشة بيدٍ، ويكتبُ إليها. ليس لها أسماءٌ، وليس لها عناوين ليخطَّها على المغلَّفات: ولكنَّ لها حياةً تُروى. ولِمن، إن لم يكن لها؟ هو يعتقد أنَّه من الجميل عندما يلتقيان أن يضعَ في حضنها حُقَّةً من خشب الماهوغاني ملأى بالرَّسائل، ويقولَ لها:

- كنتُ أنتظرُكِ.

ستفتح هي الحُقَّة وبأناةٍ، عندما يطيب لها ذلك، ستقرأ الرَّسائلَ واحدةً واحدة وعائدةً إلى الوراء ما مقداره أميالٌ من خيطِ حبرٍ أزرقَ داكنٍ سَتَعُبُّ السِّنين - الأيَّامَ، والهُنيهات - التي وهبها إيَّاها ذلك الرَّجلُ، قبلَ حتّى أن يعرفها. أو لعلَّها، ببساطةٍ أكبر، ستقلب الحُقَّةَ رأساً على عقب ومبهوتةً أمامَ ذلك الإثلاج الغرائبيِّ من الرَّسائل ستتبسَّم قائلةً لذلك الرَّجل

- إنَّك مجنون

وإلى الأبد ستحبُّه.

- ٤ -

- أيُّها الأبُ بلوش...

- نعم، أيُّها البارون.

- ابنتي ستُكمِلُ غداً خمس عشرةَ سنة.

- ...

- منذ ثماني سنوات، وأنا مفوِّضٌ أمرها لرعايتكم.

- ...

- لم تُشْفوها.

- لا.

- عليها أن تتَّخذ زوجاً.

- ...

- عليها أن تخرج من هذا القصر، لِترى العالَم.

- ...

- عليها أن تنجبَ أطفالاً، وأن...

- ...

- حاصلُ القول، عليها أن تبدأ حياتها في النِّهاية.

- ...

- ...

- ...

- أيُّها الأب بلوش، ابنتي يجب أن تُشفَى.

- أجل.

- جِدوا أحداً قادراً على شفائها. وائتوا به إلى هنا.

أشهر أطبَّاء الإقليم كان يُدعى أترديل. كثيرون رأوه يبعث الموتى، موتى أمواتاً أكثر منهم أحياء، موتى هالكين، فاقدين بحقٍّ كلَّ أملٍ في النَّجاة، وجاء هو ليعيد اصطيادهم من الجحيم، ويردَّهم إلى الحياة، ذلك أنَّ مشيئته كانت أمراً محيِّراً، بل وأحياناً في غير وقتها كذلك، ولكنَّها في جميع الأحوال صُنْعتُه على ما يُفهَم، ولا أحد يتقنها مثله هو، وعِبْرَها كانوا يقومون من بين الأموات، يغمرهم سلامٌ كُلِّيٌّ، فلا نيَّة لديهم للوقوف موقفَ الضِّدِّ من أحدٍ من الأصدقاء أو الأقرباء، مُرغَمين على إعادة فعلِ كلِّ شيءٍ من البداية، وأن يعيدوا الدُّموع والتَّركاتِ إلى مواقيتها المُثلى، علَّهم في المرَّة القادمة يُعمِلون بصيرتهم في الوقت المناسب، ويتوجَّهون إلى طبيبٍ عاديٍّ، طبيبٍ من أولئك الذين يُردونهم قتلى وحسب، لا كمثلِ هذا الذي يُقيمهم على أقدامهم، لا لشيءٍ سوى أنَّه أشهر أطبَّاء الإقليم. وأعلاهم أجراً، فوق كلِّ شيء.

هكذا، كان الأب بلوش يفكِّر بالطَّبيب أترديل. لا لأنَّه يؤمن كثيراً بالأطبَّاء،

هذا مفروغٌ منه، ولكنْ عندما يتعلَّق الأمر بإليزوين، فإنَّه مُرغَمٌ على التَّفكير برأس البارون، لا برأسه هو. ورأس البارون كان يفكِّر أنَّ ما يفشل فيه الرَّبُّ قادرٌ العلمُ على صُنعه. الرَّبُّ فشلَ. الآن دورُ أترديل.

وصلَ إلى القلعة في عربةٍ سوداءَ برَّاقة، ما يبدو جنائزيَّاً قليلاً، ولكنْ في الوقت نفسِه فائقَ المشهديَّة. حثيثاً صعدَ الأدراجَ وصارَ إلى أمامِ الأب بلوش، ودون أن ينظر إليه تقريباً، سألَ

- حضرتكم البارون؟

- ليتنا كنَّا.

كانت تلك سجيَّةُ الأب بلوش. لم ينجح يوماً في لجمها. لم يكن ينطق أبداً العبارةَ التي كان ينبغي أن يَنطقَ. كان يردُ إلى ذهنه قولٌ آخرُ قبلها. قبلها بهُنيهة. ولكنَّه كان أكثر من كافٍ ووافٍ.

- أنتم إذن الأب بلوش؟

- هو أنا.

- أأنتم مَن كتب إليَّ.

- أجل.

- حسناً، إنَّ لديكم أسلوبٌ غريبٌ في الكتابة.

- بمعنى؟

- لم يكن ثمّة مِن حاجةٍ إلى كتابة النَّصِّ كلِّه سجعاً. كنتُ سآتي في جميع الأحوال.

- أواثقٌ أنتَ من ذلك؟

على سبيل المثال: الصَّواب الذي كان ينبغي قوله هنا

- عذراً، تلك كانت لعبةً سخيفة

وفي حقيقة الأمر العبارة وصلت مُعَدَّةً بإتقان إلى رأس الأب بلوش، بهيَّةً مُتلاحمةَ الأجزاء ونظيفة، ولكنْ؛ مع هُنيهةِ تأخيرٍ في نُطقها، كان ذلك كافياً لكي ينزلق تحتَ هبوبٍ أخرقَ من كلماتٍ ما تلبث أن تطفو على سطح الصَّمت حتّى تتبلور في البريق المحقَّق لسؤالٍ هو كُلِّيّاً خارجَ السِّياق.

- أواثقٌ أنت من ذلك؟

رفعَ أترديل ناظريه نحو الأب بلوش. كان الأمر أكثر من مجرَّد نظرة. كان مُعاينةً طبِّيَّة.

- إنِّي واثقٌ من ذلك.

تلك، لحسن الحظِّ، خصيصةٌ لدى رجال العلم: إنَّهم واثقون من ذلك الشَّيء.

- أين هي هذه الفتاة؟

"أجل... إليزوين... هذا هو اسمي. إليزوين."

"أجل، أيُّها الطَّبيب."

"لا، صدقاً، لستُ خائفة. إنَّني أتحدَّث دائماً بهذه الطَّريقة. إنَّه صوتي. الأب بلوش يقول إنَّ..."

"شكراً، سيِّدي."

"لا أعلم. أمورٌ في منتهى الغرابة. هو ليس خوفاً، ليس بالضَّبط خوفاً... بل شيءٌ مغايرٌ بعض الشَّيء... الخوف يأتي مِن خارج، هذا شيءٌ وعيته تمامَ الوعي، تكون أنتَ هناك، وينقضُّ الخوفُ عليك مِن أعلى... ثمّة أنتَ، وثمَّة هو... الأمرُ هكذا... ثمّة هو، وثمَّة أنا أيضاً، وبدلاً من ذلك، فإنَّ ما يحصل لي هو أنَّني على حين غرَّةٍ لا أعودُ موجودةً، لا يبقى موجوداً إلَّا هو فحسب... غير أنَّه ليس خوفاً... لا أعلم ما يكون... أتعلم أنت؟"

"أجل، سيِّدي."

"أجل، سيِّدي."

"يبدو الأمرُ بعضَ الشَّيء وكأنَّك تحسُّ بأنَّك تموت. أو تتبدَّد. هوَذا: تتبدَّد. يبدو وكأنَّ عينيك تنزلقان من وجهك، ويديك تنقلبان كيدَي شخصٍ آخر، وحينذاك ماذا تظنُّ يحصل لي؟، وفي أثناء ذلك يخفق قلبك بين جوانحك حتّى توشك أن تموت، لا يتركك في سلام... ومن كلِّ جارحةٍ فيك يبدو وكأنَّ أجزاءَ منك تغادر، فتكفّ عن الإحساس بها... الخلاصةُ أنَّك موشكٌ على الزَّوال، وإذَّاكَ أقولُ لنفسي عليكِ التَّفكير بشيءٍ ما، عليكِ البقاء متشبِّثةً بفكرةٍ ما، فإذا ما استطعتُ في تلك الفكرة تقليصَ نفسي مرَّ كلُّ شيءٍ على ما يرام، عليك فقط أن تقاوم، ولكنَّ واقع الحالِ يتمثَّلُ... وهذا هو مكمنُ الرُّعب... واقع الحال يتمثَّل في أنَّه لا يعودُ ثمّة أفكار، في أيِّ جزءٍ داخلك، لا يعود ثمّة أفكار، بل هياجُ مشاعرَ فحسب، أتفهمني؟ هياجُ مشاعر... أعنفها هي تلك الحمَّى الجحيميَّة، رائحةُ نتنٍ راكدٍ لا تُحتمَل، طعمُ موتٍ ههنا في الحلق، حمَّى، وخُنَّاق، شيءٌ ما ينهشك، شيطانٌ ينهشك، ويقطِّعك إرباً، شيءٌ..."

"عفواً، سيِّدي."

"بلى، ثمّة مرَّاتٌ يكون فيها أكثر... بساطةً، أقصدُ، أحسُّ بأنَّني أتبدَّد، أُجل، ولكنْ: بعذوبة، رويداً رويداً... إنَّها العاطفة، الأب بلوش يقول إنَّها العاطفة، يقول إنَّني لا أمتلك ما يحميني من العاطفة، وعليه كما لو أنَّ الأشياء تنفذ مباشرةً في عينيَّ، وفي..."

"في عينيَّ، بلى."

"لا، لا أذكر ذلك. أعلم أنَّني أكون مريضةً، ولكنْ... في بعض الأحيان ثمّة أشياء لا تخيفني، أريد أن أقول، إنَّ الأمر لا يكون دائماً على ذلك المنوال، في الليلة الماضية وقع إعصارٌ مَهولٌ، بروقٌ، رياح... ولكنَّني كنت هادئةً، بصدقٍ، لم يعترِني الخوف، ولا أيُّ شيءٍ آخر... بينما يكفي لونٌ، أو ربَّما شكلُ شيءٍ ما، أو... أو وجه إنسانٍ عابرٍ، هوَ ذا، إنَّها الوجوه... الوجوه يمكن أن تكون مروِّعة، أليس كذلك؟ ثمّة وجوهٌ، بين الفينة والأخرى، وجوهٌ حقيقيَّة، يُخيَّل إليَّ أنَّها تنقضُّ عليَّ، وجوهٌ تزمجرُ، أتفهم ماذا أقصد؟ تزمجرُ من فوقك، ذلك مُريع، وما من سبيلٍ لتردَّها عنك، ما مِن... سبيل..."

"الحُبُّ؟"

"الأب بلوش يقرأ عليَّ الكُتُب، بين الحين والآخر. إنَّها لا تلحق بي أذىً. الأمر لا يطيب لوالدي، ولكنْ... في النِّهاية ثمّة أيضاً قصصٌ... مثيرةٌ للعواطف، أتفهمني؟ وفيها بشرٌ يسفكون الدِّماء، وبشرٌ يموتون... ولكنَّني قادرةٌ على سماعِ أيِّ شيءٍ إذا هو خرجَ من كتاب، هذا غريبٌ، وفي مُكْنتي كذلك البكاءُ وهو أمرٌ فائق العذوبة، لا يشتملُ على رائحة الموت النَّتنة تلك، أبكي، كلُّ ذلك هنا، والأب بلوش يواصلُ القراءة، والأمرُ في غاية الجمال، ولكنْ ينبغي ألَّا يعلم والدي شيئاً من هذا، إنَّه لا يعلم بذلك، ولعلَّه من الأفضل أن..."

"طبعاً إنَّني أحبُّه، أحبُّ أبي. لماذا؟"

"السَّجاجيدُ البيض؟"

"لا أعلم."

"والدي رأيتُه ذاتَ يومٍ نائماً. دخلتُ إلى غرفته، ورأيتُه. آهِ، والدي. كان ينام منكمشاً على نفسِه، مثلَ الأطفال، على أحد جنبَيه، بساقين مطويَّتين، ويدَين مغلَقتَين، متشابكتين... لن أنسى ذلك ما حييتُ... آهِ والدي، بارونُ كايرووِل. كان نائماً كما ينامُ الأطفال. هل تفهمُ هذا؟ كيف يمكن ألَّا يتملَّكك الخوف إذا كان حتّى... كيف إذا كان أيضاً..."

"لا أعلم. إلى هنا لا يأتي أحدٌ أبداً..."

"أحياناً. أدرك ذلك، بلى. يتحدَّثون بهدوءٍ، عندما يكونون معي، ويبدو أيضاً وكأنَّهم يتحرَّكون ببطءٍ أكبر... أكبر من المعتاد، كما لو خِيفةً من أن يكسروا شيئاً. غير أنَّني لا أعلم إذا ما..."

"لا، ليس صعباً... ولكنْ مُغايراً، لا أعلم، إنَّه كأن تبقى..."

"الأب بلوش يقول إنَّه كان من المفترض في الحقيقة أن أكون فراشةً ليليَّة، بيدَ أنَّ خطأً ما وقع، وهكذا وصلتُ إلى هنا، ولكنْ ليس هذا المكانَ الذي انبغى عليهم بالضَّبطِ أن يضعوني فيه، ولذلك فإنَّ كلَّ شيءٍ الآنَ يبدو صعباً قليلاً، وطبيعيٌّ أنَّ كلَّ الأشياء تؤذيني، عليَّ أن أتحلَّى بصبرٍ كبيرٍ، وأن أنتظر، إنَّها لَمسألةٌ معقَّدة، وهذا واضحٌ، أن تتحوَّلَ فراشةٌ إلى امرأة..."

"حسناً، سيِّدي."

"ولكنَّه ضربٌ من اللعب، إنَّه ليس شيئاً حقيقيَّاً تماماً، ولا هو بزائفٍ تماماً أيضاً، لو أنَّك تتعرَّف بالأب بلوش..."

"بالتَّأكيد، سيِّدي."

"أهو مرضٌ؟"

"أجل."

"لا، لست خائفة. مِن هذا لستُ خائفةً، بِصِدق."

"سأفعلُ ذلك."

"أجل."

"أجل."

"وداعاً إذن."

"..................."

"سيِّدي..."

"سيِّدي، المعذرة..."

"سيِّدي، كنت أريدُ أن أقول إنَّني أعلم أنَّني مريضة، ولا أقدر حتّى على الخروج من هنا، من وقتٍ إلى آخر، وحتَّى الرَّكض في حدِّ ذاته، إنَّما أجده شيئاً فائقَ الـ..."

"أريد أن أقول إنَّني أريدُها، هذه الحياة، ومستعدَّةٌ أن أفعل أيَّ شيءٍ لكي أتمكَّن من الحصول عليها، على كلِّ تلك الحياة الموجودة هناك، الكثيفة حدَّ الجنون، لا يهمُّ، يمكن أن أُجَنَّ أيضاً، ولكنَّ تلك الحياة لا أريد أن أفقدها، إنَّني أريدُها، أريدُها حقَّاً، حتّى وإن لم تورثني إلَّا مرضاً مميتاً، فالحياة هي ما أريد. سأتمكَّن من ذلك، صحيح؟"

"أليس صحيحاً أنَّني سأتمكَّن من ذلك؟"

وهكذا فإنَّ العلمَ شيءٌ مُلغِزٌ، حيوانٌ مُبهمٌ، يبحث عن جحره في أكثر المواضع خروجاً عن المعقول، ويعملُ وفق خططٍ شديدة التَّدقيق في التَّفاصيل والتَّوافه، ولا يمكن الحكم عليها من خارج إلَّا بأنَّها غامضة، بل وحتَّى هزليَّة في بعض الأحيان، خططٍ شدَّما تبدو ضرباً في الآفاقِ خاوياً في حين أنَّها مسالكُ قنصٍ هندسيَّة، فِخاخٌ مزروعةٌ بفنٍّ معرفيٍّ، ومعارك استراتيجيَّة، يحصل أن نلبث أمامَها منذهلين قليلاً، مثلما حصل لبارون كايروول عندما تحدَّث إليه في النِّهاية ذلك الطَّبيبُ المتَّشحُ بالسَّواد، محدِّقاً في عينيه بيقينٍ باردٍ، ولكنْ، يمكن القول أيضاً، بمسحةٍ من الرِّقَّة، فرأى أنَّ التَّعرُّف برجال العلم وبالطَّبيب أترديل على وجه الخصوص هو أمرٌ منافٍ للعقلِ بالمطلق، ولئن لم يكن مُبهماً تمامَ الإبهام، لو أنَّه فقط كنَّا قادرين على النَّفاذ إلى رأس الطَّبيب أترديل نفسِه، وتحديداً إلى عينيه؛ حيث صورةُ ذلك الرَّجل الفارعِ القامةِ والقويِّ البُنية - بارون كايروول شخصيَّاً - لا تني تنزلق في صورةِ رجلٍ منكمشٍ على نفسِه في السَّرير، غافياً هناك مثل طفل، البارونُ العظيمُ ذو الجبروت والطِّفلُ الصَّغير، واحدُهما داخلَ الآخر، إلى الحدِّ الذي يغدو المرءُ معه عاجزاً عن التَّمييز بينهما، ويلبث مضطرباً حيالَ ذلك، حتّى بالنِّسبة إلى رجال العلم الحقيقيِّين كما هو، بما لا يقبل الجدال، شأن الطَّبيب أترديل لحظةَ حدَّق بيقينٍ باردٍ، وكذلك بمسحةٍ من الرِّقَّة في عينَي بارون كايروول، وقال له إنَّني قادرٌ على شفاء ابنتك - أنتَ قادرٌ على شفاء ابنتي - لكنَّ ذلك لن يكون من هيِّنات الأمور، وبشكلٍ من الأشكال سيكون فضلاً عن ذلك محفوفاً بالمخاطر على نحوٍ مروِّع - محفوفاً بالمخاطر؟ - إنَّها تجربة، ولا نعلم بحقٍّ بعدُ العواقب التي

يمكن أن تنجم عنها، غير أنّنا نظنُّ أنّها يمكن أن تنفعَ في حالاتٍ كمثل هذه، لقد رأينا ذلك مرّاتٍ عديدة، ولكنْ لا يمكن لأحدٍ في الحقيقة القولُ إنَّ...
- هي ذي المصيدةُ الهندسيَّة للعلم، مسالكُ القنصِ الخفيَّة، المباراةُ التي سيلعبُها ذلك الرَّجل المتَّشح بالسَّواد ضدَّ المرضِ الزَّاحفِ والعصيِّ لفتاةٍ هشَّةٍ للغاية لتحيا، وحيَّةٍ للغاية لتموت، مرضٍ غرائبيٍّ، ولكنْ يوجد له غريمٌ، وهو غريمٌ مهولٌ، ترياقٌ محفوفٌ بالمهالك غيرَ أنَّه برَّاق، وهو، إذا ما نظرتَ مليَّاً، عبثيٌّ بالمطلَق، حدَّ أنَّ رجلَ العلمِ خفضَ صوتَه في اللحظةِ نفسِها التي نطقَ فيها أمامَ عينَي البارون السَّاكنتين باسمِه، لا أكثر من كلمةٍ واحدة، ولكنَّه الشَّيء الذي سيُنْجي ابنته، أو سيودي بها، وأغلب الظَّنِّ أنَّه سيُنْجيها، كلمةٌ واحدةٌ فحسب، غيرَ أنَّها لامتناهيةٌ، على طريقتها، وساحرةٌ فوق ذلك، وبسيطةٌ بصورةٍ لا تُحتمَل.

- *البحر*؟

لبثتا ساكنتَين، عينا بارون كايروول. من هنا وحتَّى التُّخومِ التي تنتهي عندَها أراضيه لم يكن ثمّة في تلك اللحظة ذهولٌ أنقى تبلُّراً من ذاك الذي كان يتمايلُ باتِّزانٍ فوق قلبه.

- ستشفي ابنتي بواسطة *البحر*؟

-٥-

وحيداً، وسط الشَّاطئ، كان بارتلبوم يحدِّق. حافي القدمين، بنطاله ملفوفٌ إلى أعلى لئلَّا يبتلَّ، كرَّاسةٌ تحت إبطه، وقبَّعةٌ مِن صوفٍ على رأسه. منحنياً قدراً يكاد يكون غير محسوسٍ نحوَ الأمام، كان يحدِّق: إلى الأسفل. كان يتأمَّل الموضعَ الدَّقيق الذي عندَه، بعدَ أن تتكسَّرَ مرتدَّةً عشرةَ أمتارٍ إلى الوراء، تنفسحُ الموجةُ وتنسطِح - مُصَيَّرَةً بُحيرةً، ومرآةً، وبقعةَ زيتٍ - صاعدةً منحدرَ الشَّاطئِ اللطيفَ مرَّةً أخرى إلى أن يُقطَعَ بها، وتتوقَّفَ أخيراً - حافَّتها الخارجيَّة يوشِّيها زبدٌ رقيقٌ - لتتردَّدَ هُنيهةً قبلَ أن تستسلمَ، هي المهزومة، في النِّهاية لانسحابٍ رائقٍ تاركةً نفسَها تنزلق إلى الوراء، على امتداد مُنقلَبٍ هو في ظاهر الأمر سلِسٌ، غيرَ أنَّها، في الحقيقة، تكون فريسةً للشَّراهةِ الإسفنجيَّةِ للرِّمال التي، بعد أن كانت حتّى تلك اللحظةِ كَلِيلةً خائرة، صحت على حين غرَّةٍ من سباتها، وإذا بمجرى المياه القصير المتصدِّع يتبخَّرُ في العدم.

كان بارتلبوم يحدِّق.

في الدَّائرة اللامكتملة لعالَمِه البصريِّ كان كمالُ تلك الحركة التَّذبذبيَّة يصوغ عهوداً ما تلبث الفرادةُ التي لا تُكرَّر لكلِّ موجةٍ في ذاتها أن ترغمه على نكثِها. ما من سبيلٍ إلى إيقاف ذلك التَّعاقب المتواصل بين خَلْقٍ وهَدْم. كانت عيناه تتقصَّيان الحقيقة القابلة للوصف والمطابقة للقواعد لصورةٍ أكيدةٍ وكاملة: لكنَّهما، بدلاً من ذلك، كانتا تنتهيان بالإهراعِ وراءَ اللُّبْسِ

المتحرِّكِ لذلك الغدوِّ والرَّواح الذي يهدهدُ أيَّ نظرةٍ معرفيَّةٍ بالأماني، ويهزأ بها.

كان ذلك مُضجراً. لا بدَّ كانَ مِن عملِ شيء. ألجمَ بارتلبوم عينَيه. صوَّبهما أمامَ قدميه، مؤطِّراً بهما قطعةً من الشَّاطئ بكماءَ وساكنة. وقرَّرَ الانتظار. كان عليه أن يُنهي إهراعَ النَّظرِ وراءَ تلك الأرجوحة المرهقة. لو أنَّ محمَّداً لا يصعد الجبلَ، وهلمَّ جرَّاً، هلمَّ جرَّاً، أخذَ يفكِّر. عاجلاً أو آجلاً ستدخل - في ذلك الإطار، إطارِ النَّظرةِ، الذي تخيَّله سيكون خالدَ الذِّكر إذا ما غُلِّفَ ببرودِه المعرفيِّ - الصُّورةُ المتقنَةُ، الموشَّاةُ بالزَّبَد، للموجةِ التي ينتظر. وهناك، سيقيَّضُ لها أن تثبتَ وتتوطَّد، كمثلِ دمعةٍ، في فِكْرِه. ولَسوفَ يفهمُها هو. تلك كانت الخطَّة. بإنكارٍ كُلِّيٍّ للذَّات، هبطَ بارتلبوم في سكونيَّةٍ منزوعةِ المشاعر، متحوِّلاً، لِنَقْلْ، إلى أداةٍ بصريَّةٍ مُحايدةٍ ومعصومةٍ عن الخطأ. بالكاد كان يتنفَّس. داخلَ الدَّائرةِ المكينةِ المجتزَأة من نظرته هبط صمتٌ لاواقعيٌّ، كصمتِ مُختبَر. كان كمثلِ مصيدةٍ، هادئاً وصبوراً. ينتظرُ فريسته. وكانت الفريسة تُقبِلُ، رويداً رويداً. زوجُ حذاءٍ أنثويٍّ. عالٍ، ولكنْ لامرأة.

- لا بدَّ أنَّك بارتلبوم.

كان بارتلبوم، في واقع الأمر، ينتظرُ موجةً، أو شيئاً من هذا القبيل. رفعَ ناظرَيه، ورأى امرأة مُلْتَفِعةً بمُلاءةٍ بنفسجيَّةٍ بديعة.

- بارتلبوم، أجل... البروفسور إسماعيل بارتلبوم.

- هل أضعتَ شيئاً؟

فطنَ بارتلبوم إلى أنَّه بقي حتّى تلك اللحظة منحنياً إلى الأمام، متحجِّراً كذلك داخلَ الصُّورة المعرفيَّةِ للأداة البصريَّة التي تحوَّل إليها. عدَّلَ قامتَه بكلِّ ما أوتي من تلقائيَّة. ولم يؤتَ منها إلَّا نزراً.

- لا. إنَّني أعمل.

- تعمل؟

- بلى، أقوم... أقوم ببعض الأبحاث، أتعلمين؟ بعض الأبحاث...

- آه.

- أبحاثاً علميَّةً أقصد...

- علميَّة.

- أجل.

صمتٌ. المرأة انكمشت على نفسِها في ملاءتِها البنفسجيَّة.

- محاراتٌ، حَزازُ الصُّخور، شيءٌ من هذا القبيل؟

- لا، أمواج.

هكذا: أمواج.

- أعني... انظري هناك، حيث يصلُ الموجُ... يصعدُ الشَّاطئَ، ثمّ يتوقَّف... هوَ ذا، ذلك الموضع بالذَّات، هناك يتوقَّف... لا يستغرق الأمرُ أكثرَ من هُنيهة، ثمّ إذا بالموجِ يتبدَّد، لكنْ لو كان في مُكْنةِ أحد أن يوقفَ تلك الهُنيهةَ... عندما يسكنُ الموجُ، عندَ ذلك الموضع بالذَّات، عندَ تلك العَطْفة... ذلك هو ما أدرسُه. أدرسُ الموضعَ؛ حيث الأمواجُ تسكنُ.

- وما الذي يستحقُّ الدِّراسة في هذا؟

- حسناً، تلك نقطةٌ مهمَّة... أحياناً لا تلفتُ انتباهنا، لكنْ؛ إذا ما تمعَّنتِ في الأمر جيِّداً، فثمَّة شيءٌ خارقٌ للمألوف يجري هناك، شيءٌ... خارقٌ للمألوف.

- حقّاً؟

اشرأبَّ بارتلبوم بأناةٍ نحوَ المرأة. كان لِيُقال إنَّ لديه سرَّاً ليبوحَ به عندما قال

- هناكَ ينتهي *البحر.*

البحرُ الشَّاسعُ، البحرُ المحيطُ، الذي بلا نهايةٍ يتدفَّق أبعدَ من كلِّ نظرة، البحرُ المهولُ الكُليُّ القدرة - ثمّة موضعٌ ينتهي عندَه، وهُنَيهة - البحرُ الشَّاسعُ، موضعٌ ضئيلٌ للغاية وهُنيهةٌ كأنَّها لا شيء. هوَ ذا، ما أرادَ بارتلبوم قولَه.

طافت المرأة ببصرِها على الماء الذي كان ينزلق غير عابئٍ بشيءٍ، إلى الأمام وإلى الوراء، على الرِّمال. عندما رفعت عينيها نحو بارتلبوم، كانت العينان عينَين تبتسمان.

- اسمي آن دوڤِريا.

- تشرَّفتُ بمعرفتِك.

- أنا أيضاً من نزلاء نُزلِ آلماير.

- هذا نبأٌ رائع.

كانت تهبُّ، كعهدِها دوماً، رياحُ الشَّمال. زوجُ الحذاءِ الأنثويِّ كان يجتازُ آنذاك ما كان منذ قليلٍ مُختبرَ بارتلبوم مبتعداً بضعَ خطواتٍ. بعدئذٍ توقَّفَ بغتةً. المرأة استدارتْ.

- ستحتسي الشَّايَ معي، أليس كذلك، ظهيرةَ اليوم؟

ثمّة أمورٌ معيَّنة لم يرَها بارتلبوم إلَّا على المسرح. وعلى المسرح كانوا يجيبون دائماً:

- سيكون من دواعي سروري.

- موسوعةٌ عن الحدود؟

- بلى... العنوان الكامل يمكن أن يكون موسوعة *الحدود الممكنُ كشفُها في الطَّبيعة* مع *ملحَقٍ مخصَّصٍ لحدود القدراتِ البشريَّة*.

- وأنت قد شرعتَ في كتابتها...

- أجل.

- وحدَكَ؟

- أجل.

- حليب؟

كان بارتلبوم يتناول الشَّاي دائماً مع الليمون.

- أجل شكراً... حليب.

غيمةٌ.

سُكَّرٌ.

مِلعقةٌ.

مِلعقةٌ تدورُ في الفنجان.

مِلعقةٌ تتوقَّف.

مِلعقةٌ في صحن الفنجان.

آن دوڤِريا، جالسةً قُبالتَه، تُنصِتُ.

- للطَّبيعةِ كمالُها المبهِر، وما ذلك إلَّا ثمرة جُملةٍ من الحدود. الطَّبيعةُ كاملةٌ؛ لأنَّها ليست لانهائيَّة. إذا ما فهمَ أحدٌ الحدودَ، فهمَ كيف تعملُ الآليَّة. كلُّ المسألةِ يكمن في فَهْمِ الحدود. خذي الأنهار، على سبيل المثال. يمكن للنَّهر أن يكون طويلاً، وفائق الطُّول، ولكنْ لا يمكن له أن يكون لامتناهياً. فلكي يعمل النِّظام، وجبَ عليه أن ينتهي. وأنا أدرسُ كم يمكن له أن يمتدَّ طولاً قبل أن ينتهي. ٨٦٤ كيلومتراً. إنَّها إحدى الألفاظ التي سبق وكتبتُها: الأنهار. لقد استغرقت منِّي وقتاً، ليس بالقليل، يمكنكِ تصوُّر ذلك.

تصوَّرت آن دوڤِريا الأمر.

- لِنقُلْ: ورقة شجرة، إذا تأمَّلتِ فيها جيِّداً، وجدتِ كوناً فائق التَّعقيد: ولكنَّه مُتناهٍ. الورقة الأكبر حجماً يمكن العثور عليها في الصِّين: بعرضِ مترٍ و٢٢ سنتيمتراً، وطولٍ يبلغ ضعف ذلك تقريباً. هائلةٌ هي، ولكنَّها ليست لامتناهية. وثمَّة منطقٌ دقيقٌ، في هذا: فورقةٌ أكبر حجماً لا يمكن أن تنمو إلَّا على شجرةٍ هائلة في حين أنَّ الشَّجرة الأطول، والتي تنمو في أمريكا، لا يتجاوز ارتفاعها ٨٦ متراً، وذلك ارتفاعٌ مذهلٌ، بالطَّبع، ولكنَّه حتماً غير كافٍ لحملِ عددٍ، وإن يكن محدوداً، فهو لا مناصَ سيكون محدوداً، من أوراقٍ أكبر حجماً من تلك التي توجد في الصِّين. أترين أين يكمن المنطق؟

كانت آن دوڤِريا ترى جيِّداً أين يكمن المنطق.

- إنَّها لَدراسةٌ مُجهِدة، وشاقَّةٌ كذلك، هذا لا يمكن إنكاره، لكنَّ الفَهْم مسألةٌ جوهريَّة. الوصف. آخرُ الألفاظ التي كتبتها كانت: المَغيبات. أتعلمين؟ إنَّه لشيءٌ في منتهى العبقريَّة أنَّ النَّهارات تنتهي. إنَّه نظامٌ عبقريٌّ. النَّهارات ومن بعدها الليالي. ومِن ثمّ؛ النَّهارات مجدَّداً. يبدو أمراً بَدَهيَّاً، ولكنْ ثمّة ما هو مُبتكَرٌ فيه. فهناك حيث تقرِّر الطَّبيعةُ توطيدَ حدودِها، ينفجرُ المشهد. المَغيبات. لقد درستُها لأسابيع. ليس من هيِّنات الأمور فَهْمُ مغيبٍ من المَغيبات. إنَّ للمغيبِ أزمنته، وأبعاده، وألوانه. وحيث إنَّه ليس ثمَّة مغيبٌ واحدٌ، أقولُ واحداً، يمكن أن يكون مطابقاً لآخر، فإنَّ على الباحث أن يعرف كيف يميِّز الجزئيَّات، ويعزلَ الجوهرَ حتّى يصير قادراً على القول إنَّ هذا مغيبٌ، هذا هو المغيبُ. هل أُضجِرُكِ؟

لم تكن آن دوفْريا ضجِرةً. بمعنى: لم تكن ضجِرةً أكثر من المعتاد.

- على هذا المنوال، وصلتُ الآنَ إلى *البحر. البحر*. هو أيضاً ينتهي، كسائر الموجودات، لكنْ؛ تأمَّلي، الحالُ هنا أيضاً شبيهةٌ بحالِ المغيبات، فالصُّعوبة تكمن في عزلِ الفكرة، أعني، في اختزال أميالٍ وأميالٍ من الصُّخور البحريَّة النَّاتئة، والسَّواحلِ، والشَّواطئ، في صورةٍ واحدة، في مفهومٍ هو: نهاية *البحر*، في فكرةٍ يمكن تدوينها في أسطرٍ قليلة، وتضمينها في موسوعةٍ، لكي يستطيع البشرُ مِن ثمّ، إذْ يقرؤونها، أن يفهموا أنَّ البحرَ ينتهي، وأنَّه، بغضِّ النَّظرِ عن كلِّ ما يدورُ حولهم، بغضِّ النَّظرِ عن...

- بارتلبوم...

- سيِّدتي؟

- اسألني لمَ أنا هنا.

- لَمْ أسألكِ بعدُ، صحيح؟

- اسألني الآن.

- لِمَ أنتِ هنا، سيِّدة دوڤِريا؟

- لكي أبرأ.

حيرةٌ أخرى، صمتٌ آخر. يتناول بارتلبوم الفنجان، يحمله إلى شفتيه. إنَّه فارغٌ. فَلْنَنْسَ ذلك. يُعيد وضعه على الطَّاولة.

- تبرئين من ماذا؟

- إنَّه مرضٌ غريبٌ. الفُجور.

- معذرةً؟

- الفُجور، يا بارتلبوم. لقد خنتُ زوجي. وزوجي يظنُّ أنَّ مُناخَ البحرِ يهدِّئ العِشقَ، وأنَّ مرأى البحرِ يحرِّكُ الحسَّ الأخلاقيَّ، وأنَّ عزلةَ البحرِ ستدفعني إلى نسيان حبيبي.

- حقّاً؟

- حقّاً ماذا؟

- أحقّاً خنتِ زوجكِ؟

- بلى.

- قليلٌ من الشَّاي بعد؟

قائماً عندَ الحافَّةِ الأخيرةِ للعالَم، على بُعْدِ خطوةٍ من نهايةِ *البحر*، كان

نُزلُ آلماير يترك للظَّلامِ، في ذلك المساء أيضاً، أن يُخرِسَ رويداً رويداً ألوانَ جدرانه: وألوانَ الأرضِ كلِّها والمحيطِ بأكمله. كان يبدو - هو المنعزلُ، هناك - وكأنَّه منسيٌّ. كأنَّ طابوراً من الأنزال(*)، من كلِّ صنفٍ وعَصر، مرَّ ذات يومٍ من هناك، مُشاطئاً البحرَ، ومن بينها جميعاً انفصلَ واحدٌ، مِن الإعياء، وإذ ألفى نفسَه خارجَ صَخْبِ الرِّحلة، قرَّر البقاء على قمَّة تلك الأكمة، مستسلماً لِوهنِه، حانياً رأسه، ومنتظراً النِّهاية. هوَ ذا حالُ نُزلِ آلماير. يمتلك جمالاً لا يقدرُ على امتلاكه إلَّا المغلوبون. يمتلك نقاءَ الأشياء الواهنة. ويمتلك العزلةَ الخالصةَ، عزلةَ الضَّالِّين.

كان بلاسُّون، الرَّسَّامُ، قد بدأ العودةَ منذ قليلٍ، مُبتلّاً، مع لوحاته وألوانه، جالساً على حيزومِ زورقٍ يدفعه، بضرباتِ مجدافٍ، فتىً أحمرُ الشَّعر.

- شكراً، يا دُوْل. إلى الغد.

- ليلة سعيدة، سيِّد بلاسُّون.

وأمَّا إنَّه لم يكن قد ماتَ بعدُ بذات الرِّئة، فبلاسُّون هذا لغزٌ بحقٍّ. المرءُ لا يمكث ساعاتٍ وساعاتٍ في قلب ريحٍ شماليَّة، قدماه منقوعتان في الماء والمَدُّ يصعد في سروالِه دون أن يموت، عاجلاً أو آجلاً.

- عليه قبل كلِّ شيءٍ أن ينهي لوحتَه - ألقتْ ديرا الكلامَ على عواهنه.

- لن ينهيه أبداً – قالت السَّيِّدة دوفِريا.

- لن يموت أبداً، إذن.

في الغرفة رَقْم ٣، من الطَّابق الأوَّل، كان مصباحٌ نفطيٌّ ينيرُ بعذوبةٍ

*) جمع نُزل؛ (م).

- مفشياً السِّرَّ، هنا وهناك، في المساء - العشقَ البهيَّ الذي انقطعَ البروفسور إسماعيل بارتلبوم إلى الفناء فيه.

معبودتي،

يعلمُ الله كَمْ أتوق، في هذه السُّويعاتِ المُغمَّة، إلى العزاءِ الذي يبثُّه حضورُكِ والسَّكينةِ التي تُذيعُها بسماتُك. العملُ يُعييني، والبحرُ يثورُ على محاولاتي العنيدة لفَهْمه. لم يجرِ على بالي قبلَ هذا أنَّ الوقوفَ في حضرته يمكن أن يكون بهذه الصُّعوبة. فها أنا أطوف، مع أدواتي ودفاتري، دون أن أعثرَ على فاتحةِ ما أبحث عنه، على مدخلٍ إلى إجابةٍ أيّاً تكن. أين تبدأ نهاية البحر؟ أو دون مواربةٍ: ماذا نقصدُ حين نقول: بحر؟ أنقصدُ الوحشَ المهول القادرَ على ابتلاعِ أيِّ شيءٍ؟ أم تلك الموجةَ التي تصنع الزَّبدَ حولَ أقدامنا؟ الماءَ الذي بإمكانك حمله في جوفِ راحتِك؟ أم الهاويةَ التي لا يستطيع أحدٌ سبرَها؟ أترانا نقولُ كلَّ شيءٍ في لفظةٍ واحدةٍ؟ أم أنَّنا في لفظةٍ واحدةٍ نخفي كلَّ شيءٍ؟ إنَّني هنا، على بُعْدِ خطوةٍ من البحر، وأجدني لا أقدر حتّى على إدراكِ أين تُراه يكون. البحر. البحر.

اليومَ تعرَّفت بامرأةٍ فائقة الجمال. لكنْ؛ لا تعترينَّكِ الغيرة. إنَّني أحيا لأجلكِ أنتِ فقط.

إسماعيل أ. إسماعيل بارتلبوم

كان بارتلبوم يكتب بسلاسةٍ لا يُعكِّر صفوَها شيء، دون أن يتوقَّف هُنيهةً وبهوادةٍ لا يمكن لشيءٍ أن يشوِّشَها. كان يروقه التَّفكير بأنَّها، ذات يومٍ، بالطَّريقةِ نفسِها ستداعبُه.

في شبهِ الظِّلِّ، بأناملها الطَّويلة والرَّفيعة التي ساقتْ أكثرَ من رجلٍ إلى الجنون، كانت آن دوڤريا تمسُّ لؤلؤةَ طوقِها – سُبْحَةِ الرَّغبةِ - مسَّاً خفيفاً بالحركة الغافلة التي اعتادت أن ترفِّه عن نفسِها بها. كانت تتأمَّل شعلةَ المصباحِ في نزعِها الأخير، مختلسةً بين الفينة والأخرى النَّظرَ، في المرآة، إلى وجهها المُعاد رسمُه بأحزان تلك الإبراقات الصَّغيرة القانطة. اتَّكأت على عصفاتِ النُّور الأخيرةِ تلكَ لكي تقترب من السَّرير؛ حيث كانت تغفو، تحت دُثُرِ الفِراش، طفلةٌ غافلةٌ عن أيِّ مكانٍ آخرَ في الوجود، وفائقة الجمال. نظرتْ إليها آن دوڤريا - ولكنْ: نظرةً يبدو الفعلُ (ينظر) لأجلها لفظةً مفرطة القوَّة - نظرةً خلَّابةً هي نظرةُ مَن يرى ولا يطلبُ شيئاً - كمثلِ شيئين يتلامسان - العينُ والصُّورة - نظرةً لا تأخذ، وإنَّما تستقبل، في الصَّمتِ الأشدِّ خلوصاً للفِكْر، نظرةً هي النَّظرة الوحيدة التي يمكنها بحقٍّ أن تخلِّصنا - بِكْرٌ من أيِّ مَطلبٍ، لم تخدشها بعدُ رذيلةُ المعرفة - البراءةُ الوحيدة التي يمكنها أن تتداركَ جروحَ الأشياء عندما تلجُ من الخارج دائرةَ شعورِنا - رؤيتنا - شعورنا – الرؤية التي ليست على الإطلاق أكثر من استباقٍ مُذهلٍ، فثمَّة نحن والأشياء، وفي العيون، نستقبل العالمَ بأكمله - نستقبل - دونما بُغيات، بل وحتَّى دونما انذهال - نستقبل - فقط - نستقبل - في العيون - العالمَ بأكملِه. هكذا، فقط، تعرفُ عيون المريماتِ أن ترى، مِن تحتِ أقواسِ الكنائس، الملاكَ الهابطَ من سماواتٍ مذهَّبة، ساعةَ البشارة.

ظلامٌ. آن دوڤريا تلتصق بالجسد العاري للطِّفلة، في طويَّةِ السَّرير، تحت الدُّثُرِ الخِفافِ المكوَّرةِ مثلَ غمامات. أناملها تتلاحق على ذلك الجلد الفائق الوصف، وشفتاها تتقصَّيان في الطِّيَّاتِ الأشدِّ خفاءً مذاقَ الوسنِ الفاترَ. تتحرَّك برفقٍ، آن دوڤريا. رقصٌ بإبطاءِ الحركة، يُذيبُ رويداً رويداً شيئاً في الرَّأس، وبين السَّاقين، وفي كلِّ مكان. ما مِن رقصةٍ أكثر دقَّةً من هذه، لأجل التَّحليق مع الوسن، فوق بلاط الليل.

النُّورُ الأخيرُ، في النَّافذة الأخيرة، ينطفئ. وحدُها آلة *البحر* المُحالُ إيقافها تُواصلُ اقتلاعَ الصَّمت مع التَّفجُّر الدَّوريِّ لأمواجٍ ليليَّةٍ، لتذكاراتِ عواصفَ قصيَّةٍ مُصابةٍ بالسَّرنمة(*)، ولانهيارِ أحلام.

ليلٌ فوق نُزلِ آلماير.

ليلٌ جَمْدٌ لا حراكَ فيه.

استفاق بارتلبوم واهناً وعَكِرَ المزاج. لساعاتٍ، في الحلم، كان يساومُ كاردينالاً إيطاليَّاً في ثمن كاتدرائيَّةِ شارتر ليحصل في النِّهاية على صومعةٍ في نواحي أسِّيزي بثمنٍ بخسٍ مقدارُه ستَّة عشر ألف قورونة إضافةً إلى ليلةٍ مع دوروثيا، ابنةِ عمِّه، ورُبعِ نُزلِ آلماير. المساومةُ، زدْ على ذلك، حدثتْ على متن سفينةٍ شراعيَّةٍ حربيَّة يضربها عُبابُ الأمواج ويقودُها رجلٌ يقول إنَّه زوج السَّيِّدة دوقِريا، وضاحكاً - ضاحكاً - يقرُّ بأنَّه لا يعرف على الإطلاق شيئاً عن *البحر*. استفاق مُستنزَفَ القوى. لم يندهش إذْ رأى الفتى الصَّغيرَ إيَّاه جالساً على حافَّة النَّافذة، بسكونٍ، يتأمَّل *البحر*. غير أنَّه مكث مضطرباً لسماعه يقول، دون حتّى أن يلتفت إليه:

- ذلك الذي كان هناك، لقد رميتُ إليه بصومعته.

نزل بارتلبوم عن السَّرير، ودون أن ينطق بكلمةٍ واحدة، أمسك الفتى الصَّغيرَ من ذراعه، جارّاً إيَّاه إلى أسفل النَّافذة، ثمّ إلى خارج الباب، وأخيراً إلى الأسفل عِبرَ الأدراج صارخاً

- آنسة ديرا!

---

*) اضطراب المشي في أثناء النَّوم؛ (م).

فيما هو يتدحرج إلى أسفل الأدراج ليحطَّ في النِّهاية في الطَّابق الأرضيِّ حيث

- **آنسة ديرا!**

وجدَ أخيراً ما كان يبحث عنه، وهو مكتب الرِّيسبشن(*) - كما كان يؤثر أن يسمِّيه - لِيَمْثُلَ في خاتمةِ المطاف، قابضاً بإحكامٍ على ذراع الفتى الصَّغير، بين يدَي الآنسة ديرا - ذات العشر سنواتٍ، لا أكثر ولا بسنةٍ واحدة – حيث وقف، في النِّهاية، مع عبوسٍ متغطرسٍ يكسرُ بعضاً من حدَّته الضَّعفُ البشريُّ لقميصٍ جديرٍ بليلةِ رعبٍ، ويخلخله بالكامل، وبنحوٍ أكثر جدِّيَّةً اقترانُ هذا المذكور سابقاً مع غطاء رأسٍ صوفيٍّ للنَّوم، وكنزةٍ فضفاضة.

رفعت ديرا ناظريها عن حساباتها. الاثنان - بارتلبوم والفتى - كانا على ساقٍ واحدةٍ أمامَها. تكلَّما واحدُهما عَقِبَ الآخر، كما لو أنَّهما تدرَّبا على ذلك.

- هذا الفتى يقرأ الأحلام.

- هذا الرَّجل يتكلَّم في نومِه.

خفضَتْ ديرا ناظريها مجدَّداً على حساباتها. حتّى إنَّها لم ترفع صوتَها.

- اغرُبا.

غَرَبا.

---

*) في الأصل بالإنجليزيَّة، وتعني مكتب الاستقبال؛ (م).

-٦-

ذلك أنَّ بارون كايروول لم يرَ البحرَ في حياتِه أبداً. أراضيه كانت أرضاً: صخوراً، آكاماً، مستنقعاتٍ، حقولاً، مُنحدَراتٍ، جبالاً، غاباتٍ، سهوباً. أرضاً. البحرُ، ما مِن بحر.

البحرُ في نظرِه كان فكرةً. أو، بدقَّةٍ أكبر، أسلوبَ تخيُّل. كان شيئاً وُلِدَ باديءَ ذي بدء في *البحر* الأحمر - المفلوقِ بيدِ الله اثنين - وتضاعفَ في فكرةِ الطُّوفان الكونيِّ، وهناك تلاشى؛ ليتجسَّدَ مِن ثمّ في صورة فُلكٍ عظيم الجوفِ، ويرتبطَ في الحال بعد ذلك بفكرة الحيتان - تلك التي أبداً لم يرها، ولكنْ طالما تخيَّلها - ومن هناك عاد يتدفَّق، رائقاً من جديدٍ بما فيه الكفاية، في القصص القليلةِ التي وصلت إليه، عن أسماك وحشيَّةٍ وتنانينَ ومُدُنٍ تحت *البحر*، في تصعيدٍ موسيقيٍّ فائق الرَّوعة، يلتفُّ بعنفٍ في التَّقاطيع الحادَّة لوجه سلفٍ من أسلافه - مؤطَّراً وخالداً في الرِّواق الخليق به - حيث قِيل إنَّه كان جوَّابَ آفاقٍ صَحِبَ فاسكو دا غاما[*]: في عينيه المغلَّفتين بمسحةٍ رقيقةٍ من الخبث، كانت فكرة *البحر* تدخل طريقاً شؤماً، تتقافز على بضعةِ أخبارٍ مشكوكٍ بها عن مُبالغاتٍ قرصانيَّة، تُكبَّلُ في قولٍ للقدِّيس أوغسطينوس الذي أراد للمحيط أن يكون مسكنَ الشَّيطان، تعود في الزَّمن إلى الوراء نحو اسمٍ - ثيساليا – ربَّما كان لسفينةٍ

(*) Vasco da Gama (١٤٦٩-١٥٢٤م) مستشكف برتغالي هو أوَّل مَن سافر من أوروبا إلى الهند بحراً؛ حيث نجح في إيجاد طريق للسفر بينهما بديلٍ عن طريق الحرير الذي كان تحت سيطرة المسلمين؛ (م).

غارقةٍ، أو ربَّما لِمُرضعةٍ تقصُّ حكايا عن السُّفن والحروب، تلامسُ عطرَ أقمشةٍ انتهى بها المطاف هناك من بلدانٍ قصيَّة، وفي النِّهاية، تنبجسُ إلى الضَّوء في عينَي امرأةٍ من وراءِ البحار، قابلها منذ عهودٍ مضتْ، ثمّ لم يرَها أبداً؛ لتتوقَّفَ الفكرةُ البحرُ أخيراً، وقد بلغتْ خُتْمَةَ مِلاحاتها الذِّهنيَّة، في عبق فاكهةٍ قيلَ له إنَّها تنمو فقط على شواطئ *البحر* في بلاد الجنوب: وإنَّه إذا أكل منها تذوَّق طعمَ الشَّمس. بما أنَّ بارون كايروول لم يكن قد رأى البحرَ أبداً، كان البحرُ يسافرُ، في فِكْرِه: مُسالماً وزائداً عن الحاجة، مثلَ مسافرٍ غير شرعيٍّ على متن زورقٍ شراعيٍّ مستقرٍّ في مرسىً، بأشرعةٍ مُنزَلة.

كان يمكن له أن يبقى مستكنَّاً هناك إلى الأبد. ولكنْ؛ جاءت لتخرجَه من كِنِّه، في هُنيهةٍ واحدة، كلماتُ رجلٍ متَّشحٍ بالسَّواد يُطلَق عليه اسمُ أترديل، فتوى رجلِ علمٍ لَدودٍ استُدعيَ ليصنعَ مُعجزة.

- سوف أخلِّصُ ابنتَك. وسأفعلُ ذلك بواسطةِ *البحر*.

باطنُ *البحر*. ثمّة اللامعقول. البحرُ الآسنُ والمُنتنُ، مَثوى الأهوال، الوحشُ السَّحيقُ آكلُ لحومِ البشر - الوثنيُّ العتيق - المهيبُ أبداً والآن، فجأةً

يدعونك إليه، كما لو إلى نزهةٍ، يأمرونك بذلك، ذلك أنَّه انقلبَ الآنَ ترياقاً، يدفعون بك دفعاً وبلُطفٍ لا يرحم ولا يلين
داخلَ *البحر*. إنَّه ترياقٌ
وفقاً لما هو دارجٌ، هذه الأيَّام. بحرٌ حميدُ البرودة، أُجاجٌ ومُهتاج، وحيث إنَّ الموجةَ جزءٌ لا يُجتزأ من العلاج، بما تحملُه في ذاتها من مباعثِ خوفٍ، فإنَّه ينبغي عمليَّاً التَّفوق عليها وأخلاقيَّاً سحقَها، في نِزالٍ مُرعبٍ، نِزالٍ هو،

عندَ التَّمعُّن جيِّداً في الأمر، مرعبٌ بحَقٍّ. المسألةُ برمَّتها تكمن في اليقين - أو لنقل في الإيمان الرَّاسخ - بأنَّ الرَّحم البحريَّة قادرةٌ على تفتيتِ قوقعةِ المرض، وتنشيط قنواتِ الحياة من جديد، وتكثيرِ المُفرَزاتِ الخلاصيَّةِ للغددِ المركزيَّةِ والثَّانويَّة

زَيتاً طبِّيّاً مثاليّاً للمصابين

برُهاب الماء، بمرضِ السُّويداء، بالعنانةِ، بفقرِ الدَّم، بحُبِّ العزلة، بمَسِّ روحٍ خبيثة، بالحسدِ،

وبالجنون. كذلك المجنون الذي حملوه، في بريكستون،

تحت أنظار الأطبَّاء والعلماء التي لا يمكن النَّفاذ إليها، وغطَّسوه كُرْهاً في المياه المتجمِّدة، المرتجَّة بعنفٍ بقوَّة الأمواج، ثمّ قُذِفَ خارجاً؛ ليُصارَ، بعد أن قيستْ ردودُ فعلِهِ الانفعاليَّة وتلك الانعكاسيَّة، إلى تغطيسه من جديدٍ، وكُرْهاً، في مياهٍ حرارتُها حتماً

ثماني درجاتٍ مئويَّة، رأسُه تحت

الماء، وهو يطفو على السَّطح مجدَّداً مُطلقاً ما يشبه العواء، وإذا به بقوَّة حيوانٍ يتحرَّر من أيدي الممرِّضين وسائرِ المكلَّفين، وكلُّهم سبَّاحون لا يُشَقُّ لهم غبار، دون أن يُجديهم ذلك شيئاً في مواجهة الهياجِ الأعمى للحيوان الذي يتفلَّت - يتفلَّت - مهرولاً في الماء، وعارياً، وصارخاً من احتدامِ ذلك الألم القتَّال، من الخجل، ومن الذُّعر. الشَّاطئ كلُّه تجمَّدَ من الخوف، فيما ذلك الحيوان يعدو ويعدو، والنِّساء، مِن بعيدٍ، ينقِّلن أبصارهنَّ، فهنَّ مهما يكن يرغبن في رؤية، يقيناً يرغبن في رؤية، تلك البهيمةِ وطريقتِها في العَدْوِ، ولْنَقُلْ، في رؤية عُرْيها، تحديداً في رؤية ذلك العُرْي غير المتناسق الذي يشقُّ البحرَ على غير هدى، ولئن بدا بهيّاً في قلب الضِّياء الرَّماديِّ، ذلك البهاء الذي يخرقُ سنينَ التَّربية المقدَّسة والكُلِّيَّات والتَّضرُّجِ خجلاً، ويمضي سديداً؛ حيث ينبغي له أن يمضي، عالياً عِبرَ عروق النِّساء الحييَّات

اللائي في طويَّة تنانيرهنَّ الهائلة لسن إلَّا

نساءً طاهرات. *البحر* حينذاكَ

بدا، على حين غرَّةٍ، وكأنَّه كان في انتظارهنَّ منذ الأزل. إذا ما صدَّقنا النَّطاسيِّين، فإنَّه كان هناك، منذ آلاف السِّنين، يتكمَّلُ بصبرٍ كبير، لأجل غايةٍ وحيدةٍ بعينِها تتمثَّل في وهْبِ نفسِه بلسماً عطريَّاً مُعجِزاً، يُقدِّمُ لآلامهنَّ، آلامِ الرُّوح والجسد. هكذا راح يردِّدُ في الرَّدهاتِ المنزَّهة عن الخطيئة، على مسامع أزواجٍ وآباءٍ منزَّهين عن الخطيئة، أطبَّاءٌ منزَّهون عن الخطيئة، وهم يرتشفون الشَّاي، ويقيسون الكلمات؛ ليشرحوا، بلُطفٍ تناقضيٍّ، أنَّ القرف من *البحر*، وصَدْمَتَه، والخوفَ منه، ليس إلَّا علاجاً ساروفيميَّاً(*)، للعُقم، وفقدان الشَّهيَّة، والإرهاق العصبيِّ، وانقطاع الحيض، وفرط الإثارة، واضطراب النَّفْسِ، والأرَق. ذلك البحرُ تجربةٌ مثاليَّةٌ لإبراء اضطرابات الغلومة، والتَّهيُّؤ لضَنكِ الواجبات النِّسائيَّة. معموديَّةٌ افتتاحيَّةٌ جليلةٌ لفتياتٍ صِرْنَ نساءً. هكذا إذا ما أردنا أن ننسى، لِهُنيهةٍ، المجنونَ في بحرِ بريكستون

(المجنونُ استمرَّ في العَدْوِ، ولكنْ صوبَ الشَّاسعِ الرَّحيبِ، إلى أن تلاشى تماماً، لُقيةٌ علميَّةٌ تملَّصتْ من إحصائيَّاتِ الأكاديميَّةِ الطِّبِّيَّة، وأسلمت نفسَها بعفويَّةٍ مُطلَقةٍ لجوفِ البحرِ المحيط)

إذا ما أردنا

نسيانه

(هو المهضوم داخلَ المعي البحريِّ العظيم وغيرُ المُعادِ أبداً إلى الشَّاطئ، غيرُ المُتقيَّأ أبداً إلى العالم والمختزَل، بعد الذي قُدِّرنا عليه من طولِ انتظار، إلى نُفَّاخةٍ ممتقعةٍ، لا شكلَ لها، ولا صيغة)

أمكننا إذَّاكَ أن

---

*) نسبةً إلى السَّاروفيم أحد الملائكة المقرَّبين في الدِّيانة المسيحيَّة؛ (م).

نفكِّرَ بامرأة - بامرأةٍ - موقَّرةٍ، معشوقةٍ، أمٍّ، امرأة. امرأةٍ حُمِلَتْ، لسببِ - مرضٍ - أو لآخَر إلى بحرٍ ما كان لِيُقَيَّضَ لها لولا ذلك أن تراه، فإذا به الآن إبرةُ شفائها، إبرةٌ لا نهاية لها في الحقيقة، وها هي تتأمَّلها عاجزةً عن فهمِها. شعرُها محلولةٌ عقائصُه، قدماها حافيتان، وما هذا بالشَّيء الذي لا يستحقُّ الذِّكر، بل إنَّه شيءٌ غير متوقَّعٍ فحسب، إذا ما وُضِعَ جنباً إلى جنب مع تلك السُّترة القصيرة والبنطال الذي يُبقي على الكعبين مكشوفَين، حتّى لَيُمكِنك التَّكهُّن بخاصرتيها النَّحيلتين أيضاً؛ إنَّه شيءٌ غير متوقَّعٍ فحسب، فوحدُها غرفة نومِها رأتها على تلك الحال، وعلى هذه الحال هي ذي تقف على رمال شاطئٍ مترامي الأطراف؛ حيث الهواء لا ينحبسُ دبِقاً من سريرٍ زفافيٍّ، بل تهبُّ رياحُ *البحر* حاملةً إليها بلاغَ حرِّيَّةٍ بدائيَّةٍ ممحوَّةٍ، منسيَّةٍ، مُضطهَدَة، مُهانةٍ على مدار حياتها كامرأةٍ أمٍّ وزوجةٍ ومعشوقة. وذلك واضحٌ لُوَاحَ الشَّمس: لا يمكنها ألَّا تشعرَ به. ذلك الخواءُ المحيطُ بها، مِن دون جدرانٍ وأبوابَ موصَدة، وأمامَها ليس إلَّا مرآةَ الماء، مرآةَ الماء اللامتناهية والمثيرة، ذلك في حدِّ ذاته وليمةٌ للحواسِّ، حفلُ عربدةٍ للأعصاب، وكلُّ ما ينبغي أن يحدث لم يحدث بعد، لسعةُ المياه الجليديَّة، الخوف، العناقُ السَّائلُ للبحر، الرَّجَّةُ على الجلد، القلبُ العالقُ في الحلْق ...

يرافقونها صوبَ *البحر*. على وجهها مُرخَىً حجابٌ جليل، قِناعٌ من حرير.

بأيَّةِ حالٍ، مجنون بريكستون ذاك، لم يأتِ أحدٌ بتَّةً ليُطالبَ بجثَّته. هذا ما قيل. كان الأطبَّاء يجرِّبون، هذا ما استُخلِصَ. أزواجٌ، لا يُصدَّق أنَّها اجتمعتْ أزواجاً، كانت تجوبُ الشَّاطئ، المريضُ مع طبيبه، مرضى شاحبون، فائقو البهاء، مُتلَفون من السَّقمِ يتحرَّكون بفتورٍ إلهيٍّ وأطبَّاءُ كفئرانٍ في قبو، يستقصون علاماتٍ، قرائن، أرقاماً، ورموزاً: يترصَّدون حركات

المرضِ في هروبه الكامدِ من كمين ذلك التِّرياق الغريب. كانوا يشربون ماءَ *البحر*، بلغ بهم الأمرُ ذلك المبلغ، أن يشربوا الماء الذي إلى الأمسِ كان مبعثَ خوفٍ وقرف، ونتْناً مُهيناً، وامتيازاً لبشريَّةٍ مُهمَلَةٍ وبربريَّة، ملفوحةٌ جلودُها بالشَّمس. كانوا يكرعونه، الآن، أولئك الأعيياء(*) الإلهيُّون أنفسهم، وهم يَدْرُجون عندَ مضرب الأمواج مجرجرين بالكادِ أقدامَهم، بما يشبه على نحوٍ فائقٍ عرَجاً نبيلاً يُنجِّيهم من المقولة السَّائدة بأنَّهم يقدِّمون قدماً، ويؤخِّرون أخرى. المسألةُ كلُّها مسألةُ استشفاء. البعض يعثر على زوجة، آخرون يكتبون الشِّعر، إنَّه العالَم الأبديُّ القزازةِ، وقد انقلبَ فجأةً - عندَ إمعان النَّظر – مقصداً طبِّيَّاً على وجه الحصر، على حرْفِ هوَّةٍ استُكْرِهتْ قروناً، وانتُجِبَتِ الآن، عن اختيارٍ وكُرمى للعِلم، كمُتَنَزَّهٍ(**) للألم.

مغطسُ *أمواجٍ*، هكذا كان يسمِّيه الأطبَّاء. كان ثمّة معقَّدٌ آليٌّ حتّى، جِدِّيَّاً، ضربٌ مِن محفَّةٍ ابتُكِرتْ للنُّزول في *البحر*، وكانت تُستعمَل بلا شكٍّ لأجل النِّساء، النِّساءِ والفتيات؛ *لِسَتْرِهِنَّ عن العيون الفضوليَّة*. كنَّ يصعدن المحفَّةَ، المُطبَقة من كلِّ جهةٍ بستائر متلاشية الألوان - ألوانٍ غير صارخةٍ، إذا صحَّ الوصف - ليُحمَلنَ مِن ثمّ إلى داخل *البحر*، بضعةَ أمتارٍ داخل *البحر*، وهناك، فيما المحفَّة طافيةٌ على سطح الماء، كنَّ ينزلن ويغتسلن، على سبيل الاستشفاء، غير مرئيَّاتٍ تقريباً وراءَ ستائرهنَّ. ستائرُ في مهبِّ الرِّياح، محفَّاتٌ كمثل سرادقاتٍ عائمة، ستائر كحُلَلِ القساوسةِ في موكبٍ دينيٍّ تاهَ، بصورةٍ لا تقبلُ الشَّرحَ والتَّفسيرَ، في الماء، مشهدٌ مهيبٌ، للنَّاظرين إليه من الشَّاطئ. مغطسُ الأمواج ذاك.

وحدُه العلمُ قادرٌ على اجتراحِ أمورٍ بعينِها، تلك هي الحقيقة.

---

*) في الأصل بالفرنسيَّة؛ (م).

**) في الأصل بالإنجليزيَّة؛ (م).

أن يكسحَ قروناً من القزازة - البحرُ المهولُ رحمُ التَّفسُّخ والموت - ويبتكرَ ذلك الشِّعرَ الرَّعويَّ الذي ما يلبث شيئاً فشيئاً أن يعمَّ كلَّ شطآن العالَم. إبلالاتٌ

باسمِ الحبِّ. ثمّ وقعَ هذا: ذاتَ يومٍ على شاطئ ديبر حملَ الموجُ إلى الضِّفَّةِ زورقاً صغيراً، بدا طللاً أكثر منه حطام مركبٍ غارقٍ. وكانوا هناك، سَبيُّو السَّقامِ، المبعثَرون على امتداد أميالٍ شاطئيَّة، وكلٌّ يُتِمُّ جماعَه الجنسيَّ، كأنَّه نقشٌ بهيٌّ فوق رمالٍ على مَدِّ البصر، كلٌّ داخلَ فقاعةِ اضطرابِه، وشهوتِه، وخوفِه. بالسَّلام المطلَق للعِلم الذي استدعاهم إلى هناك، هبطوا جميعاً من سمائهم بخطواتٍ مُبطئة صوب ذلك الحطام المتردِّد في الجنوح نحو الشَّاطئ، كمثلِ رسولٍ يتهيَّب الوصول. اقتربوا منه. سحبوه إلى المياه الضَّحلة. ورأوا. ممدَّداً كان في قعرِ الزَّورق، مع نظرةٍ ملتفتةٍ نحوَ السَّماء ويدٍ ممدودةٍ، إلى الأمام، لتعطي شيئاً لم يعد موجوداً. لقد رأوه:

قدِّيسٌ. تمثالٌ، من خشب. تمثالٌ ملوَّن. الرِّداءُ ينسدلُ إلى القدمين، جرحٌ يشقُّ الحنجرة، ولكنَّ الوجه، ذلك الوجه، كان غافلاً عن ذلك ومستريحاً، بوداعةٍ، في بحر سكينةٍ إلهيَّة. لا شيء آخر، في الزَّورق، عدا القدِّيس. وحدَه. وبالغريزةِ رفعَ الجميعُ، لِهُنيهةٍ، أنظارَهم يبحثون على سطح المحيط عن أثر كنيسةٍ، وذلك خاطرٌ يُمكن فَهْمُه ولكنَّه أيضاً خاطرٌ لا يحتكم إلى منطق، فلم يكن ثمّة كنائس، لم يكن ثمّة صلبان، لم يكن ثمّة دروبٌ، البحرُ بلا طرقاتٍ، البحرُ بلا تفاسير.

نظراتُ عشراتٍ من الأعيياء، والنِّسوةِ الذَّاويات، الفائقات الجمال، النَّائيات، والأطبَّاءِ المشرذمين كالفئران، والمعاونين والخدَم، والعجائز

المتلصِّصين، والفضوليِّين، والصَّيَّادين، والفتيات - وقدِّيسٌ واحدٌ. كلُّهم ذاهلون، هم وهو. ومُرتابون.

على شاطئ ديبر، ذاتَ يوم.

لا أحدَ وعى الأمر أبداً.

أبداً.

- احملوها إلى داشنباخ، فهو شاطئٌ مثاليٌّ لمغاطسِ الأمواج. ثلاثة أيَّامٍ. غطسةٌ في الصَّباح، ومثلُها في الظَّهيرة. اسألوا عن الطَّبيب تاڤرنر، ولسوف يدبِّر لكم كلَّ ما تحتاجون إليه. هي ذي رسالة توصيةٍ منِّي إليه. تفضَّلوا.

تناول البارونُ الرِّسالةَ دون حتّى أن ينظرَ إليها.

- ستموت مِن ذلك - قال.

- ذلك مُحتمَل. ولكنَّه مُستبعَد.

وحدهم الأطبَّاء العِظام يعرفون كيف يكونون سديدي الرَّأي بمثل هذه الكلبيَّة. أترديل كان أعظمهم طرَّاً.

- لنُسلِّم بهذه الحقيقة، أيُّها البارون: إنَّ في مقدوركم الإبقاء على تلك الفتاة ههنا في الدَّاخل لسنين، كيما تسيرَ على سجَّادٍ أبيض وتنامَ وسطَ بشرٍ يحلِّقون. ولكن يوماً ما ستحملها بعيداً بعيداً عاطفةٌ لن تكونوا قادرين على التَّنبؤ بها. آمين. الاحتمالُ الآخر، أن تقبلوا المجازفة، وتتَّبعوا وصفتي واضعين أملكم بين يدي الله. البحرُ سيردُّ لكم ابنتكم. ميِّتةً، ربَّما. ولكنْ؛ إن رُدَّتْ حيَّةً، فستكون حيَّةً بحقٍّ.

إنَّه سديدُ الرَّأي بصورةٍ كلبيَّة.

لبث البارون متحجِّراً، والرِّسالة في يدِه، عالقةٌ في منتصف المسافةِ بينه وبين الطَّبيب المتَّشح بالسَّواد.

- هل عندكَ أبناء؟

- هذه مسألةٌ بلا أدنى أهمِّيَّة.

- في جميع الأحوال ليس لديك أبناء.

نظرَ إلى الرِّسالة، وبرفقٍ وضعها على الطَّاولة.

- إليزوين ستبقى هنا.

مرَّت هُنيهة صمتٍ، لكنْ: لا أكثر من هُنيهة.

- ولا حتّى في الحلُم.

ذلك كان الأب بلوش. في حقيقة الأمر العبارةُ التي خرجت من عقلِه كانت أكثر تعقيداً وأقرب ما تكون إلى شيءٍ مِن قبيل "ربمَّا من الملائم تأجيل أيِّ قرارٍ حتّى يُصارَ إلى التَّفكُّرِ مليَّاً وبصفاءِ ذهنٍ في ما ينبغي أن...": شيءٌ مِن هذا القبيل. أمَّا "ولا حتّى في الحلُم" فكانت تعبيراً أكثر خفَّةً وإسراعاً، ولم يكن من المكابدة في شيء أن تنزلق بين قمصان العبارة الأخرى، وتبرزَ على سطحِ الصَّمت مثل ثعبانٍ مفاجئٍ، وليس في الحسبان.

- ولا حتّى في الحلُم.

تلك كانت أوَّلَ مرَّةٍ، منذ ستَّ عشرة سنة، يتجرَّأ فيها الأب بلوش على معارضة البارون في مسألةٍ تتعلَّق بحياة إليزوين. أحسَّ بنشوةٍ غريبة: كما

لو أنَّه ارتمى للتَّوِّ من إحدى النَّوافذ. كان رجلاً ذا روحٍ عمليَّة: فبما أنَّه كان هناك حينذاك، معلَّقاً في الهواء، فلقد جرَّب أن يطير.

- إليزوين سترحل صوبَ *البحر*. سأحملها أنا إلى هناك. وإذا ما دعت الحاجة، فسنمكث هناك شهوراً، أعواماً، إلى أن تفقد القدرةَ على مواجهة الماء وسائر الأمور الأخرى. وفي النِّهاية ستعود: حيَّةً. أيُّ قرارٍ آخر سيكون محض بلاهةٍ، بل وأسوأ، محض دناءة. فإذا كانت إليزوين خائفة، ينبغي ألَّا نخاف نحن، أمَّا أنا؛ فلن أخاف أبداً. إنَّها لا تكترث بالموت أبداً. أن تحيا، ذلك هو ما تشتهيه. وذلك الذي تشتهيه، ستظفر به.

تحدَّث الأبُ بلوش، وهو غير مصدِّقٍ. غير مصدِّقٍ أنَّه هو.

- إنَّك، يا أترديل، لا تفقه شيئاً عن البشر وعن الآباء والأبناء، لا شيء. ولهذا السَّبب فإنَّني أصدِّقك. الحقيقةُ دائماً لاإنسانيَّة. مثلك أنت. أعلم أنَّك على صواب. إنَّني مُغتَمٌّ منك، إلَّا أنَّني أُكْبِرُ كلماتِك. وأنا الذي لم أرَ البحرَ يوماً، صوبَ *البحر* سأمضي، لأنَّ كلماتك قالت لي ذلك. إنَّه الشيء الأكثر عبثيَّةً، وبعثاً على السُّخرية، وحماقةً من بين الأشياء التي يمكن أن أفعلها. لكنْ؛ لا أحد على الإطلاق، في كلِّ أصقاع كايروول، قادرٌ أن يمسكني عن فعل ذلك. لا أحد.

رفعَ الرِّسالة عن الطَّاولة، ووضعها في جيبه.

كان قلبه يخبط بقوَّةٍ داخلَ صدرِه مثلَ مجنون، ويداه ترتعشان، وطنينٌ غريبٌ في أذنيه. ليس ثمّة ما يدعو إلى العجب، فكَّرَ: لا يحدث كلَّ يومٍ أن نكون قادرين على الطَّيران.

كان يمكن لأيِّ شيءٍ أن يحدث، في تلك اللحظة. حقَّاً ثمّة لحظاتٌ تنقادُ فيها الشَّبكةُ الموجودة في كلِّ مكانٍ والمنطقيَّةُ لتلك التَّلاحقات

العرضيَّة والفجائيَّة في المشاهد، فتنزل، مبهوتةً من الحياة، إلى قاعة المسرح، وتختلط بالجمهور، تاركةً على الخشبة، تحت أضواء حُرِّيَّةٍ مُدوِّخةٍ ومُباغِتة، يداً خفيَّةً تتصيَّدُ في الرَّحم اللامتناهي للمُمكن، ومن بين ملايين الأشياء تدع شيئاً واحداً فحسب يحدث. في المثلَّث الصَّامت المكوَّن من أولئك الرِّجال الثَّلاثة، عَبرَتْ تِباعاً، وبالملايين، كلُّ الأشياء التي كان من الممكن أن تنبجس، ولكنَّها عَبرَتْ كالبرقِ، خطفاً، إلى أن وهنَ الوميضُ ومعه سحابةُ الغبار، فَلاحَ إذَّاك من بينها شيءٌ واحدٌ فحسب، شيءٌ واحدٌ طفيفٌ، في دائرة ذلك الزَّمان وذلك الحيِّز، شيءٌ مدفوعٌ ببعض الخفرِ إلى الوقوع. ولقد وقع. أنَّ البارون - بارون كايرووِل - طفق يبكي، دون حتّى أن يخفي وجهه بين يديه، بل فقط توجَّه إلى مسند كرسيِّه الفاخر، كما لو أنَّه ضُعْضِعَ من الإعياء، ولكنْ، في الوقتِ نفسِه كما لو أنَّه حُرِّرَ من ثقلٍ عظيم. كمثل رجلٍ هالكٍ، ولكنْ؛ أيضاً كمثل رجلٍ مُنَجَّى.

بكى، بارونُ كايرووِل.

دموعه انهمرت.

الأب بلوش، متلبِّثٌ بلا حراك.

الطَّبيب أترديل، كالأبكم.

ولا شيء آخر.

كلُّ الأشياء، تلك الأشياء، لم يسمع بها أحدٌ في أصقاع كايرووِل. ولكنْ؛ كلُّهم، لا يُستثنى منهم أحدٌ، كانوا يروون آنذاك ما وقع بعدَ ذلك. عذوبةَ ما وقعَ بعد ذلك.

- إليزوين...

- يا لِلتِّرياق العجيب!

- *البحر*...

- هذا جنون...

- ستُشفى، سترى.

- ستموت.

- *البحر*...

البحرُ - كما رأى البارون في رسومِ الجغرافيِّين - كان قصيًّاً. ولكنْ؛ فوق كلِّ شيءٍ - كما رأى في منامه - كان مهولاً، ومفرطاً في بهائه، وفائق الجبروت - بهائميًّاً وعدوانيًّاً - مُبهراً. كان، بعدَ ذلك، فيضَ ألوانٍ متنوِّعة، وروائحَ لم تُشَمَّ مِن قبلُ يوماً، وأصواتٍ مجهولة - كان الكونَ الآخرَ المغاير. كانت إليزوين تتأمَّله عاجزةً أن تتصوَّرَ بأيَّةِ حالٍ استطاعت الدُّنوَّ من كلِّ ذلك دون أن تغيبَ، في العدمِ، متلاشيةً في الفضاء اضطراباً ودهشةً. فكَّرت في اللحظة التي التفتتْ فيها، فجأةً، وفي عينيها تلقَّتِ البحرَ كلَّه. فكَّرت في ذلك لأسابيع. وبعد ذلك فهمتْ. لم يكن الأمرُ صعباً، في النِّهاية. كان من غير المعقول أنَّها لم تفكِّر في *البحر* من قبلُ.

- كيف سنبلغُ البحرَ؟ - سأله الأبُ بلوش.

- سيكون هو مَن سيأتي ليأخذكم.

هكذا انطلقوا، في صبيحةٍ من صباحاتِ نيسان، قطعوا أريافاً وآكاماً، وعندَ غروبِ اليومِ الخامسِ وصلوا إلى ضفَّةِ نهرٍ. لم يكن ثمّة بلدةٌ، لم يكن ثمّة بيوتٌ، لا شيء. لكنْ؛ على سطح الماءِ كانت تتمايل صامتةً سفينةٌ

شراعيَّةٌ صغيرة. كان اسمها أديل. كان دأبها ألَّا تبحرَ إلَّا في مياه المحيط، حاملةً الثَّراءَ والفقرَ، غُدُوَّاً ورَواحاً، ما بين القارَّة والجُزُر. على الحيزوم، كانت تحملُ تمثالاً يندلق شَعرُه حتّى يلامس قدميه. أشرعتها تضمُّ في أرحامها كلَّ رياحِ العالَم القصيِّ. صالبُها(*) راقبَ، لسنواتٍ، جوفَ *البحر*. في كلِّ ركنٍ منه روائحُ مجهولةٌ تقصُّ حكاياتٍ، كانت تحملها وجوه الملَّاحين محفورةً في جلودِها. كانت سفينةً بصاريَين. بارونُ كايروول أرادَ لها أن تهبطَ مجرى النَّهرِ نحوَ *البحر*.

- إنَّها فكرةٌ مجنونة - كتبَ إليه الرُّبَّان.

- سأغمركَ بالذَّهب - أجابَ البارون.

وفي الحال، كمثلِ شبحٍ توارى من أيِّ دربٍ ممكنٍ، صارت السَّفينة الشِّراعيَّة ذات الصَّاريين والمسمَّاة أديل هناك. على الجسر الصَّغير، حيث اعتادتْ أن ترسوَ زوارق في منتهى الصِّغَر، ضمَّ البارونُ ابنته إليه، وقال لها

- وداعاً.

أطرقت إليزوين برأسها. على وجهها انسدلَ خمارٌ حريريٌّ، دسَّت بين يدَي والدِها ورقةً مطويَّةً ومختومة، استدارت، ومشت نحو الرِّجال الذين رفعوها إلى السَّفينة. كان الوقتُ قرابةَ الليل، آنذاك. أن تشتهي ذلك، ما كان ليبدو الأمرُ أكثر من حلم.

هكذا انحدرتْ إليزوين صوبَ *البحر* بأعذب طريقةٍ في العالَم - وحدُها مخيِّلةُ أبٍ يمكن أن تتصوَّرَها - محمولةً بقوَّةِ السَّيل، على امتدادِ رقصةٍ مؤلَّفةٍ من عَطفاتٍ، ووقفاتٍ، واهتزازاتٍ تعلَّمها النَّهرُ خلال قرونٍ من السَّفر، هو، الحكيم الأكبر، الأوحد في معرفة الطَّريق الأجمل والأعذب

---

*) صالبُ السَّفينة هو العارضة الرَّئيسة التي تمتدُّ على طول قعر السَّفينة؛ (م).

والأرفق لبلوغ البحرِ بلا ضررٍ ولا ضرار. انحدروا إلى هناك، بتلك الأناة المصمَّمة بدقَّة مِن قِبلِ الحكمة الأموميَّةِ للطَّبيعة، والجِين رويداً رويداً في كونٍ مِن روائحَ مِن أشياء مِن ألوانٍ كان يرفعُ الحجابَ يوماً بعدَ يوم، وبأناةٍ فائقة، عن ذلك الحضور البعيد، والذي يتدانى أكثر فأكثر، حضورِ ذلك الحضن المهولِ الذي ينتظرهم. تبدَّلتِ الرِّيحُ، تبدَّلَ الفجرُ، والسَّماواتُ، وأشكالُ الأشياءِ، والطُّيورُ، والأصواتُ، ووجوهُ البشر، على الضِّفَّة، وكلماتُ البشرِ، على الأفواه. ماءٌ ينزلقُ في ماء، غزَلٌ فائق العذوبة، عَطْفاتُ النَّهرِ كأنَّها لازماتٌ غنائيَّةٌ لروحٍ من الأرواح. سَفَرٌ يكادُ لا يُدرَك ولا يُحَسُّ. في فِكرِ إليزوين، آلافُ المشاعر كانت تعبرُ وتختلط، وإنَّما خفيفةً كريشةٍ في الهواء.

إلى اليوم، في أصقاعِ كايرووول، ما يزال الجميع يروي حكاية تلك الرِّحلة. كلٌّ على طريقته. كلٌّ دون أن يكون قد رآها أبداً. لكنْ: لا يهمُّ. لن يتوقَّفوا أبداً عن روايتها. ذلك أنَّ أحداً لم يكن قادراً على نسيان كم هو جميلٌ أن يكون لنا، نحوَ كلِّ بحرٍ ينتظرنا، نهرٌ يحملُنا. أن يكون لنا أحدٌ - أبٌ، عشيقٌ، أحدٌ - قادرٌ أن يأخذنا من يدِنا، وأن يعثر لنا على ذلك النَّهر - أن يتخيَّله، أن يبتكرَه - وأن يُنزِلَنا في مجراه، مع عذوبةِ كلمةٍ وحيدةٍ، وداعاً. لا يمكن لشيءٍ، حقَّاً، أن يفوق ذلك سحراً وروعة. عذبةً ستكون، إذَّاكَ، الحياة، أيَّةُ حياة. والأشياءُ لن تجرحَ أحداً، بل ستتدانى يحملُها المسيلُ، حتّى لَيُمكِن في البدءِ أن نمسَّها مسَّاً خفيفاً، ثمّ أن نعانقها قبل أن نسمح لها بأن تعانقنا في النِّهاية. بل وأن تجرحنا، أيضاً. أن تُميتنا. لا يهمُّ. فكلُّ شيءٍ، في خاتمة المطاف، بشريَّاً سيكون. ربَّما كان كافياً شبحُ أحدٍ - أبٍ، عشيقٍ، أحدٍ. هو سيعرف كيف يبتكر لنا معبراً، هنا، وسطَ هذا الصَّمت، وسطَ هذه الأرض التي لا ترغب في الكلام. معبراً رحوماً، وبهيَّاً. معبراً من هنا إلى *البحر*.

كلاهما لابثٌ بلا حراك، والعيون مسمَّرةٌ على ذلك الشَّاسع المائيِّ المهول. المهولِ إلى حدٍّ لا يُصَدَّق. المهولِ جدِّيّاً. المهول حدَّ أنَّ المرءَ يمكن أن يمكث هناك حياةً بأكملها، دون أن يفهم شيئاً، ولكنَّه يستمرُّ في التَّحديق. *البحر* من أمامهما، ونهرٌ سابغٌ من ورائهما، والأرضُ، في النِّهاية، تحت أقدامهما. وهما، هناك، بلا حراك. إليزوين والأب بلوش. كأنَّهما مسحوران. دونما فكرةٍ واحدةٍ تجول في الرَّأس حتّى، دونما فكرةٍ حقيقيَّةٍ، بل انسحارٌ وحسب. انبهارٌ. مرَّت دقائق ودقائق - كأنَّها الأبديَّة - إلى أن قالت إليزوين، في النِّهاية، دون أن ترفع عينيها عن *البحر*

- ولكنْ؛ في ما وراء هذا، عندَ نقطةٍ معيَّنةٍ، هل ينتهي؟

على بُعْد مئات الأميال، في عزلة قصرِه الهائلِ الفسيح، رجلٌ يقرِّبُ من شمعةٍ ورقةً ويقرأ. كلماتٌ قليلةٌ، كلُّها مكتوبةٌ على سطرٍ واحدٍ. حبرٌ أسود.

لا تخفْ. فأنا لستُ خائفة. أنا التي تحبُّك. إليزوين.

العربة ستأخذهما، بعد ذلك، خطفاً. ذلك أنَّه المساء، والنُّزُلُ في انتظارهما. رحلةٌ قصيرة. الطَّريق على امتداد الشَّاطئ. في كلِّ الأنحاء، لا أحد. تقريباً لا أحد. في *البحر* - ماذا يفعلُ في *البحر*؟ - ذلك الرَّسَّام.

-٧-

في سومطرة، أمام السَّاحل الشَّماليِّ لبانجيا، كلَّ ستٍّ وسبعين سنة كانت تبرز جزيرةٌ على شكل صليب، مغطَّاةً بنبْتٍ كثيفٍ، وغير مأهولةٍ كما يبدو. كانت تظلُّ مرئيَّةً لساعاتٍ معدودات، ثمّ تغوص في *البحر* من جديد. على شاطئ كاشكايش(*) عثر صيَّادو البلدة على بقايا السَّفينة الشِّراعيَّة داڤمبورت، التي غرقت قبل ثمانية أيَّامٍ من ذلك اليوم في الجهة الأخرى من العالَم، في بحر سيلان(**). في الطَّريق الملاحيِّ إلى فارهادار كانت تظهر للبحَّارة فراشاتٌ مضيئةٌ تسبِّب الدُّوارَ وإحساساً بالكآبة. في مياه بوغادور(***) اختفى أسطولٌ مكوَّنٌ من أربع سفنٍ حربيَّةٍ، ابتلعته موجةٌ واحدةٌ هائلة ظهرتْ من العدَم في نهارٍ من الصَّفاء المطلَق.

كان الأميرال لونغلاي يقلِّبُ بهوادةٍ تلك الوثائق التي وصلت إليه من البقاع الأشدِّ اختلافاً لعالَمٍ يصرُّ، كما هو واضحٌ، على التَّمسُّك بجنونِه. رسائل، مقتطفاتٌ من مذكَّراتٍ ملاحيَّة، جُذاذاتٌ من جرائد يوميَّة، محاضرُ استجوابٍ، تقارير سرِّيَّة، وبرقيَّاتٌ قنصليَّة. شيءٌ من كلِّ شيء. البرودة البليغة للمراسلات الرَّسميَّة والأسرار الكحوليَّة لبحَّارةٍ حالمين كانت تعبر على حدٍّ سواء العالَمَ؛ لتنتهي على ذلك المكتب؛ حيث، باسم المملكة،

*) بلدة ساحلية في البرتغال؛ (م).

**) سريلانكا، وكانت تُسمَّى بين عامي ١٩٤٨ و١٩٧٢ باسم سيلان؛ (م).

***) قرية في كولومبيا؛ (م).

كان لونغلاي يرسم بريشته الحدودَ بين ذلك الذي كان يُعَدُّ، في المملكة، صحيحاً، وذلك الذي كان يُرمَى بأنَّه زائفٌ. من كلِّ بحارِ الأرض، مئاتُ الصُّور والأصوات كانت تنتهي تِباعاً على ذلك المكتب كيما يزدردها حُكمٌ رفيعٌ رِفعةَ خيطِ حبرٍ أسود، مدبَّجٍ بخطٍّ دقيقٍ على كتبٍ مجلَّدةٍ بجلدِ ماعز.

يدُ لونغلاي كانت الحضنَ الذي ترتاح فيه أسفارُهم. ريشتُه، كانت الوهدةَ التي تنحني عليها عناءاتُهم. فإمَّا موتٌ مُحكَمٌ ونقيٌّ...

يُنظَر إلى هذا الخبر على أنَّه يفتقر إلى أيِّ أساسٍ موضوعيٍّ، وعلى هذا النَّحو يُحظَّر الإفصاحُ عنه أو الإتيان على ذِكْره في أوراق ووثائق المملكة.

وإمَّا، إلى أبد الآبدين، حياةٌ رائقةٌ وجليَّة.

يُنظَر إلى هذا الخبر على أنَّه صائبٌ، وعلى هذا النَّحو يُصارُ إلى إعلانه في أوراق ووثائق المملكةِ طُرَّاً.

هكذا كان يُصدرُ لونغلاي أحكامَه. يقايسُ القرائن، يختبرُ الأدلَّة، ويتحرَّى المصادر. ثمّ يحكم. كان يحيا يوماً بيوم وسط أشباح أخيولةٍ جماعيَّةٍ؛ حيث النَّظرة البرَّاقة للمكتشِف وتلك الوَهْميَّةُ للغريق تدرَّان معاً صوراً، أحياناً تكون متطابقةً، وقصصاً إن هي إلَّا محض تتمَّاتٍ، لا تحتكم إلى منطق. كان يحيا في صميم الأعجوبة. لذلك، كان يديرُ في قصره حكماً مُسبَّقاً ومُختبَلاً: فكانت حياته تنزلق وفق هندسةٍ ثابتةٍ من العادات تقاربُ قداسةَ طقسٍ أو شعيرةٍ دينيَّة. كان يتحصَّن، لونغلاي هذا. كان يحاصرُ وجودَه بشبكةٍ من القواعد الدَّقيقة القادرة على تلطيفِ دُوار الأخيلة التي يستسلمُ لها فِكْرُه، يوماً بعدَ يوم. ذلك الشَّطط الذي كان ينتهي بين يديه آتياً من كلِّ بحار العالَم كان يُخفَّف من غلوائه عندَ ذلك السَّدِّ المعَدِّ لتفاصيل الأمور ودقائقها، والمكوَّن من تلك اليقينيَّاتِ الدَّقيقة.

كمثل بحيرةٍ ساكنة، كانت تنتظرها، على بُعْدِ خطوةٍ منه، حكمةُ لونغلاي. حكمته الرَّاسخة والسَّديدة.

من النَّوافذ المشرَّعة كان يتناهى الصُّداحُ الإيقاعيُّ لمقصَّاتِ الجنائني، وهي تُشذِّبُ الوردَ واليقينَ، يقينَ حصافةٍ عازمةٍ على إصدار فتاوى خلاصيَّة. صُداحٌ أيَّاً يكن. لكنْ؛ في ذلك النَّهار، وفي رأس الأميرال لونغلاي، ذلك الصُّداحُ كان يتلو رسالةً مُستحكِمة البيان. متصبرِّاً ومتصلِّباً - مُدانياً جدَّاً للنَّافذة على وجه الصُّدفة - كان ذلك الصُّداحُ يحمل معه الذِّكرى الإجباريَّة لميثاقٍ قديم. لربَّما آثرَ لونغلاي عدمَ سماعِه. ولكنَّه كان رجلاً شريفاً. ولذلك نحَّى جانباً الصَّفحات التي كانت تتحدَّث عن جُزرٍ، وبقايا سفنٍ، وفراشاتٍ، وفتحَ دُرْجاً، وأخرجَ منه ثلاث رسائل مختومةٍ، ووضعها على المكتب. ثلاث رسائل كانت قد وصلتْ من ثلاثة أماكن مختلفة. وحيث إنَّها كانت تحملُ العلامات المميَّزة التي تحملها عادةً الرَّسائلُ المستعجلة والخاصَّة، فلقد أبقاها لونغلاي، جُبناً منه، مُودَعَةً بضعةَ أيَّامٍ في مكانٍ لا يمكن لعينيه أن تقعا فيه عليها أبداً. ولكنَّه فتحها الآن، بحركةٍ حازمةٍ ورسميَّة، ومُجانِباً كلَّ تردُّدٍ، جلسَ يقرؤها. سجَّل على ورقةٍ بعضَ الأسماء، وتاريخاً. حاولَ أن يقومَ بكلِّ شيءٍ بالحياديَّةِ المجرَّدةِ من الاعتبارات الشَّخصيَّة لمحاسبٍ من محاسبي المملكة. الملاحظة الأخيرة التي دوَّنها كانت تقول:

نُزُل آلماير، كوارتايل

في النِّهاية تناول الرَّسائل بيده، نهضَ، ومقترباً من المدفأة، رماها في اللهبِ المتعقِّل الذي كان يرعى ربيعَ تلك النَّهاراتِ الخاملَ. وبينما كان يراقب كيف يلتفُّ على نفسِه الرَّونقُ النَّفيسُ لتلك الرَّسائل التي لم يرغبْ أبداً في قراءتها، تفطَّنَ لذلك الصَّمت المستطابِ والمباغتِ الوافدِ عليه

من النَّوافذ المشرَّعة. المقصَّات، التي كانت حتّى ذلك الحين لا تعرف التَّعب أو الكلل كعقارب ساعةٍ، خَرِسَتْ. فقط بعد مضيٍّ بعض الوقت رنَّتْ، في قلب الصَّمتِ، خطواتُ الجنائني وهو يبتعد. كان ثمّة شيءٌ على هذا النَّحوِ مُحكَمٌ في تلك القفلةِ الشِّعريَّةِ التي كانت لتدهشَ أيَّ امرئٍ، أيَّ امرئٍ خلا لونغلاي. فهو كان عارفاً بذلك. العلاقة التي كانت تجمع ذينك الرَّجلَين، أميرالاً وجنائنياً - الخفيَّةُ على أيِّ امرئٍ - ما عادت تنطوي، في نظرهما، على أسرار. دوامُ ذلك التَّقارُب المشغولِ مِن ساعاتِ صمتٍ جمَّة وإشاراتٍ خاصَّة كان يحرسُ منذ سنينْ حلْفَهما الفريد.

ثمّة الكثير من الرِّوايات. تلك، روايةٌ وافَتْ من بعيد.

ذات يومٍ، قبل ستِّ سنوات، أحضروا إلى الأميرال لونغلاي رجلاً قالوا إنَّه كان يُدعى آدامز. كان رجلاً فارعَ القامةِ، قويَّ البنية، شعرُه طويلٌ إلى كتفيه، وجلدُه ملفوحٌ من الشَّمس. كان يمكن أن يبدو ملَّاحاً كسائر الملَّاحين، لولا أنَّه كان لِزاماً عليهم إسنادُه لإبقائه واقفاً على قدميه، فهو لم يكن قادراً على المسير. جرحٌ مقروحٌ منفِّر كان يرسم علامةً على عنقه. وقفَ، على نحوٍ أخرق، ساكناً بلا حراكٍ، كأنَّه مشلولٌ، ومغيَّب. الشَّيء الوحيد الذي كان يُلمِحُ إلى بقيَّةِ وعيٍ كان نظرته. كانت تبدو نظرةَ حيوانٍ يُحتضَر.

"له نظرةُ حيوانٍ في مصيدة"، فكَّرَ لونغلاي.

قالوا إنَّهم عثروا عليه في قريةٍ في قلب إفريقيا. كان ثمّة بِيضٌ آخرون، هناك: مُستعبَدون. غير أنَّه كان شيئاً مغايراً. لقد كان الحيوانَ الأثيرَ لزعيم القبيلة. كان يُبقيه واقفاً على أربعٍ، مُزيَّناً على نحوٍ غرائبيٍّ بأرياشٍ وحجارةٍ ملوَّنة، موثَقاً بحبلٍ إلى عرش ذلك الجنسِ من الملوك. كان يلتهم ما

يرمي به إليه من فضلاتِ طعام. جسدُه مُثخنٌ بالجروح واللطمات. تعلَّمَ أن ينبحَ بطريقةٍ تُسرِّي كثيراً عن نَفْسِ الملِك. إذا كان ما يزال حيَّاً فإنَّه، على الأرجح، حيٌّ لذلك السَّبب.

- ماذا لديه يقصُّه علينا؟ - سألَ لونغلاي.

- هو لا شيء. إنَّه لا يتكلَّم. لا يريد أن يتكلَّم. ولكن أولئك، أولئك الذين كانوا معه... العبيدُ الآخرون... وبعد ذلك أيضاً أولئك الذين تعرَّفوا إليه، عندَ المرسى... يروون في الختامِ أشياءَ خارقةً للعادة عنه، كما لو أنَّه لم يترك موضعاً في الأرض إلَّا كان فيه، هذا الرَّجل، إنَّه سرٌّ في حدِّ ذاته... فأن نصدِّق كلَّ ما يُقال...

- ما الذي يُقال؟

هو، آدامز، هامدٌ ومُغيَّبٌ، وسطَ الحجرة. مِن حوله المجونُ الباخوسيُّ لذاكرةٍ، لمخيِّلةٍ تتفجَّرُ لتلوِّنَ الهواءَ بترحالاتِ حياةٍ يُقالُ إنَّها حياته/ ثلاثمائة كيلومترٍ سيراً على قدميه في الصَّحراء/ يقسمُ إنَّه رآه يتحوَّلُ إلى زنجيٍّ، ثمّ يعودُ؛ لينقلبَ أبيضَ/ لأنَّه كان يتاجرُ مع ذلك الكاهن المحلِّيِّ، هناك تعلَّم كيف يصنع ذلك الغبار الأحمر الذي/ عندما أسروهم أوثقوهم طُرَّاً إلى شجرةٍ واحدةٍ هائلة، وانتظروا أن تغطِّيهم الحشرات بالكامل، ولكنَّه طفق يتكلَّم بلغةٍ مُبهَمة، فإذا بأولئك المتوحِّشين، على حين غرَّة، آنذاك/ مُقسِماً أنَّه بلغَ تلك الجبال؛ حيث النُّور لا يأفلُ أبداً، وبسبب ذلك لم يرجع أحدٌ قطُّ سليمَ العقلِ من هناك، إلَّا هو الذي، حين عادَ لم يَقُل سوى/ في بلاط السُّلطان؛ حيث اقتيدَ لأجلِ صوتِه، وكان صوتاً فائق الجمال، وهو، مغطَّىً بالذَّهب، تولَّى منصبَ المكوث في غرفةِ التَّعذيب والغناء، فيما أولئك يقومون بعملِهم، وكلُّ الأمرِ لأنَّه كان ينبغي ألَّا يسمعَ السُّلطانُ صدى التَّأوُّهات المكرِب، بل جمالَ ذلك الغناء الذي/ في بحيرة كابالاكي،

الرَّحيبة رحابة *البحر*، وكانوا يحسبونها هناك بحراً، طالما إنَّهم ما كانوا يصنعون مراكب من الأوراق الهائلة، أوراق الشَّجر، ويُبحرون بها من ساحلٍ إلى آخر، على مركبٍ من قبيلِ هذا كان هو، أستطيع أن أُقسِمَ على ذلك/ كيما يجمعوا الماسَ من الرِّمال، بأيديهم، مصفَّدين وعُراةً، لئلَّا يستطيعوا الفرار، وكان هو هناك وسط الجموع، مثلما هو حقيقةٌ أنَّ/ الجميعُ قال إنَّه قضى نحبَه، الإعصارُ حمله بعيداً، ولكنْ؛ ذات يومٍ كانوا يقطعون يدَي امرئٍ، أمامَ بوَّابة تِسْفا، يدَي سارقِ ماء، فنظرتُ مليَّاً، فإذا به هو، بالضَّبط هو/ لأجل ذلك كان يُدعى آدامز، ولكنَّه امتلكَ ألفَ اسمٍ آخر، وأحدُهم، ذاتَ مرَّةٍ، التقى به وكان اسمُه را مي نيڤار، وفي اللغة المحلِّيَّة كان يعني الرَّجلَ الذي يطير، ومرَّةً أخرى، على السَّواحل الإفريقيَّة/ في مدينة الموتى؛ حيث لا أحد كان يجرؤ على الدُّخول، لوجودِ لعنةٍ هناك، منذ قرون، تفجِّرُ عيونَ كلِّ أولئك الذين

- يكفي هذا.

حتّى إنَّ لونغلاي لم يرفع عينيه عن علبةِ النُّشوق التي كان يقلِّبها آنذاك منذ دقائق بعصبيَّةٍ بين يديه.

- حسناً. فلتحملوه بعيداً.

لم يتحرَّك أحدٌ.

صمتٌ.

- أيُّها الأميرال... ثمّة شيءٌ آخر.

- ما هو؟

صمتٌ.

- هذا الرَّجل رأى تمْبُكْتُو(*).

عُلبة نشوقِ لونغلاي توقَّفتْ.

- ثمّة أناسٌ مستعدُّون ليقسموا على ذلك: لقد كان هناك.

تمْبُكْتُو. لؤلؤة إفريقيا. المدينة المفقودة والمُذهلة. خزنةُ كلِّ المجوهرات، ومسكن كلِّ الآلهة البربريَّة. قلبُ العالَم المجهول، معقلُ آلاف الأسرار، المملكة الوَهْميَّة لكلِّ ثراءٍ، المحَجُّ الضَّائعُ لأسفارٍ بلا نهاية، منبعُ كلِّ الأمواه وحلمُ كلِّ السَّماوات. تمْبُكْتُو. المدينة التي لم يعثر عليها أيُّ رجلٍ أبيض من قبلُ أبداً.

رفعَ لونغلاي ناظريه. في الحجرة بدا الجميع وكأنَّ جموداً مُباغتاً اختطفهم. وحدهما عينا آدامز استمرَّتا بالتَّسكُّع، تقتفيان أثر طريدةٍ لامرئيَّة.

استنطقَهُ الأميرالُ طويلاً. مثلما كان دأبه، تكلَّم بصوتٍ حازمٍ وإنَّما لطيف، يكادُ يكون حياديّاً. لا قسوة في نبرته، لا إلحاح على وجه التَّحديد. ليس إلَّا الموكبَ الجَلُودَ لأسئلةٍ مُوجَزةٍ ومُحكَمة. لم يحظَ منه بجوابٍ واحدٍ.

بقي آدامز صامتاً. كان يبدو كالمنفيِّ أبداً إلى عالَمٍ آخرَ متعذِّرٌ بلوغُه. لم يُفلح حتّى في انتزاع نظرةٍ منه. لا شيء.

مكث لونغلاي يحدِّق فيه، في صمتٍ، لبعض الوقت. ثمّ أشار بإيماءةٍ لا تقبلُ ردَّاً. رفعوا آدامز عن الكرسيِّ، وجرُّوه بعيداً. رآه لونغلاي يبتعد - قدماه تترحَّفان على البلاط الرُّخاميِّ تزحُّفاً – واعتراه شعورٌ مُغِمٌّ بأنَّ تمْبُكْتُو هي الأخرى، في تلك اللحظة، كانت تتزحَّف أبعدَ فأبعد، على الرِّقاع

*) مدينة في مالي تُلقَّب «بجوهرة الصَّحراء المتربِّعة على الرِّمال»؛ (م).

الجغرافيَّة التَّقريبيَّةِ للمملكة. خطرتْ في باله، دونما تفسير، واحدةٌ من الأساطير الغزيرة التي شاعت آنذاك عن تلك المدينة: أنَّ النِّساء، هناك، يُبقين على عينٍ واحدةٍ فقط مكشوفةً، يخضِّبْنَها على نحوٍ خلَّاب بأتربةٍ ملوَّنة. لطالما سأَلَ نفسَه لماذا يا تُرى لم يكن فرضاً عليهنَّ حجبُ العينِ الأخرى. نهضَ واقتربَ بفتورٍ من النَّافذة. كان يفكِّر في فتحها عندما ألْجَمَه صوتٌ، في رأسِه، متهجِّياً عبارةً صافيةً ومحدَّدة المعالم:

- لأنَّه ما من رجلٍ يقوى على احتمال نظراتهنَّ دون أن يُجَنَّ.

التفت لونغلاي باندفاعةٍ خاطفة. لم يكن في الغرفة أحد. استدار من جديدٍ نحو النَّافذة. لبعض الهُنيهاتِ لبث عاجزاً عن التَّفكير بأيِّ شيء. ثمّ رأى، في الشَّارع المحفوف بالشَّجَرِ أدناه، الموكبَ الصَّغيرَ الذي كان يعيدُ آدامز إلى العدَم وهو ينسلُّ مبتعداً. لم يسائل نفسَه عمَّا يجب أن يقومَ به. ببساطةٍ قامَ به.

بعد هُنيهاتٍ قلائل كان واقفاً أمامَ آدامز، مطوَّقاً بدهشةِ الحاضرين ومُجهَداً قليلاً من عَدْوِه السَّريع. نظر في عينيه وبصوتٍ منخفضٍ قال

- وأنتَ أنَّى لك أن تعرف ذلك؟

لم يبدُ أنَّ آدامز قد فطن حتّى لوجوده. ظلَّ جاثماً في ذلك المكان الغريب البعيد، في ما وراءَ آلاف الأميال من هناك. غير أنَّ شفتيه تحرَّكتا والجميع سمع صوتَه يقول

- لأنَّني رأيتهنَّ.

في حياتِه التقى لونغلاي كثيراً من الحالات كتلك التي لآدامز. بحَّارةٌ

طوَّح بهم الإعصارُ أو وحشيَّةُ القراصنة على ساحل قارَّةٍ مجهولة، رهائن صُدفةٍ وفرائسُ لقومِ الرَّجلُ الأبيضُ عندَهم ليس أكثر بكثيرٍ من صنفٍ من الحيوانات الغريبة. فإذا لم يحدث وأخذَهم موتٌ رحومٌ لِلحين، كان يتربَّص بهم موتٌ شنيعٌ في ركنٍ ما، مُنتنٍ أو مُبهرٍ، من عوالمَ تفوق الخيال. قُلُلٌ كانوا أولئك الذين خرجوا أحياءً، مُستعادِين بسفينةٍ ومُوْدَعين عالماً متحضِّراً، وعلى أجسادهم العلاماتُ المتعذِّرُ إلغاؤها التي خطَّتها رزيئتُهم. غرقى قذفَ بهم البحرُ وقد فقدوا عقولَهم، حُتاتٌ بشريٌّ مُرتجَعٌ من المجهول. أرواحٌ ضائعة.

لونغلاي علمَ ذلك كلَّه. ومع ذلك أخذ آدامز معه. انتشله من البؤس وحملَه إلى قصره. كلّما اغتربَ ذهنُه باحثاً له عن ملجأٍ في عالمٍ من العوالِم، مضى هو إلى هناك؛ ليعيدَه. ولقد استعادَه. لم يكن يريد إنقاذه. لم يكن ذلك بالضَّبط ما أراده. أرادَ أن يُنقذ الحكايا المخبوءة في داخله. لم يكن مهمَّاً كم سيستغرق ذلك من الوقت: أراد تلك الحكايا وقد حظيَ بها.

عرفَ أنَّ آدامز كان رجلاً دمَّرته حياتُه نفسُها. تخيَّلَ روحَه كمثلِ ضَيعةٍ وادعةٍ نهبَتْها وبعثرَتْها الغارةُ الوحشيَّةُ لِصُبَّةٍ من الأخيولات، والمشاعر، والرَّوائح، والأصوات، والأوجاع، والكلمات. الموت الذي كان يتنكَّر له، كلّما رآه، كان الثَّمرة النَّقيضة لحياةٍ متفجِّرة. شواشٌ جامحٌ متفلِّتٌ كان يتفجَّر تحت بَكَمِه وسكونِه.

لم يكن لونغلاي طبيباً، ولم يُبرئ قطُّ أحداً. ولكنْ؛ من حياتِه الخاصَّة ثقِفَ تلك القوَّة الشِّفائيَّة التي ليست في حسبان أحد والمتمثِّلة في الحصافة. هو نفسه، يمكن القول، كان يداوي نفسَه بنفسِه بالحصافة. تلك كانت التِّرياق الذي، إذْ يُسيَّحُ في كلِّ جَرعةٍ من جرعاتِ الحياة، يُبقي سُمَّ الضَّياعِ بعيداً. فكَّر، والحالُ هذه، أنَّ ذلك الشُّطونَ الحصينَ لآدامز لا

يمكن تفتيتُه إلّا بالتَّمرين اليوميِّ والجَلُود على بعض الحصافة. شعرَ أنَّها ينبغي أن تكون، وفقاً لنهجه هو، حصافةً جديرةً بالحبِّ، مُنتزَعةً من برودة شعائرها الآليَّة، ومغروسةً في دفء قصيدةٍ من القصائد. بحث عنها طويلاً في عالَم الأشياء والإشارات الرَّاكن من حولِه. وفي النِّهاية وجدَها. ومَن كان يجازف، ليس دون شيءٍ من السُّخرية، في سؤالِه

- ما تُراه يكون هذا الدَّواء المُعجِز الذي تعوِّلون عليه في إبراء كائنكم البدائيِّ ذاك؟

كان يحبُّ أن يجيبه

- وُرُودي.

كمثل طفلٍ قُيِّض له أن يؤوي طائراً ضالّاً في الدِّفء الزَّائف لعشٍّ من القماش، آوى لونغلاي آدامز في حديقته. حديقةٌ عجيبةٌ، هندستُها الخارقة تدرأ عنها انفجارَ الألوان كلِّها، ونظامُ التَّنسيقِ الصَّارمِ يضبطُ التَّماسَّ المشهديَّ بين الزُّهور والنَّباتات المُجتلَبَة من جميع أصقاع العالم. حديقةٌ تنقلبُ فيها فوضى الحياة صورةً إلهيَّةَ الإتقان.

في تلك الحديقة، عاد آدامز، رويداً رويداً، إلى نفسِه. بقي لشهورٍ صامتاً، وحيداً ينقادُ ذَلولاً نحوَ فَهْمِ ألفِ - نظامٍ - مُحكَمٍ. بعدئذٍ بدأ غيابُه ينقلبُ حضوراً دخانيّاً، منقَّطاً هنا وهناك بعباراتٍ قِصارٍ، ولم يعد مُعرَّقاً بالحياة البهائميَّة المعاندة للحيوان الذي كان متوارياً في أعماقه. بعد عامٍ، لم يكن لأحدٍ أن يرتاب، عند رؤيته، بأنَّه يقف أمام أكثر الجنائنيِّين كلاسِيكيَّةً وكمالاً: صَمُوتٌ وهادئُ الرُّوع، متأنٍّ ودقيقٌ في حركاته، غامضٌ ولا عمرَ له. إلهٌ حنونٌ في تكوينٍ مصغَّرٍ.

طوال ذلك الوقت، لم يسأله لونغلاي شيئاً. تبادلَ معه بعض العبارات،

جُلُّها متَّصلٌ بالوضع الصِّحيِّ للسَّوسن أو بالتَّبدُّلات المفاجئة للطَّقس. لم يُلْمِع أيٌّ منهما أيَّ إلماعٍ إلى الماضي، إلى أيِّ ماضٍ كان. لونغلاي، كان ينتظر. لم يكن على عجلةٍ. بل إنَّه كان يلتذُّ بمذاق الانتظار. هكذا إلى أن انتهى تحت قشرةٍ سطحيَّةٍ من الخيبة عندما، ذات يومٍ، بَيْنَا هو يتمشَّى في مسلكٍ ثانويٍّ شَجيرٍ من مسالك الحديقة مارّاً على مقربةٍ من آدامز، إذا به يراه يرفع عينيه عن بَطْونيةٍ لؤلؤيَّةِ الأزهار، وسمعه، بوضوحٍ، يتلفَّظُ - لا لأحدٍ، كما هو واضحٌ – بهذه الكلمات بعينِها:

- ليس لها أسوارٌ، تمْبُكْتُو، ذلك أنَّهم، هناك، منذ الأزل يعتقدون أنَّ جمالَها، وحده، قمينٌ أن يصدَّ أيَّ عدوٍّ.

ثمّ صمتَ، آدامز، وخفضَ عينيه ثانيةً على البَطْونيةِ لؤلؤيَّةِ الأزهار. واصلَ لونغلاي، دون أن يتفوَّه بكلمةٍ، تجوالَه في المسلكِ الشَّجير. ولا حتّى الله نفسه، إن كان موجوداً، فهمَ من ذلك شيئاً.

منذ ذلك اليوم، بدأتْ تتفلَّتُ من آدامز كلُّ حكاياه. في اللحظات الأشدِّ تبايناً ووفق أحوالٍ وطقوسٍ غامضة. اقتصرَ لونغلاي على الإصغاء. لم يطرحْ أيَّ سؤالٍ. يُصغي وحسب. أحياناً كانت عباراتٍ بسيطةً. أحياناً أخرى، كانت قَصَصاً حقيقيَّةً وشخصيَّة. بصوتٍ دافئٍ وهادئٍ كان آدامز يقصُّ القَصَصَ. كان يوازن، بفنِّيَّةٍ مُذهلة، بين الكلمات والوَقْفات. كان يمتلك شيئاً منوِّماً في تلاوة صورِه الآسرة. الإصغاءُ إليه كان سحراً. لونغلاي كان مسحوراً به.

لا شيء ممَّا سمعَه، في تلك القَصَص، انتهى بين صفحات كُتُبه المجلَّدة بجلودٍ حيوانيَّةٍ قاتمة. هذه المرَّة، المملكة، ليس لها شأنٌ في ذلك. تلك القَصَص كانت ملكه هو. لكَم انتظر أن تزهرَ من رحم أرضٍ منهوبةٍ ومَيْتة. وها هو ذا يقتطفها الآن. كانت الهبةَ، الهبةَ النَّقيَّةَ، التي

قرَّر أن يجودَ بها على عزلتِه. تخيَّلَ أنَّه يشيخ تحت الظِّلال الورعةِ لتلك القَصَص. وأنَّه يموت، ذات يومٍ، وفي عينيه الصُّورةُ المحرَّمةُ على أيِّ رجلٍ أبيضَ آخر، صورةُ أجملِ حديقةٍ بين حدائق تمْبُكْتُو.

ظنَّ أنَّ كلَّ شيءٍ، ومنذ الأزل، كان على تلك الصُّورةِ السِّحريَّةِ بسيطاً وخفيفاً. لم يكن ليتراءى له بتَّةً أنَّ ذلك الرَّجلَ المدعوَّ آدامز كان قد غُلَّ قبل الأوان إلى شيءٍ مبهرٍ في وحشيَّته.

حَصَلَ، للأميرال لونغلاي، بعد مدَّةٍ من وصول آدامز، أن وجدَ نفسَه مدفوعاً بتلك الحاجة المكْرِبة والتَّفِهةِ إلى المقامرة في لعبة الشِّطرنج. بوغِتَ مع ثلَّةٍ صغيرةٍ من أتباعه في منطقةٍ ريفيَّةٍ مفتوحةٍ بقاطعِ طريقٍ كان، وهذا ما لا يُحسَد عليه الأميرال، ذائعَ الصِّيت في المنطقة لاختلالِ عقلِه ووحشيَّةِ أعمالِه. هناك، برزَ لهم فجأةً ونفسُه تميلُ به إلى ألَّا يهتاج على ضحاياه. قبض على الأميرالِ وحده، وأرجعَ إلى الوراء جميعَ الآخرين مع مهمَّة الإتيان إليه بفديةٍ كبيرة. كان لونغلاي يعلم أنَّه ثريٌّ بما يكفي ليتمكَّن من شراء حُرِّيَّته. لكن ما لم يعلمه هو إذا ما كان قاطعُ الطَّريق صبوراً بما يكفي لانتظار وصول كلِّ ذلك المبلغ من المال. اشتمَّ مِن فوقه، لأوَّل مرَّةٍ في حياته، رائحةَ موتٍ واخزة.

أمضى يومين معصوبَ العينَين ومصفَّداً داخلَ عربةٍ لم تتوقَّف لحظةً عن المسير. في اليوم الثَّالث أنزلوه. عندما رفعوا العِصابةَ عن عينيه ألفى نفسَه جالساً وجهاً لوجهٍ أمامَ قاطع الطَّريق. بينهما كان ثمّةَ مائدةٌ صغيرة. على المائدة رقعةُ شِطرنج. كان قاطعُ الطَّريق قاطعاً في تفسيره. إنَّه يمنحه فرصةً. صفقةً. إذا فازَ، فُكَّ وثاقُه. إذا خسرَ، قُتِل.

حاولَ لونغلاي أن يتفكَّر في الأمر مليَّاً. بما هو ميتٌ فإنَّه لا يساوي فلساً واحداً، فلماذا يرمي بمثل هذه الفرصةِ بعيداً؟

- لم أسألك رأيك في ذلك. سألتكَ نعم أو لا. عجِّل.

مخبولٌ. ذلك الرَّجلُ مخبولٌ. فهم لونغلاي أنَّه لم يكن عندَه خيار.

- كما تشاء أنت - قال، وأرخى ناظريه على الرُّقعة. لم يلزمه كثيرٌ من الوقت حتّى يتبيَّن أنَّ قاطعَ الطَّريق كان مخبولاً خَبَلاً وحشيَّ المكْرِ والخبث. لم يكتفِ بالاحتفاظ بالقطع البيض لنفسِه - لَمِنَ الحماقةِ ادِّعاءُ عكسِ ذلك - ولكنَّه كان يلعب بملكةٍ ثانيةٍ وضعَها بعنايةٍ مكانَ الفيلِ الذي على اليمين. تحوُّلٌ طريفٌ.

- ملكٌ - شرحَ قاطعُ الطَّريق مشيراً إلى نفسِه - وملكتان - أضاف ساخراً، مشيراً إلى امرأتين، فائقتَي الجمال في واقع الحال، جالستين إلى جواره. أطلقت النُّكتة بين الحاضرين ضحكاتٍ جامحةً وصيحاتِ رضىً سخيَّةً. أقلَّ منهم استمتاعاً، خفضَ لونغلاي ناظرَيه مفكِّراً في أنَّه على وشك أن يموتَ أحمقَ مِيتةٍ ممكنةٍ في العالَم.

النَّقلة الأولى لقاطع الطَّريق أعادت الصَّمتَ المطلَق. بيدقٌ مِن بيادق الملِك أمامَ خانتَين. دورُ لونغلاي. تردَّدَ هُنيهةً. بدا كَمَن يترقَّب شيئاً، ولكنَّه لا يعلم ما هو. فَطِنَ له فقط عندما، في دخيلةِ فِكْرِه، سمعَ صوتاً يحسن تجويدَ الكلماتِ يقولُ بهدوءٍ جليل

- فرسٌ في طابورِ فيلِ الملِك.

هذه المرَّة لم ينظر حواليه. ذلك الصَّوت كان يعرفه. وكان يعلم أنَّه لم يكن هناك. الله يعلم كيف ذلك، ولكنَّه كان آتياً من البعيد البعيد. أخذَ الفرسَ، ووضعَه أمام خانةِ فيلِ الملِك.

في النَّقلة السَّادسة كان متفوِّقاً بقطعة. في الثَّامنة حرَّك الملكَ والرُّخَّ في وقتٍ واحدٍ. في الحادية عشرة بسطَ سيادتَه على وسطِ الرُّقعة. بعد نقلتين ضحَّى بفيلٍ، الشَّيء الذي قادَه، في النَّقلة التَّالية، إلى التهام الملكةِ الخصْمِ. أمَّا الأخرى؛ فأوقعها في الفخِّ بحسن تدبيرٍ ما كان ليكون قادراً عليه - وذلك ما أدركَه - من دون التَّوجيه الدَّقيق لذلك الصَّوت الماورائيِّ. وفيما كان يسحق، شيئاً فشيئاً، دفاعات البيادق البيض كان يشعر بسخطٍ وذهولٍ ضاريَين يتعاظمان في أعماق قاطع الطَّريق. بلغَ حدَّ الخوفِ من النَّصر. ولكنَّ الصَّوتَ لم يكن ليتركَ له هدنةً.

في النَّقلة الثَّالثة والعشرين منحه قاطعُ الطَّريقِ رُخَّاً وَجْبةً، عن خطأٍ مكشوفٍ للغايةِ حدَّ أنَّه بدا استسلاماً. كان لونغلاي على وشك أن يغتنم تلقائيَّاً تلك الفرصة عندما سمعَ الصَّوتَ ينصحه بنبرةٍ حاسمة

- حذارِ الملِك، أيُّها الأميرال.

حذارِ الملِك؟ أُلْجِمَ لونغلاي. الملِكُ الأبيض كان في موضعٍ لا يصدرُ عنه ضررٌ البتَّة، وراءَ حركةٍ من التَّبييت المرتجَل. حذارِ مِن ماذا؟ تأمَّل الرُّقعةَ، ولم يستنبط شيئاً.

حذارِ الملِك.

الصَّوتُ صمتَ.

كلُّ شيءٍ صمتَ.

بضعُ لحظاتٍ مرَّت.

ثمَّ فهمَ لونغلاي. كان الأمر كمثل برقٍ عبرَ ذهنَه هُنيهةً قبلَ أن يُخرِجَ قاطعُ الطَّريق من العدَمِ خنجراً، ويستقصي، بلمحِ البصرِ، بالنَّصلِ قلبَه. كان

لونغلاي أسرعَ منه. قبض على ذراعِه، واستطاع أن ينتزع الخنجرَ منه ،ثمّ، كما لو ليختتمَ الحركةَ التي بدأها، مزّقَ حنجرتَه. سقطَ قاطعُ الطَّريق أرضاً. الامرأتان ولّتا مذعورتين. الآخرون طُرّاً تحجَّروا من الدَّهشة. حافظ لونغلاي على هدوئه. بحركةٍ لم يكن ليتردَّد فيما بعد بوصفها سُدىً بالمهيبة، أمسكَ بالملِك الأبيض، وطرَحَه على الرُّقعة. ثمّ نهض، قابضاً بيده على الخنجر بقوَّة، وابتعدَ ببطءٍ عن الرُّقعة. لم يحرِّك أحدٌ ساكناً. صعدَ على أوَّل حصانٍ رآه. ألقى نظرةً أخيرةً على ذلك المشهد الغريب غرابةَ مسرحٍ شعبيٍّ، واندفعَ بعيداً. ومثلما يحصل أغلبَ الأحيان في اللحظات المصيريَّةِ من الحياة، وجد نفسه قادراً على التَّفكير بنقطةٍ واحدةٍ فحسب، نقطةٍ لا معنى لها على الإطلاق: أنَّها كانت المرَّة الأولى - الأولى - التي يربح فيها مباراةً، وهو يلعب بالقطعِ السَّوداء.

حين وصل إلى قصرِه، رأى آدامز ممدَّداً على السَّرير، غائباً عن الوعي وفريسةً لحمَّى دماغيَّة. لم يعرف الأطبَّاء ماذا يفعلون. هو قال لهم

- لا تفعلوا شيئاً. لا شيء.

بعد أربعة أيَّامٍ، عاد لآدامز وعيُه. كان لونغلاي هناك، على سريرِ مرضِه. حدَّقا في بعضهما. أغلق آدامز عينيه من جديد. وبصوتٍ خفيضٍ، قالَ لونغلاي

- إنيِّ مدينٌ لك بحياتي.

- بحياةٍ واحدةٍ - حدَّدَ آدامز. ثمّ فتح عينيه، وصوَّبهما مباشرةً داخلَ عينَي لونغلاي. لم تكن نظرةَ جنائنيٍّ، تلك النَّظرة. كانت نظرة حيوانٍ في مصيَدة.

- لا أعبأ بشيءٍ من حياتي. إنَّها حياةٌ أخرى، الحياة التي أريدها.

ما تعنيه تلك العبارة، فهمَه لونغلاي بعد وقتٍ طويلٍ من ذلك، عندما كان الوقتُ قد فاتَ إذَّاكَ على تفادي سماعها.

جنائنيٌّ متحجِّرٌ، يقف أمام منضدةِ أميرال. كُتُبٌ وأوراقٌ في كلِّ مكان. ولكنَّها منسَّقةٌ. مُنسَّقة. وشمعداناتٌ، زرابيُّ، رائحة جلدٍ حيوانيٍّ، لوحاتٌ مُعتمة، ستائرُ بُنِّيَّة، خرائط، أسلحةٌ، عُملاتٌ نقديَّة، رسومٌ لنماذج بشريَّة. فضِّيَّاتٌ. الأميرالُ يعطي ورقةً للجنائنيِّ، ويقول

- نُزلُ آلماير. مكانٌ على *البحر*، قربَ كوارتايل.

- هناك؟

- أجل.

الجنائنيُّ يطوي الورقة، يضعها في جيبه، ويقول

- سأغادرُ هذا المساء.

الأميرالُ يُخفِضُ ناظرَيه، وفي الوقت نفسِه يسمعُ صوتَ الآخَرِ يتهجَّى تلك الكلمة

- وداعاً.

الجنائنيُّ يدنو من الباب. الأميرالُ، دون حتّى أن ينظر إليه، يهمهمُ

- وبعد ذلك؟ ما الذي سيقعُ بعدَ ذلك؟

الجنائنيُّ يتوقَّف.

- لا شيء أكثر.

ويخرج.

الأميرالُ يصمت.

... فيما كانت هواجسُ لونغلاي تتفلَّتُ مندفعةً على الطَّريق الملاحيَّةِ لسفينةٍ شراعيَّةٍ تحلِّق بعيداً، تحلِّق حرفيَّاً، على مياه مالاغار كان آدامز يُطيل المكوث أمامَ زهرةٍ بورنيَّةٍ(*) يتأمَّلُ دأبَ حشرةٍ تلتمسُ صعودَ بتلةٍ من البتلات، ولا يكفُّ عن ذلك حتّى تتخلَّى عن محاولاتها، وتطير بعيداً، وفي هذا ما يشبه تَوَحُّدَه مع السَّفينة الشِّراعيَّة؛ إذْ إنَّ الغريزة نفسها حملته على ركوب مياه مالاغار، كانا أخين في الرَّفضِ المُضمَرِ للواقع، وفي اختيارهما لذلك الهروب المجنَّح، كانا موحَّدَين، في تلك اللحظة، في أنَّهما صورتان متزامنتا الوقوع على عينَي وذاكرتيَ رجلين، لا شيء كان قادراً بعدَئذٍ على فصلِهما، وفي أنَّهما يستكتمان تلكما التَّحليقتين في الوقتِ نفسِه، تحليقةِ الحشرةِ وتحليقةِ المركب الشِّراعيِّ، سرَّهما نفسَه، هلعَهما نفسَه من مذاق الخاتمةِ الحمضيِّ، ومن إدراكهما الممضِّ كم يكون صَموتاً القدرُ عندما، على حين غرَّةٍ، ينفجر.

---

*) نسبةً إلى جزيرة بورنيو أكبر جزر آسيا؛ (م).

-٨-

في الطَّابق الأوَّل من نُزلِ آلماير، في غرفةٍ تنظرُ صوبَ الآكام، كانت إليزوين تصارعُ الليلَ. هامدةً، تحت الدُّثُر، كانت تنتظرُ أن تعرفَ إن كان النَّومُ هو ما وصلَ أوَّلاً أم الخوف. كان البحرُ يُسمَعُ، كأنَّه انهيالٌ متواصلٌ، أو هديرٌ أزليٌّ لإعصارٍ لا أحد يدري ابنٌ لأيِّ سماءٍ هو. لا يصمتُ لحظةً واحدة. لا يعرف الكلل. ولا الرَّحمة.

إذا كنتَ تنظر إليه، فإنَّك لن تدركَ: كم من الضَّوضاء يصنع. لكنْ؛ في الظَّلام... كلُّ ذلك اللاتناهي ينقلبُ صخباً وحسب، جدارَ صوتٍ، صراخاً مُلِحَّاً ومُعمَّى. لن تُطفِئَ البحرَ عندما يندلعُ في الليل.

أحسَّت إليزوين أنَّ فُقَّاعةً من الفراغ كانت تنفجر في رأسها. إنَّها تعرفه حقَّ المعرفة، ذلك الانفجارَ السِّرِّيَّ، ذلك الألمَ اللامرئيَّ المتعذِّر وصفُه. لكنَّ معرفته لم تكن تجدي شيئاً. لا شيء. كان ينهبُها نهباً، المرضُ المتسترِّ، الزَّاحفُ - زوجُ الأمِّ الفاحشُ. كان يستردُّ ما كان له.

لم يكن مُجاوزاً الحدَّ ذلك البردُ المتسرِّبُ إلى أعماقها، ولا القلبُ، وقد جُنَّ، أو العرقُ الباردُ في كلِّ مكان، أو رعشةُ اليدَين. الأسوأ كان ذلك الإحساسَ بالتَّلاشي، بالخروج من جسدِها نفسِه، بأنَّه ليس ثمّة إلَّا ذلك الهلع الغامض ونفضات الذُّعرِ تلك. هواجسُ كأنَّها أشتاتُ انتفاضةٍ - رعشاتٌ - الوجهُ متحجِّرٌ في كشرةِ ألمٍ ليتمكَّنَ من الإبقاء على العينين

مُغمَضَتَين - ليتمكَّنَ من الإشاحةِ عن الظَّلام، ذلك الهولِ الذي لا منجى منه. إنَّها لَحَرب.

استطاعت إليزوين التَّفكيرَ بذلك الباب الذي، على بعد أمتارٍ قليلةٍ منها، كان يصلُ غرفتَها بغرفةِ الأب بلوش. أمتارٌ قليلة. كان عليها أن تنجحَ في ذلك. ها هي تنهض، ها هي دون أن تفتحَ عينيها تعثر عليه، يكفيها صوت الأب بلوش إذَّاكَ، صوته وحسب، فإذا بكلِّ شيءٍ ينتهي - كان يكفي أن تنهضَ من هناك، أن تجد القوَّة لتخطو بضع خطوات، أن تعبرَ الغرفةَ، وتفتحَ الباب - أن تنهضَ، أن تنسلَّ خارجَ الدُّثُر، تنسلَّ على امتداد الجدار - أن تنهضَ، أن تقف على قدميها، وتخطوَ تلك الخطوات القليلة - أن تنهضَ، أن تبقي على عينيها مُغمضَتَين، أن تعثر على ذلك الباب، وتفتحَه - أن تنهضَ، أن تحاولَ التَّنفُّسَ، ثمّ أن تنسلخَ عن السَّرير - أن تنهضَ، أن لا تموتَ - أن تنهضَ من هناك - أن تنهضَ. يا لِلرُّعب. يا لِلرُّعب.

لم تكن أمتاراً قليلةً. كانت كيلومتراتٍ، كانت أبديَّةً: الأبديَّةَ نفسَها التي كانت تفصلُها عن غرفتها الأصليَّة، وعن أشيائها، وعن أبيها، وعن المكان الذي كان مكانَها. كلُّ شيءٍ كان بعيداً. ضائعاً كان كلُّ شيء.

لا يُمكن الانتصارُ أبداً في حروبٍ كهذه الحروب. وإليزوين أدركت ذلك.

كَمَنْ في النَّزع الأخيرِ، فتحتْ عينيها.

لم تعِ في الحال.

لم يكن ذلك في حسبانها.

استنارتْ، الغرفةُ كلُّها. نورٌ شحيحٌ. ولكنَّه في كلِّ مكانٍ. نورٌ دافئ.

استدارتْ. على كرسيٍّ، بجانب السَّرير، كانت تجلسُ ديرا، مع كتابٍ

كبيرٍ مفتوحٍ على ركبتيها، وشمعدانٍ في يدها. الشَّمعة واقدة. اللهبُ، في الظَّلامِ الذي لم يعدْ ظلاماً.

تلبَّثتْ إليزوين بلا حراكٍ، ورأسُها مرفوعةٌ قليلاً عن الوسادةِ، تنظُر. بدت في مكانٍ آخر، تلك الطِّفلة، ومع ذلك، كانت هناك. عيناها مسمَّرتان على تلك الصَّفحات، قدماها اللتان لا تلامسان الأرضَ كانتا تتأرجحان باتِّئادٍ: الحذاءُ المؤرجَحُ معلَّقٌ بساقين وتنُّورة.

وضعت إليزوين رأسها على الوسادة من جديد. رأت لهبَ الشَّمعةِ ثابتاً يرسلُ دخانه. والغرفةَ، من حولها، تهجعُ بعذوبة. أحسَّت بنفسِها واهنةً، وَهْناً مُبهراً. كان لديها الوقت لتفكِّر

- ما عاد البحرُ مسموعاً.

ثمّ أغمضتْ عينيها. وأغفتْ.

في الصَّباح، رأت الشَّمعدانَ، مستوحداً، متَّكئاً على الكرسيِّ. الشَّمعةُ واقدةً ما تزال. كما لو أنَّ شيئاً منها لم يذُب. كما لو أنَّها سهرت ليلةً لم تدم إلَّا هُنيهة. اللهبُ لامرئيٌّ في النُّور العظيم الذي من النَّافذة حملَه النَّهار الجديد إلى داخل الغرفة.

نهضتْ إليزوين. أطفأت الشَّمعةَ بنفثةٍ واحدة. من كلِّ الجهات كانت تأتي الموسيقى الغرائبيَّة لعازفٍ لا يعرف التَّعب. صخبٌ مهولٌ. مشهدٌ جليل.

إنَّه البحرُ، قد عاد.

بلاسُّون وبارتلبوم خرجا معاً، في ذلك الصَّباح. كلٌّ مع أدواته: مِسندُ

رسمٍ وألوانٌ وأرياش لبلاسُّون، دفاترُ ومكاييلُ متنوعٌة لبارتلبوم. لَكان من الممكن القولُ إنَّهما مُقبِلان من إخلاءِ عُلِّيَّة خالقٍ مجنون. أحدهما بحذاءٍ فرسانيٍّ عالٍ وسُترةِ صيَّادِ سمك والآخر ببدلةِ باحثٍ سوداء وقبَّعة صوفٍ على رأسه وقفَّازاتٍ بلا أصابع، كالتي لعازف بيانو. ربَّما الخالقُ لم يكن وحده المجنون، هناك في تلك الأنحاء.

في الحقيقة، بلاسُّون وبارتلبوم لم يكن يعرف أحدُهما الآخر. الأمرُ بالضَّبط أنَّهما كانا قد التقيا بضعَ مرَّاتٍ، في ممرَّات النُّزل، أو في قاعة العشاء. ما كان لينتهي بهما الحالُ أبداً هناك، على الشَّاطئ، يسيران معاً كلٌّ صوبَ بقعةِ أشغاله، لولا أنَّ آن دوفِريا لم تقرِّر ذلك.

- ذلك مذهلٌ. لكن إذا ما قام أحدٌ بدمجِكما معاً، أنتما الاثنين، حصل على مجنونٍ واحدٍ أوحدَ ومكتملٍ. في رأيي، الله ما يزال موجوداً هناك، مع أحجية الصُّور المقطوعة الهائلة تحت عينيه، وهو يتساءل أين انتهى الحال بِتَيْنَكَ القطعتين اللتين تتلاءمان على نحوٍ مثاليٍّ معاً.

- ما هي أحجية الصُّور المقطوعة؟- سألَ بارتلبوم في نفسِ اللحظة التي سألَ فيها بلاسُّون

- ما هي أحجية الصُّور المقطوعة؟

في الصَّبيحة التَّالية كانا يسيران على شاطئ *البحر*، كلٌّ مع أدواته، ولكنْ معاً، صوبَ سُدَّتَي دأبهما اليوميِّ المتناقضتَين.

كان بلاسُّون قد صنع ثروةً، في الأعوام السَّابقة، بعدما أصبح رسَّامَ الوجوه الأكثر شعبيَّةً في العاصمة. يمكن القول إنَّه لم يكن ثمّة، في كلِّ المدينة، عائلةٌ حريصةٌ، حقَّ الحرصِ، على المال إلَّا وكان في بيتها بلاسُّون. صورُ وجوهٍ، بلا ريبٍ، صورُ وجوهٍ وحسب. مُلَّاكُ أراضٍ، زوجاتٌ مُعتلَّات،

أبناءٌ مُغترُّون، عمَّاتُ آباءٍ مجعَّدات، صناعيُّون متورِّدو البشرة، فتياتٌ في سنِّ الزَّواج، وزراء، رهبانٌ، سيِّدات دور الأوبرا الجليلات، جنودٌ، شاعراتٌ، عازفو كمانٍ، أعضاء مجامعَ علميَّةٍ وأدبيَّة، عفيفاتٌ، صيارفةٌ، أطفالٌ مُعجزون: من الجدرانِ الفاضلة للعاصمة كانت تحدِّق، مؤطَّرةً بما هو خليقٌ بها، مئاتُ الوجوه المبهوتة، مفخَّمةً بتلك اللمسةِ القدَريَّةِ التي كانوا يسمُّونها في الرَّدهات "لمسة بلاسُّون": سمةٌ أسلوبيَّةٌ غريبةٌ إلَّا أنَّها قابلةٌ للتَّرجمة عِبرَ موهبةٍ، فريدةٍ حقَّاً، كان الرَّسامُ الذَّائع الصِّيت يُحْسنُ معها إضفاءَ مسحةِ ذكاءٍ على كلِّ نظرةٍ أيَّاً تكن، ولو كانت نظرةَ عِجْلٍ. "ولو كانت نظرةَ عِجْلٍ" كانت تلك هي الصِّياغة التي يجري عادةً، في كلِّ الرَّدهاتِ، اجتناؤها.

كان يمكن لبلاسُّون أن يواصلَ على ذلك المنوال لسنواتٍ وسنوات. وجوه الأثرياء لا تنضبُ أبداً. ولكنَّه، على نحوٍ مفاجئٍ، قرَّر ذات يومٍ أن يهجرَ كلَّ شيء. وأن يرحلَ. فكرةٌ مُستجمعةٌ ومُستحكمة، كانت قد عشَّشتْ في أعماقه أعواماً، حلَّقت به بعيداً.

رَسْمُ وجهِ *البحر*.

باعَ كلَّ ما يملك، هجرَ مُحترَفَه، وانطلق في رحلةٍ كان من الممكن لها، على حدٍّ ما لاحَ له آنذاك، أن تستمرَّ بلا نهاية. كان ثمّة آلاف الكيلومترات من السَّواحل، على امتدادِ العالَم. لم يكن بالأمر الهيِّن إيجادُ الموضعِ الصَّحيح.

أمامَ صحفيِّي المجتمع المخمليِّ الذين كانوا يسألونه عن بواعث ذلك الارتحال الفريد لم يكن يأتي بأيَّةِ إشارةٍ إلى *البحر*. أرادوا أن يعرفوا ما الذي وراءَ اعتزالِ أعظم أساطين فنِّ رسمِ الوجوه الرَّفيع؟ كان يجيب على نحوٍ قاطعٍ، بعبارةٍ لم تكن تَعْدِلُ، مِن ثمّ، عن التَّماهي مع تأويلاتٍ متنوِّعة.

- لقد تَخِمْتُ من الإباحيَّة.

كان قد رحلَ. لا أحدَ، بعد ذلك، عثرَ له على أثرٍ.

كلُّ هذه الأشياء لم يكن بارتلبوم يعرف عنها شيئاً. لم يكن في مُكْنته أصلاً أن يعرف. لذلك، هناك على شاطئ *البحر*، وقد نفدَتْ أسبابُ المتعةِ مع الوقت، تجاسرَ على السُّؤال، فقط ليُبقي الحوارَ طافياً على السَّطح:

- أترسمُ منذ زمنٍ بعيد؟

حتّى في ذلك المقامِ، كان بلاسُّون قاطعاً.

- أبداً لم أصنع غيرَ ذلك.

أيُّ شخصٍ، عندَ سماعِ بلاسُّون يتحدَّث، كان ليخلُصَ بأنَّ ثمّة احتمالَين لا ثالث لهما: إمَّا أنَّه متغطرسٌ بصورةٍ لا تُطاق، وإمَّا أنَّه أبله. ولكنْ؛ حتّى في أثناء ذلك، كان المرء في حاجةٍ إلى الفَهْم. كان لبلاسُّون تلك الطَّريقة الغريبة عندما يتحدَّث: لم يكن يختِمُ عبارةً قطُّ. لم يكن يُفلِح في خَتْمِها. كان يبلغُ خُتْمَتَها فقط إذا العبارةُ لم تجاوز السَّبع، أو الثَّماني كلمات. فإذا جاوزَتْها، ضلَّ في منتصفِها. لذلك، ولا سيَّما مع الغرباء، كان يحاول الاقتصارَ على جملٍ قصيرةٍ وقاطعة. وفي هذا بالذَّات، كما كان يقال، كان يمتلك الموهبة. بطبيعةِ الحال، كان يبدو متعالياً قليلاً وميَّالاً إلى الاقتضاب على نحوٍ مُضجِر. ولكنَّ ذلك كان دائماً أفضل من الظُّهور، على نحوٍ غامضٍ، بمظهر البهلولِ الأبله: الشَّيء الذي كان يحصل بانتظامٍ عندما كان ينجرفُ في عباراتٍ مُحكَمَةِ اللفظ، أو حتّى في عباراتٍ دارجةٍ ليس إلَّا: فلا يفلحُ، أبداً، في ختْمِها.

- لكنْ؛ قل لي، يا بلاسُّون: أثمَّة شيءٌ، في العالَم، تُفْلحُ في خَتْمِه؟- سألتْه ذات يومٍ آن دوقِريا مؤطِّرةً بسخريتها المعتادة لبَّ المشكلة.

- بلى: المحادثات المَقيتة - أجاب، ناهضاً عن المائدة ومنصرفاً إلى غرفته. كان يمتلك، على حدِّ قولهم، موهبةَ العثور على إجاباتٍ قِصار. موهبةً حقيقيَّة.

ولا حتّى هذه الأشياء كان بارتلبوم يعرفها. لم يكن في مُكْنته أصلاً أن يعرفها. ولكنَّه مضى حثيثاً في فهمها.

تحت شمس الظَّهيرة، هو وبلاسُّون جالسان على الشَّاطئ، يأكلان الأشياء الأربعة التي أعدَّتها ديرا. مِسندُ الرَّسم مغروسٌ في الرِّمال، على بعد أمتارٍ قليلةٍ من هناك. القماش الأبيض المعتادُ، على المِسند. رياحُ الشَّمالِ المعتادة، على كلِّ شيء.

بارتلبوم - لكنْ؛ هل تنجزُ واحدةً في اليوم، من تلك اللوحات؟

بلاسُّون - بمعنىً من المعاني...

بارتلبوم - غرفتك إذنْ ملأى بها...

بلاسُّون - لا. إنَّني أرمي بها بعيداً.

بارتلبوم - بعيداً؟

بلاسُّون - أترى تلك هناك، على مِسندِ الرَّسم؟

بارتلبوم - أجل.

بلاسُّون - هي كلُّها هكذا تقريباً.

بارتلبوم - ...

بلاسُّون - أكنتَ لتحتفظَ بها؟

غمامةٌ تمرُّ أمامَ الشَّمس. ينقضُّ في الحالِ بردٌ لم يكن في الحسبان. بارتلبوم يضع قبَّعتَه الصُّوفَ من جديد.

بلاسُّون - إنَّه عويصٌ.

بارتلبوم – لا تقل ذلك لي. إنَّني لا أحسِنُ رسمَ حتّى قطعةِ الجبن هذه، إنَّه لَلغزٌ في نظري كيف يمكنك صنع تلك الأشياء، لغزٌ بحقٍّ.

بلاسُّون - البحرُ عويصٌ.

بارتلبوم - ...

بلاسُّون – من الصَّعب أن تعرف من أين تبدأ. انظر، عندما كنتُ أرسمُ الوجوهَ، وجوهَ البشر، كنتُ أعرف من أين أبدأ، كنتُ أنظر إلى تلك الوجوه وأعرف بالضَّبط... (انقطاع).

بارتلبوم - ...

بلاسُّون - ...

بارتلبوم - ...

بلاسُّون - ...

بارتلبوم - كنتَ ترسمُ الوجوه مِن قبل؟

بلاسُّون - أجل.

بارتلبوم - اللعنة، منذ أعوامٍ وأنا راغبٌ في رسم صورةٍ شخصيَّةٍ لي، حقَّاً، أمَّا الآن؛ فإنَّ ذلك سيبدو لك شيئاً أخرقَ، ولكنْ...

بلاسُّون – عندما كنتُ أرسمُ الوجوهَ، كان ذلك يبدأ من العَينَين. كنتُ أسهو عن كلِّ شيءٍ آخرَ، وأركِّزُ على العَينَين، أدرسُهما، لدقائق ودقائق، ثمّ أرسم تخطيطاً أوَّليَّاً لهما، بالقلمِ الرَّصاص، وذلك كان السِّرَّ، ذلك أنَّك حالما تفرغ من رَسْمِ العَينَين... (انقطاع)

بارتلبوم - ...

بلاسُّون - ...

بارتلبوم - ماذا يحصل حالما تفرغ من رَسْمِ العَينَين؟

بلاسُّون - يحصلُ أنَّ كلَّ شيءٍ آخر يأتي من تلقاء نفسِه، وكأنَّ كلَّ شيءٍ آخر ينزلق لوحدِه حول نقطةِ البدءِ تلك، وليس ثمّة حاجةٌ حتّى إلى... (انقطاع)

بارتلبوم - ليس ثمّة حاجةٌ البتَّة.

بلاسُّون - لا. يمكن للمرء أن يتحاشى النَّظر كُلِّيَّاً تقريباً إلى النَّموذج، فكلُّ شيءٍ يأتي من تلقاء نفسِه، الفمُ، انحناءةُ العنق، وحتَّى اليدان... أمَّا الأمر الجوهريُّ؛ فيكمن في البدء من العَينَين، أتفهمني؟ وهنا مَكْمَنُ المسألة الحقيقيَّة، المسألة التي تقودني إلى الجنون، إنَّه بالضَّبط هنا:... (انقطاع)

بارتلبوم - ...

بلاسُّون - ...

بارتلبوم – ألديك فكرةٌ عن ماهية المسألة، يا بلاسُّون؟

لا خلاف: كان الأمرُ معقّداً. ولكنّه كان يؤتي ثمارَه. كلُّ شيءٍ كان يتعلّق بإزالة المعوِّقات. رويداً رويداً. بصبرٍ. وبارتلبوم، كما يمكن الاستخلاص من حياتِه العاطفيَّة الفريدة، كان رجلاً صبوراً.

بلاسُّون - المسألة هي: أين هما، بحقِّ الجحيم، عينا *البحر*؟ لن أفلحَ أبداً في تدبير شيءٍ ما دمتُ لا أفلحُ في رفع الحجاب عن ذلك، فذلك هو المصدَر، أتفهمني؟ مصدَرُ كلِّ شيءٍ، وما دمتُ لا أعلم أين سأواصلُ قضاءَ أيَّامي ناظراً إلى هذا الانفساحِ المائيِّ الملعون دون أن... (انقطاع)

بارتلبوم - ...

بلاسُّون - ...

بارتلبوم - ...

بلاسُّون - هذه هي المسألة، يا بارتلبوم:

يا لِلسِّحر: هذه المرَّة استأنف الحديث من تلقاء نفسِه.

بلاسُّون - هذه هي المسألة: *أين يبدأ البحر*؟

بارتلبوم يصمتُ.

كانت تُنائي وتؤوبُ، الشَّمسُ، بين غيمةٍ وأخرى. كانت رياحُ الشَّمال، أبداً رياحُ الشَّمال، ما يرتِّبُ المشهدَ الصَّامتَ مِن علٍ. والبحرُ يواصلُ تلاوةَ مزاميره لا يزعزعه شيءٌ. إن كان يمتلك عينَين، فلا ريب أنَّه لم يكن ينظرُ بهما إلى هناك في تلك اللحظة.

صمتٌ.

صمتٌ لدقائق.

ثمّ التفتَ بلاسُّون نحوَ بارتلبوم، ونطق كلَّ شيءٍ في نَفَسٍ واحدٍ

- وأنت... ما الذي تدرسه مع كلِّ أدواتك الغريبة هذه؟

ابتسمَ بارتلبوم.

- أين ينتهي *البحر*.

قطعتان من إحدى أحاجيِّ الصُّور المقطوعة. مخلوقةٌ إحداهما للأخرى. من مكانه في إحدى جهات السَّماء، في تلك اللحظة، عثرَ عليهما في النِّهايةِ إلهٌ عجوز.

- بحقِّ إبليس! لقد قلتُ لنفسي إنَّه لا يمكن لهما أن تختفيا.

- الغرفةُ في الطَّابق الأرضيِّ. من هناك، الباب الثَّالث على اليسار. لا يوجد مفاتيح لها. لا أحد يمتلك مفاتيحَ، هنا. في ذلك السِّجلِّ عليك أن تدوِّن اسمك. ذلك ليس إجباريَّاً، ولكن الجميع يفعل ذلك، هنا.

كان السِّجلُّ الكبيرُ ينتظر مع تواقيعِ النُّزلاء مفتوحاً فوق مسندٍ خشبيٍّ؛ سريراً من الورق بالكاد أعيدَ ترتيبه ينتظر أحلامَ أسماءٍ أخرى، أسماءِ آخرين. قلمُ الرَّجلِ بالكادِ مسَّه مسَّاً خفيفاً.

آدامز.

ثمّ تلكَّأَ هُنيهةً، لابثاً بلا حراك.

- إذا كنتَ ترغب في معرفة أسماء الآخرين اسألني عنها. إنَّها ليست سرَّاً البتَّة.

رفع آدامز ناظرَيه عن السِّجلِّ الكبير، وابتسم.

- اسمٌ جميلٌ، ديرا.

لبثت الفتاة ذاهلةً. ألقت بصورةٍ غريزيَّةٍ نظرةً على السِّجلِّ.

- ليس مدوَّناً هنا، اسمي.

- لا، ليس هنا.

كان من المغالاة أن يكون لها من العمر آنذاك عشر سنواتٍ، تلك الطِّفلة. لكنَّها لو شاءت لكان في مقدورها أن يكون لها ألف سنةٍ فوق ذلك. سدَّدتْ عينيها مباشرةً إلى عينَي آدامز، وما قالته قالته بصوتٍ حاسمٍ بدا كصوتِ امرأةٍ لم تكن هناك.

- آدامز ليس اسمَكَ الحقيقيَّ.

- لا؟

- لا.

- وكيف تعرفين ذلك؟

- أنا أيضاً أجيدُ القراءة.

تبسَّمَ آدامز. انحنى، حملَ حقيبته، وانصرفَ صوبَ غرفتِه.

- الباب الثَّالث على اليسار - نادى من ورائه صوتٌ كان قد عاد من جديدٍ صوتَ طفلة.

لم يكن ثمّة مفاتيح. فتحَ البابَ، ودخلَ. لم يكن يتوقَّع الكثير. ولكنَّه على الأقل كان يتوقَّع أن يجدَ الغرفةَ شاغرة.

- أوه، المعذرة - قال الأب بلوش، مبتعداً عن النَّافذة ومسوِّياً ثوبَه بصورةٍ غريزيَّة.

- هل أخطأتُ الغرفة؟

- لا، لا... إنَّه أنا مَن... انظرْ إنَّ غرفتي في الأعلى، في الطّابق العُلويِّ، ولكنَّها تطلُّ على الآكام، والبحرُ لا يُرى منها: لقد اخترتها عن بصيرة.

- بصيرة؟

- دعنا من ذلك، إنَّها حكايةٌ طويلة... الحاصلُ أنَّني أردتُ أن أرى ما الذي يُرى من هنا، أمَّا الآن فسأنهي هذا الإزعاج، ما كنتُ لآتي إلى هنا أبداً لو كنتُ أعلم...

- ابقَ، إذا شئتَ.

- لا، سأنصرف الآن. سيكون لديك الكثير لتفعله، أوصلتَ للتَّو؟

ألقى آدامز حقيبته على الأرض.

- يا لِلغباء، لا شكَّ أنَّك وصلتَ للتَّو... حسناً، سأنصرف الآن. آه،... أُدعَى بلوش، الأب بلوش.

أومأ آدامز برأسه.

- الأب بلوش.

- هوَ ذا.

- إلى اللقاء قريباً، أيُّها الأب بلوش.

- أجل، قريباً.

تسلَّلَ صوبَ الباب وخرج. وبينما كان يعبر من أمام مكتب الرِّسبشن - كما كان يؤثر أن يسمِّيه - أحسَّ أنَّه من الواجب عليه أن يُهمهمَ

- لم أكن أعلم أنَّ أحداً قد حطَّ رحاله، أردتُ فقط أن أرى كيف يُرى البحرُ...

- لا يهمُّ، أيُّها الأب بلوش.

كان على وشك المغادرة، عندما توقَّف فجأةً، وعاد بخطواته إلى الوراء، ثمّ انحنى برفقٍ على الدَّكَّة، وسألَ ديرا بصوتٍ منخفض

- في رأيك هل من المحتمل أن يكون طبيباً؟

- مَن؟

- هو.

- اسأله عن ذلك.

- لا يبدو لي من الأشخاص الذين يموتون رغبةً في سماعِ الأسئلة. إنَّه لم يخبرني حتّى باسمه.

تردَّدتْ ديرا هُنيهةً.

- آدامز.

- آدامز وحسب؟

- آدامز وحسب.

- آه.

كان لِينصرف، ولكنْ؛ كان ما يزال لديه شيءٌ يقوله. قاله بصوتٍ خفيضٍ أيضاً

- العينان... لديه عينا حيوانٍ في مصيدة.

آنذاك كان قد انتهى حقّاً.

آن دوڤِريا تتنزَّه على طولِ الشَّاطئ، في ملاءتها البنفسجيَّة. بجوارِها، فتاةٌ تُدعى إليزوين، مع مظلَّتها البيضاء الصَّغيرة. لها من العمر ستَّ عشرة سنة. قد تموتُ، وقد تحيا. لا أحد يعلم. آن دوڤِريا تتكلَّم دون أن ترفع عينيها عن العدَمِ الممتدِّ أمامها. أمامها بمعانٍ كثيرة.

- لم يُرِدْ والدي أن يموت. كان يتقدَّم في السِّنِّ، ولا يموت. كانت الأمراض تُتلفه إتلافاً، بينما ظلَّ هو متشبِّثاً، ببسالةٍ، بالحياة. في النِّهاية لم يعد يخرجُ حتّى من غرفتِه. كان لزاماً عليهم أن يفعلوا كلَّ شيءٍ عنه. أعوامٌ مضت، على ذلك المنوال. كان متحصِّناً في ما يشبه القلعة، قلعةٍ هي ملكه وحده، مُشيَّدةٍ في الرُّكن الأشدِّ استتاراً من نفسِه. تخلّى عن كلِّ شيء، لكنَّه بقي متمسِّكاً، وبضراوةٍ، بالشَّيئين الوحيدين اللذَين كانا يعنيان له شيئاً: الكتابة والكراهية. كان يكتب بمشقَّةٍ، باليد التي كان ما يزال قادراً على تحريكها. وكان يكره بالعينَين. أمَّا الكلام؛ فلم يكن يتكلَّم أبداً، وبقي على ذلك حتّى النِّهاية. يكتب ويكره. عندما مات - ذلك أنَّه مات، في النِّهاية - تلقَّفتْ أمِّي تلك المئات من الأوراق المبقَّعة، وراحت تقرؤها، واحدةً واحدة. كان مدوَّناً عليها أسماءُ كلِّ أولئك الذين عرفهم، اسماً تلوَ الآخَر. وبجوارِ كلِّ اسمٍ، الوصفُ الدَّقيق لِميتةٍ مُرعبة. أنا لم أقرأها، تلك الأوراق. ولكنَّ العينَين - تينكَ العينَين اللتين كانتا تنفثان الكراهية، كلَّ دقيقةٍ من كلِّ يومٍ، حتّى النِّهاية - قد رأيتُهما. رأيتُهما رأيَ العين. لقد رضيتُ بزوجي لأنَّه كان يمتلك عينَين طيِّبتَين. إنَّه الشَّيءُ الوحيدُ الذي كنتُ أعبأ به. كان يمتلك عينين طيِّبتَين.

ثمّ لا شيء سوى أنَّ الحياة تمضي

مثلما تتخيَّلين. تشقُّ طريقَها بنفسِها. وتشقِّين أنتِ طريقكِ. وليستا في النِّهاية الطَّريقَ نفسَها. هكذا... فأن أكون سعيدةً ليس هو ما أردتُه، ليس هذا. إنَّما أردتُ... الخلاصَ، هوَ ذا: الخلاص. ولكنَّني عرفتُ بعد فواتِ الوقتِ من أيَّةِ جهةٍ كان ينبغي الانطلاق: من جهةِ الرَّغبات. يحسبُ المرءُ أنَّها أمورٌ أخرى تلك التي تخلِّصُ الإنسان: الواجب، الاستقامة، أن نكون أخياراً، أن نكون صادقين. لا. إنَّها الرَّغبات ما يخلِّصنا. إنَّها الشيء الحقيقيُّ الوحيد. كوني معها، تجدي الخلاصَ. غير أنَّني، بعدَ فواتِ الوقتِ، أدركتُ ذلك. إن أعطيتِ وقتاً لها، للحياة، فإنَّها تبدأ بالالتفاف على نفسِها بصورةٍ غريبةٍ، وعلى نحوٍ لا يلين ولا يرحم: وإذَّاكَ تفطنين إلى أنَّك عندَ تلك النُّقطة غير قادرةٍ على أن ترغبي في شيءٍ دون أن تتأذَّي. هناك هو المكان؛ حيث ينقضُّ عليكِ كلُّ شيءٍ، وما مِن مَنجَىً، فكلَّما اهتجتِ أكثر، تهوَّشَتِ الشِّباكُ عليكِ أكثر، كلَّما انتفضتِ أكثر، جُرِحتِ أكثر. لا مخرَجَ لكِ. أمَّا أنا؛ فعندما فات الوقتُ، بدأتُ أرغب. بكلِّ القوَّةِ التي كنتُ أملك. لقد أثخنتْني تلك الجراحُ التي ليس في مُكْنتِكِ حتّى أن تتخيَّليها.

أتعلمين ما الشَّيء الجميل،

هنا؟ انظري: إنَّنا نسير، نترك كلَّ تلك الآثار على الرِّمال، وهي تبقى هناك، مُتقَنَةً، ومنسَّقة. لكن غداً، تستفيقين، تنظرين إلى هذا الشَّاطئ الفسيح، ولا يكون ثمّة شيء، لا أثر، لا علامة أيّاً تكن، لا شيء. البحرُ يمحو، في الليل. المدُّ يطمسُ. كما لو أنَّ أحداً لم يمرَّ من هناك قطُّ. كما لو أنَّنا لم نكن موجودين أبداً. إذا كان ثمّة مكانٌ، في العالم، يمكن فيه أن تفكِّري في أنَّكِ عَدَمٌ، فإنَّ ذلك المكان هو هنا. ليس ثمّة أرضٌ بعدئذٍ، ولا بحر. لا حياة زائفة، ولا حياة حقيقيَّة. زمنٌ وحسب. زمنٌ يمرُّ. وكفى.

لِمن شأنه أن يكون ملاذاً مثاليّاً. خفيُّون

على أيِّ غريمٍ. مُعلَّقون. بيضٌ كلوحاتِ بلاسُّون. غيرُ مُدرَكين حتّى لأنفسِنا. لكنْ؛ ثمّة ما يصدِّعُ هذا المطهَر. شيءٌ لا تستطيعين الهروب منه. *البحر*. البحرُ يسْحَرُ، البحرُ يقتلُ، يحرِّكُ، يروِّعُ، وكذلك يُضحك، أحياناً، ومن حينٍ لآخر يتوارى، يتنكَّرُ في هيئة بحيرة، أو يُنشئ عواصفَ، يلتقمُ سُفناً، يهبُ ثرواتٍ، لا يعطي جواباً، حكيمٌ، لطيفٌ، قادرٌ، وعصيٌّ على كلِّ نبوءة. لكنْ؛ فوق كلِّ شيء: البحرُ يُنادي. ستكتشفين بنفسك، يا إليزوين. إنَّه لا يفعل شيئاً، في النِّهاية، سوى هذا: النِّداء. لا يكفُّ عن ذلك أبداً، يلِجُك مِن داخل، يكتنفكِ مِن خارج، هي أنتِ مَن يشتهي. يمكنكِ أيضاً أن تتجاهلي الأمرَ، ولكنَّ ذلك لا يُجدي. سيستمرُّ بمناداتك. هذا *البحر* الذي ترَين وكلُّ تلك البحار الأخرى التي لن ترَينها، ولكنَّها ستكون، دائماً، في وضعِ المتربِّصِ الجَلود، تقف على بعدِ خطوةٍ واحدةٍ من حياتك. ستسمعينه يناديكِ، على نحوٍ لا يعرف الكللَ أو المللَ. يحصل ذلك في هذا المطهَرِ الرَّمليِّ. ويحصلُ في أيِّ فردوسٍ، وفي أيِّ جحيمٍ. دونما تفسيرٍ، دون أن يُقالَ لكِ أين، سيكون ثمّة على الدَّوام بحرٌ، بحرٌ يناديكِ. مكتبة أحمد

تتوقَّف، آن دوڤِريا. تنحني، تخلع حذاءَها. تتركه على الرَّمل. ثمّ تستأنف المسير، حافية القدمين. إليزوين لا تتحرَّك. تنتظرُ أن تبتعدَ تلك بضع خطوات. ثمّ تقول، بصوتٍ عالٍ بما يكفي؛ ليكون مسموعاً:

- إنَّني راحلةٌ عن هنا في غضون أيَّام. وسأرحلُ في *البحر*. وسأبرأ. هذا هو ما أرغب فيه. أن أبرأ. أن أحيا. وأن أصبحَ، ذاتَ يومٍ، فاتنة الجمالِ مثلكِ.

آن دوڤِريا تلتفت. تبتسم. تنقِّبُ عن الكلمات. تجدُها.

- ستأخذينني معكِ؟

على حافَّةِ نافذة بارتلبوم، هذه المرَّة، كانا جالسَين معاً. الطِّفلُ

إيَّاه. وبارتلبوم. الأرجلُ تتدلَّى، متأرجحةً، في الخواء. العيون تتأرجح، على *البحر*.

- اسمعْ، يا دُوْد...

دُوْد، هو اسمُ الطِّفل.

- بما أنَّك تمكث دائماً هنا...

- همممم.

- فإنَّك ربمَّا تعلم.

- ماذا؟

- أين هما عينا *البحر*.

- ...

- لأنَّه يملك عينَين، أليس كذلك؟

- بلى.

- وأين هما بحقِّ الجحيم؟

- السُّفن.

- ما بها السُّفن؟

- السُّفن هي عيون *البحر*.

يصمتُ بارتلبوم منبهراً. تلك فكرةٌ لم تخطُر بتَّةً في ذهنه.

- لكنْ؛ ثمّة المئاتُ من السُّفن...

- إنَّ له مئات العيون. لا تقل لي إنَّك تريدُ له أن ينجزَ كلَّ شيءٍ بعينَين اثنتين فحسب.

بطبيعةِ الحال. مع كلِّ ما لديه من أعمال. وهو الشَّاسع كما هو. فثمَّة شيءٌ من الحسِّ السَّليم، في كلِّ ذلك.

- أجل، ولكنْ؛ اعذرني...

- همممم.

- ماذا عن الإغراقات؟ العواصف، الأعاصير، كلُّ تلك الأشياء التي هناك... لماذا عليه أن يبتلعَ تلك السُّفن، إن كانت عيوناً له؟

تبدو على دُوْد سيماءُ فاقدِ الصَّبرِ، وهو يلتفتُ نحوَ بارتلبوم، ويقول

- لكنْ؛ أنت... أنتَ ألا تغمض عينيك أبداً؟

أيُّها المسيح. عندَه جوابٌ لكلِّ سؤالٍ، ذلك الطِّفل.

بارتلبوم يفكِّر. يفكِّر، ويعيد التَّفكير، ويقلِّبُ الفِكْرَ، ويتفكَّر. ثمّ يقفز عن حافَّةِ النَّافذة بغتةً وخطْفاً. من جهةِ الغرفةِ، نقصدُ. فالقفز من الجهة الأخرى يتطلَّبُ جناحين.

- بلاسُّون... عليَّ أن أعثر على بلاسُّون... عليَّ أن أخبرَه بذلك... اللعنة، لم يكن الأمر على تلك الدَّرجة من الاعتياص، كان يكفي أن يفكِّر المرء فيه قليلاً...

يبحث بضيقٍ عن قبَّعتهِ الصُّوفِ. لا يجدُها. الأمرُ مفهومٌ: إنَّها على رأسه. فلننسَ هذا. يهرعُ إلى خارج الغرفة.

- إلى اللقاء، يا دُوْد.

- إلى اللقاء.

يبقى الطِّفل ماكثاً هناك، عيناه مسمَّرتان على *البحر*. يبقى هكذا لبعض الوقت. ثمّ ينظر مليّاً أنَّه ليس ثمّة أحدٌ من حولِه وبغتةً وخطفاً يقفز عن حافَّةِ النَّافذة. من جهة الشَّاطئ، نقصدُ.

ذاتَ فجرٍ استفاقوا، ولم يكن ثمّة شيء. لم تكن وحدُها آثارُ الأقدامِ ما امَّحى عن الرِّمال. كلُّ شيءٍ كان قد امَّحى. إذا جاز التَّعبير.

- ضبابٌ لا يُصَدَّق.

- ليس ضباباً، إنَّها غيومٌ.

غيومٌ لا تصدَّق.

- إنَّها غيومُ *البحر*. تلك التي للسَّماء موجودةٌ في الأعلى. تلك التي للبحر موجودةٌ في الأسفل. إنَّها تأتي لِماماً. ثمّ ترحل.

كانت تعلم فيضاً من الأشياء، ديرا تلك.

بطبيعةِ الحال، النَّظرُ إلى الخارج كان يشكِّلُ انطباعاً. في الليلةِ السَّابقة فحسب كانت السَّماء كلُّها مرصَّعةً بالنُّجوم، مثل خُرافة. والآن: الأمرُ أشبه بالحُلولِ داخلَ كوبِ حليب. ناهيك عن البرد. أشبه بالحلولِ داخلَ كوب حليبٍ بارد.

- الأمرُ نفسُه، في كايروول.

كان الأب بلوش يلصق أنفه بزجاجِ النَّافذة، مسحوراً.

- إنَّه يدوم لأيَّامٍ وأيَّام. لا يتحرَّك قيد أنملة. ذلك الذي هناك ضبابٌ.

مجرَّدُ ضباب. وعندما يأتي، لا يعودُ المرء يبصرُ شيئاً. النَّاس يسيرون وفي أيديهم مشاعلُ حتّى في النَّهار. علَّهم يبصرون شيئاً. ولكنْ؛ حتّى ذلك لا يكاد يُجدي شيئاً. وفي الليل، مِن ثمّ... يحدث ألَّا يعي المرءُ شيئاً البتَّة. فكِّروا في آرلو كرو وهو عائدٌ، ذات مساءٍ، إلى بيته؛ إذْ أخطأ بيتَه، وانتهى به الأمرُ في فراش ميتيل كرو، أخيه. ميتيل كرو لم يشعر بذلك البتَّة، كان ينام مثلَ صخرة، ولكنَّ زوجته شعرت به. رجلٌ يندسُّ في فراشها. أمرٌ لا يُصدَّق. حسناً، أتعلمون ماذا قالت له، هي؟

حينذاك، في رأس الأب بلوش اندلع النِّزالُ المعتاد. عبارتان جميلتان غادرتا نقطة الانطلاق الدِّماغيَّة واضعتَين نصبَ أعينهما كنقطةِ وصولٍ صوتاً تخرجان معه إلى الفضاء الطَّلق. أرْجَحُهُما عقلاً، واضعين في الحسبان أنَّ الأمر يتعلَّق دوماً بصوتِ قِسِّيسٍ، كانت بالتَّأكيد

- افعل ذلك، وسأشرع في الصُّراخ.

إلَّا أنَّ عيبها كان يكمن في أنَّها زائفة. لذلك انتصرت الأخرى، تلك الحقيقيَّة.

- افعل ذلك، أو سأشرع في الصُّراخ.

- أبانا بلوش!

- ما الذي قلتُه؟

- ما الذي قلتَه؟

- أنا قلتُ شيئاً؟

كانوا جميعاً في الرَّدهة الكبيرة التي تطلُّ على *البحر*، في سِترٍ من طوفانِ الغيمِ ذاك، لكنْ؛ ليس مِن ذلك الشُّعورِ المُمِضِّ بعدم معرفةِ ما

ينبغي فِعلُه. ألَّا يفعلوا شيئاً شأنٌ. وألَّا يستطيعوا أن يفعلوا شيئاً شأنٌ. شأنٌ آخر. كان بهم جميعاً شيءٌ مِن الشُّرود. كأنَّهم أسماكٌ في حوضِ سَمَك.

أشدُّهم قلقاً كان بلاسُّون: بحذاءٍ فرسانيٍّ عالٍ وسترةِ صيَّادِ سمك، كان يطوفُ بعصبيَّةٍ ناظراً عِبرَ الزُّجاج إلى المدِّ الحليبيِّ الذي لا يتقهقرُ قيدَ أنملة.

- يبدو حقَّاً كلوحةٍ من لوحاتك - علَّقت آن دوڤِريا بصوتٍ عالٍ، فيما هي تغوص في أريكةٍ من الخُوص، لتُعاينَ هي الأخرى المشهدَ العظيم.

- كلُّ شيءٍ أبيضُ على نحوٍ مُبهر.

واصل بلاسُّون السَّير جيئةً وذهاباً. كما لو أنَّه لم يسمعْ كلمة.

رفعَ بارتلبوم رأسه عن الكتاب الذي كان يقلِّبُ أوراقه بخمول.

- أنتِ جدُّ قاسية، سيِّدة دوڤِريا. إنَّ السَّيِّد بلاسُّون يحاولُ إنجاز شيءٍ في غاية الصُّعوبة. ولوحاته ليست أشدَّ بياضاً من صفحات كتابي هذا.

- هل تؤلِّف كتاباً؟- سألتْ إليزوين من أريكتها، أمامَ المدفأة الكبيرة.

- شيءٌ من قبيلِ كتاب.

- أسمعتَ، أيُّها الأب بلوش، السَّيِّد بارتلبوم يؤلِّف كُتُباً.

- لا، ليس كتاباً بالضَّبط...

- إنَّها موسوعة - أوضحت آن دوڤِريا.

- موسوعة؟

وهكذا دواليك. أحياناً كان يكفي لا شيء لكي تنسى بحر الحليب

المهول الذي يضمِّخُكَ في الوقتِ نفسِه. لربَّما يكفي الجرْسُ الأجشُّ لكلمةٍ غريبة. موسوعة. كلمةٌ واحدة. فإذا الجميعُ مغيَّبٌ. الجميع: بارتلبوم، إليزوين، الأب بلوش، بلاسُّون. والسَّيِّدة دوڤِريا.

- ها بارتلبوم، لا تتكلَّف التَّواضع، قُصَّ على الآنسة تلك الحكاية عن الحدود، عن الأنهار وكلِّ الأشياء الأخرى.

- عنوانها موسوعةُ الحدودِ الممكنُ كشفُها في الطَّبيعة...

- عنوانٌ جميلٌ. كان لديَّ مدرِّسٌ، في المعهد اللاهوتيِّ...

- دعه يتكلَّم، أيُّها الأب بلوش...

- أعمل عليها منذ اثنتي عشرة سنة. إنَّها مسألةٌ معقَّدة... عمليَّاً إنَّني أدرسُ إلى أيِّ حدٍّ يمكن للطَّبيعةِ أن تصل، أو بالأحرى: أين تقرِّر أن تتوقَّف. ذلك أنَّها تتوقَّف على الدَّوام، عاجلاً أو آجلاً. هذه مسألةٌ علميَّة. على سبيل المثال...

- أعطها مثالاً القوبيرونات...

- حسناً، تلك حالةٌ تتَّسم ببعض الخصوصيَّة.

- هل سمعتَ من قبل حكايةَ القوبيرونات، يا بلاسُّون؟

- لاحظي أنَّه كان قد قصَّها عليَّ، سيِّدتي العزيزة دوڤِريا، وأنتِ كنتِ قد سمعتِها منِّي.

- اللعنة، لقد كانت عبارةً جدُّ طويلةً هذه، تهانيَّ يا بلاسُّون، إنَّك تتحسَّن.

- الحاصلُ، هذه القوبيرونات؟

- القوبيرونات تعيش فوق كتل الشَّمال الجليديَّة. إنَّها حيواناتٌ مثاليَّةٌ بطريقتها الخاصَّة. عمليَّاً إنَّها لا تتقدَّم في السِّنِّ. إذا شاءت أمكنَها أن تكون خالدة.

- هذا مروِّع.

- لكنْ؛ مهلاً، فالطَّبيعة تضبطُ كلَّ شيء، لا شيء يُفلِتُ منها. وهوَ ذا ما يحصل إذَّاك: في مرحلةٍ معيَّنة، عندما يصبح لها من العمر قرابة السَّبعين، أو الثَّمانين سنة، فإنَّ القوبيرونات تُعرِضُ عن الطَّعام.

- لا.

- بلى. تُعرِضُ عن الطَّعام. تعيش وسطيَّاً ثلاث سنواتٍ أُخَر، على تلك الحال. ثمّ تموت.

- ثلاث سنواتٍ دون طعام؟

- وسطيَّاً. بعضها كذلك يَثبُتُ مدَّةً أطولَ. لكنَّها في خاتمة المطاف، وهذا هو الجوهرُ، تموت. إنَّها مسألةٌ علميَّة.

- ولكنَّه انتحار!

- بمعنىً من المعاني.

- وفي رأيك ينبغي علينا أن نصدِّقك، يا بارتلبوم؟

- انظروا هنا، لديَّ الرَّسْمُ أيضاً... الرَّسمُ الإيضاحيُّ لقوبيرون...

- اللعنة، أنت على حقٍّ، يا بارتلبوم، إنَّك ترسمُ حقَّاً مثل كلب، أنا في الحقيقة لم أرَ قطُّ رسْماً (انقطاع)

- لستُ أنا مَن قام بذلك... إنَّه البحَّار الذي قصَّ عليَّ هذه الحكاية مَن قام برسمِه...

- بحَّار؟

- كلُّ هذه الحكاية سمعتَها من بحَّار؟

- أجل، لماذا؟

- آه، مرحى بارتلبوم، إنَّها علميَّةٌ بحقٍّ...

- إنَّني أصدِّقك.

- شكراً، آنسة إليزوين.

- إنَّني أصدِّقك، وكذلك الأب بلوش، أليس صحيحاً؟

- بالطَّبع... إنَّها حكايةٌ واقعيَّةٌ قطعاً، بل إنَّنيَ، إذا ما فكَّرتُ في الأمر جيِّداً، كنتُ قد سمعتُها مِن قبلُ كذلك، على الأرجح كان ذلك في المعهد اللاهوتيِّ...

- إنَّهم يتعلَّمون في الحقيقة ما لا يُحصى من الأشياء في تلك المعاهد اللاهوتيَّة... أهناك شيءٌ أيضاً عن السِّيِّدات؟

- أفكِّرُ الآن، يا بلاسُّون، أيمكنك أن تنجز الصُّور الإيضاحيَّة لموسوعتي، سيكون ذلك رائعاً، أليس كذلك؟

- عليَّ أن أرسم القوبيرونات؟

- حسناً، بغضِّ النَّظر عن القوبيرونات، لكن ثمّة فيضٌ من الأشياء الأخرى... لقد كتبتُ ٨٧٢ باباً، يمكنك أن تختارَ ما تؤثِرُ منها...

- ٨٧٢؟

- ألا تبدو لكِ فكرةً جميلةً، سيِّدة دوقِريا؟

- في باب *البحر* قد أتخلَّى ربمَّا عن الرَّسْمِ الإيضاحيِّ...

- الأب بلوش رسمَ صورَ كتابه بنفسِه.

- إليزوين، دعينا من هذا...

- ولكنَّها الحقيقة...

- لا تقولوا لي إنَّ لدينا رجلَ علمٍ آخر...

- إنَّه لَكتابٌ بديعٌ.

- أحقَّاً أنَّك تكتب أنت أيضاً، أيُّها الأب بلوش؟

- أوه لا، إنَّها مسألةٌ تتَّسم ببعض... الخصوصيَّة، إنَّه ليس كتاباً بالضَّبط.

- بل إنَّه كتاب.

- إليزوين...

- لا يُريه لأحدٍ أبداً، ولكنَّه بديعٌ للغاية.

- في رأيي إنَّها قصائد.

- ليس بالضَّبط.

- ولكنَّك اقتربتَ من ذلك.

- أغانٍ؟

- لا.

- هيَّا، أيُّها الأب بلوش، لا تجعلنا نتضرَّع...

- هوَ ذا، بالضَّبط...

- بالضَّبط ماذا؟

- لا، أعني، على ذكْرِ التَّضرُّع...

- لا تقلْ لي إنَّ...

- صلوات. إنَّها صلوات.

- صلوات؟

- أستودعكم الله...

- ولكنَّها ليست كسائر الصَّلوات، صلواتُ الأب بلوش...

- إنَّني أجدُها فكرةً رائعة. لطالما شعرت بافتقارنا إلى كتابِ صلواتٍ جميل.

- ها بارتلبوم، ليس على رجل العلمِ أن يصلِّي، إذا كان رجلَ علمٍ حقيقيّاً ليس عليه حتّى أن يفكِّرَ في (انقطاع)

- بالعكس! فلأنَّنا ندرس الطَّبيعةَ على وجه التَّحديد، كانت الطَّبيعةُ المرآةَ...

- لقد كتبَ كذلك صلاةً بديعةً عن طبيبٍ. هو رجلُ علمٍ، أليس كذلك؟

- ماذا تُراه يُقال عن طبيب؟

- عنوانها صلاةُ طبيبٍ يُبرئُ مريضاً وفي اللحظة التي ينهضُ هذا فيها، مُبراً، يشعر هو بوهنٍ لا حدود له.

- كيف؟

- ولكنَّه ليس عنواناً يليق بصلاة.

- لقد قلت لك إنَّ صلوات الأب بلوش ليست كغيرها من الصَّلوات.

- لكنْ؛ أتُعَنْوَنُ كلُّها على هذا الغِرار؟

- حسناً، بعض العناوين جعلها أقصر قليلاً، ولكنَّ جوهرَ الفكرةِ هو هذا.

- حدِّثنا عن الصَّلوات الأخرى، أيُّها الأب بلوش...

- آه، الآن صرتَ تعبأ بالصَّلوات يا بلاسُّون، هاه؟

- لا أعرف... ثمّة صلاةٌ *لأجل الطِّفل الذي لا يُفلِح في نُطق الرَّاء*، أو *صلاةُ الرَّجلِ الذي تردَّى في جُرْفٍ سحيقٍ، ولم يُرِدْ أن يموت*...

- لا أعتقد...

- حسناً، من الواضح أنَّها مختصَرَةٌ للغاية، بضع كلماتٍ... أو ثمّة صلاة العجوز الذي ترتعش يداه، أشياءٌ على هذا الغِرار...

- إنَّه خارجٌ عن المألوف!

- وكم صلاةً مِن قبيل هذا كتبتَ؟

- القليل... ليس من هيِّنات الأمور تأليفها، بين حينٍ وآخر تنزع بي نفسي إليها، ولكنْ؛ إذا لم يأتِ الإلهام...

- ولكنْ؛ كم على وجه التَّقريب؟

- الآن لغاية اللحظة... عددُها ٩٥٠٢.

- لا...

- هذا جنونيٌّ...

- اللعنة، مقارنةً بها، فإنَّ موسوعتك، يا بارتلبوم، مجرَّدُ دفتر ملاحظاتٍ صغير.

- ولكنْ؛ كيف يمكنك ذلك، أيُّها الأب بلوش؟

- لا أعرف.

- البارحة كتب واحدةً في منتهى الجمال.

- إليزوين...

- حقيقةً.

- إليزوين، من فضلك...

- مساءَ البارحة كتب صلاةً عنكم.

انعقدت ألسنة الجميع، فجأةً.

مساءَ البارحة كتبَ صلاةً عنكم.

لكنَّها لم تقلْها ناظرةً إلى أحدٍ منهم.

مساءَ البارحة كتبَ صلاةً عنكم.

إلى مكانٍ آخر كانت تنظرُ حين قالتْ ذلك، وإلى هناك يلتفتُ الجميعُ الآنَ، وقد استولت عليهم الدَّهشة.

مائدةٌ، بجوارِ واجهة المدخلِ الزُّجاجيَّة. رجلٌ جالسٌ إلى المائدة، وغليونٌ مُطفأٌ في يده. إنَّه آدامز. لا أحد يعلم متى وصلَ إلى هناك. لعلَّه هناك منذ لحظةٍ، أو لعلَّه هناك منذ الأزل.

- مساءَ البارحة كتب صلاةً عنكم.

الجميعُ يقبع بلا حراك. تنهض إليزوين، وتقترب منه.

- عنوانُها *صلاةُ رجلٍ لا يرغب في قولِ اسمه.*

ولكنْ؛ بعذوبةٍ. تقولُ ذلكَ بعذوبةٍ.

- يحسبُ الأب بلوش أنَّك طبيبٌ.

آدامز يبتسم.

- أحياناً فقط.

- أمَّا أنا؛ فأقول إنَّك بحَّار.

الجميعُ صامتٌ، الآخرون طُرَّاً. بلا حراك. ولكنَّهم لا يُضِيعون كلمةً واحدة، ولا واحدة.

- أحياناً فقط.

- وهنا، اليومَ، ما أنتَ؟

يهزُّ برأسِه، آدامز.

- لستُ إلَّا رجلاً ينتظر.

إليزوين واقفةٌ، أمامَه. لديها سؤالٌ دقيقٌ وبسيطٌ للغاية، في ذهنها:

- ماذا تنتظر؟

كلمتان فحسب. بيدَ أنَّه لا يستطيع الإفصاحَ لها؛ لأنَّه قبلَ هُنيهةٍ فحسب سمعَ في رأسه صوتاً يهمهمُ:

- *لا تسأليني عن ذلك، يا إليزوين، لا تسأليني، أرجوكِ.*

تمكث هناك، متحجِّرةً، دون أن تقولَ شيئاً، وعيناها معلَّقتين بتينِكَ العينين، البكماوَين كَحَجَر، عينَي آدامز.

صمتٌ.

ثمّ يرفع آدامز ناظريه فوقها، ويقول

- ثمّة شمسٌ خلَّابةٌ، اليومَ.

في ما وراءَ البلَّور، دونما حسرةٍ عليها، بادتْ كلُّ غمامةٍ، والنَّسَمُ الرَّائقُ لنهارٍ مُعادٍ من العدَمِ يصلصلُ مُبهِراً.

شاطئٌ. وبحر.

ضياءٌ.

ريحُ الشَّمال.

صمتُ المدِّ والجزر.

نهاراتٌ. ليالٍ.

طقسٌ دينيٌّ. ساكنٌ، على ما يبدو. ساكنٌ.

شخوصٌ كأنَّهم حركات شعيرةٍ من الشَّعائر.

شيءٌ آخر مغايرٌ للبشر.

حركات.

ها تتنفَّسُهم المراسمُ اليوميَّة الزَّاحفة، تصيِّرهم أكسجينَ ذلك الفضاء الملائكيِّ.

ها يَئيضُهم المشهدُ المثاليُّ للشَّاطئ، يحوِّلهم أطيافاً على هيئةِ مراوحَ مِن حرير.

يوماً إثر يومٍ يصيرون أقلَّ قدرةً على التَّبدُّل.

جاثمين على بعد خطوةٍ من *البحر*، يصيرون غياباً، ومِن داخلِ فُرجاتِ عدَمٍ بهيٍّ يتلقَّون عزاءاتِ زوالٍ مؤقَّت.

يطفو، فوق ذلك الإيهام البصريِّ للرُّوح، الرَّنينُ الفضيُّ لكلماتهم، الكُلُوحُ الوحيدُ الممكنُ إدراكُه في سكينةِ ذلك السِّحر الذي لا يُسمَّى.

- أتظنِّين أنِّي مجنونٌ؟

- لا.

قصَّ عليها بارتلبوم كلَّ القَصَص. الرَّسائل، حُقَّة الماهوغاني، المرأة التي ينتظرها. كلَّ شيء.

- لم أقصُصْها على أحدٍ مِن قبل.

صمتٌ. مساءٌ. آن دوفِريا. الشَّعرُ المحلولةُ عقائصُه. قميصُ نومٍ طويلٌ أبيض يصلُ إلى القدمين. غرفتُها. الضَّوءُ الذي يتهزهزُ على الجدران.

- فلماذا أنا، يا بارتلبوم؟

ينكِّلُ بحاشيةِ سترته، البروفسور. ذلك ليس سهلاً. لا شيء سهل.

- لأنَّني أحتاج إلى مساعدتِك.

- أنا؟

- أنتِ.

يشيِّدُ المرءُ حكاياتٍ كبيرةٍ، هذا هو الواقعُ، وفي وسعِه أن يستمرَّ سنيناً، وهو مؤمنٌ بها، غيرَ عابئٍ كم هي جنونيَّةٌ، ومخالفةٌ للحقيقة، إنَّه يحملها على كاهله، وحسب. بل إنَّنا نفرح بأشياء من هذا القبيل. نفرح. ونحسبُ أنَّ ذلك لن ينتهي أبداً. ثمّ، يوماً ما، يحصل أن يتهشَّمَ شيءٌ، في قلب وسيلةِ التَّحايل(*) الرَّائعة، تاكْ، دونما أيِّ سببٍ، يتهشَّمُ فجأةً، وتظلُّ أنتَ هناك، دون أن تفهم لماذا تلك الحكاية الخياليَّة لم تعدْ فوقك، بل أمامك، كما لو أنَّها حماقةُ شخصٍ آخر، وهذا الآخرُ هو أنت. تاكْ. في بعض الأحيان، يكفي لا شيء. حتّى مجرَّد سؤالٍ واحدٍ؛ إذْ يبرزُ إلى السَّطح. يكفي هو أيضاً.

- سيِّدة دوڤِريا... كيف أفعلُ لأتعرَّف بتلك المرأة، امرأتي، عندما ألتقي بها؟

حتّى مجرَّد سؤالٍ أوَّليٍّ؛ إذْ يبرزُ من الجحور الجوفيَّة التي دُفِن فيها. يكفي هو أيضاً.

- كيف أفعلُ لأتعرَّف بها، عندما ألتقيها؟

هوَ ذا.

- لكنْ؛ على مرِّ كلِّ تلك السِّنين لم تسأل نفسَك هذا السُّؤال يوماً؟

- لا. كنتُ موقناً أنَّني سأتعرَّف بها، وهذا كلُّ شيء. أمَّا الآن؛ فأنا خائفٌ. خائفٌ ألَّا أكون جديراً بالإحاطة. فترحلُ هي. وأفقدُها أنا.

---

*) أداة ميكانيكيَّة للتَّحكُّم أو التَّلاعب بجهاز المقامرة؛ (م).

كان يحمل حقّاً على كاهلِهِ كلَّ آلامِ العالَم، البروفسور بارتلبوم.

- علِّميني أنتِ، سيِّدة دوڤِريا، كيف أفعلُ لأتعرَّف بها، عندما أراها.

تغفو إليزوين على نورِ شمعةٍ وطفلة. والأب بلوش، وسطَ صلواتِه، وبلاسُّون، في بياضِ لوحاتِه. ربَّما يغفو كذلك آدامز، الحيوان العالق في مصيدة. يغفو نُزلُ آلماير، يهدهدُه البحرُ المحيط.

- أغمض عينيك، يا بارتلبوم، وأعطني يدَيك.

بارتلبوم يمتثِل. وفي الحال يشعرُ تحت يدَيه بوجهِ تلك المرأة، بالشَّفتين اللتين تلهوان بأصابعه، ثمّ بالعنقِ الرَّقيق والقميص الذي ينفتح، بيدَيها اللتين تقودان يديه على امتداد تلك البشرة اللافحة والفائقة النُّعومة، وتضغطهما عليها؛ لتتذوَّقا أسرارَ ذلك الجسد المجهول، وتعصرا ذلك الأجيجَ، قبل أن تصعدا من جديدٍ إلى الكتفين، وسطَ الشَّعرِ ومرَّةً أخرى بين الشَّفتين؛ حيث تنزلق الأصابع غُدُوَّاً ورَوَاحاً، إلى أن يأتي صوتٌ؛ ليوقفَها، وليدوِّنَ في الصَّمت:

- انظر إليَّ، يا بارتلبوم.

انهوى القميصُ على حِجْرِها. عيناها تبتسمان دون أدنى اضطراب.

- يوماً ما ستلتقي بامرأةٍ، وستشعر بكلِّ هذا دون حتّى أن تلمسَها. أعطِها رسائلك. لقد كتبتَها لها وحدَها.

ألف فكرةٍ احتشدتْ آنذاك، في رأس بارتلبوم، فيما كان يسترجعُ يدَيه، مُبقياً إيَّاهما مفتوحتَين، كما لو أنَّه إذا أغلقهما بدَّدَ كلَّ شيء.

كان مشوَّشاً للغاية عندما خرجَ من الغرفة؛ إذْ خُيِّلَ إليه أنَّه رأى، في

غُبشةِ الظِّلال، الشَّكلَ الوَهْميَّ لطفلةٍ فائقة الجمال، لِصْقَ وسادةٍ كبيرةٍ في آخرِ السَّرير. عُريانةً تماماً. البشرة بيضاء كغمامةِ بحر.

- متى تودِّين المغادرة، يا إليزوين؟- يسأل الأب بلوش.

- وأنت؟

- أنا لا أطلب شيئاً. لكنْ: علينا أن نبلغَ داشنباخ، عاجلاً أو آجلاً. هنالك هو *البحر*؛ حيث ينبغي أن تتعالجي. هذا... هذا ليس مكاناً صالحاً للاستشفاء.

- علامَ تقول هذا؟

- ثمّة شيءٌ ما... شيءٌ مريضٌ في هذا المكان. ألم تشعري بذلك؟ اللوحات البيض لذلك الرَّسَّام، القياساتُ التي بلا نهاية للبروفسور بارتلبوم... ثمّ تلك السَّيِّدة التي هي فائقة الجمال مع أنَّها حزينةٌ ووحيدة، لا أعرف... ناهيك عن ذلك الرَّجل الذي ينتظر... ذلك الذي حرفتُه الانتظار، والله يعلم ما... أو مَن... كلُّ شيءٍ... كلُّ شيءٍ واقفٌ على بُعْدِ خطوةٍ من هذه الأشياء. ليس ثمّة ما هو واقعيٌّ هنا، أتدركين هذا؟

تصمتُ إليزوين، وتفكِّر.

- وليس ذلك فقط. أتعلمين ماذا اكتشفتُ؟ ثمّة نزيلٌ آخر، في هذا النُّزل. في الغرفة السَّابعة، تلك التي تبدو شاغرةً. حسناً، إنَّها ليست شاغرة. ثمّة رجلٌ هناك في الدَّاخل. ولكنَّه لا يخرج أبداً. لم تشأ ديرا أن تخبرني مَن يكون. لا أحد من الآخرين رآه البتَّة. يحملون له الطَّعامَ إلى الغرفة. أيبدو لكِ هذا طبيعيَّاً؟

تصمتُ إليزوين.

- أيُّ مكانٍ هو هذا؛ حيث ثمّة بشرٌ، ولكنَّهم لامرئيُّون، أو أنَّهم يمضون جيئةً وذهاباً بلا نهاية، وكأنَّهم يملكون الأبديَّةَ أمامهم؛ لكي...

- هذا شاطئ *البحر*، أيُّها الأب بلوش. لا هو بالأرض، ولا هو بالبحر. إنَّه مكانٌ لا وجود له.

تنهض إليزوين. تبتسم.

- إنَّه عالمٌ من الملائكة.

تتأهَّب للخروج. تتوقَّف.

- سنرحل، أيُّها الأب بلوش. بضعة أيَّامٍ بعدُ، ونرحل.

- حسناً، أصغِ جيِّداً، يا دُوْل. عليك أن تراقب *البحر*. وعندما ترى سفينةً، أخبرني. مفهوم؟

- أجل، سيِّد بلاسُّون.

- أحسنت.

الحقيقة إنَّ بلاسُّون لا يُبصِرُ جيِّداً. يرى عن قُرب، ولكنَّه لا يرى عن بُعد. يقول إنَّه أمضى كثيراً من الوقت في تأمُّل وجوه الأثرياء. لقد أتلفَ بصرَه. ناهيك عن بقيَّة الأشياء. على هذا المنوالِ يبحث عنها، عن السُّفن، ولكنَّه لا يجدُها. لعلَّ دُوْل ينجح في ذلك.

- إنَّها تعبرُ بعيداً، تلك السُّفن، يا سيِّد بلاسُّون.

- لماذا؟

- إنَّها تخشى مواطئ الشَّيطان.

- والتي هي؟

- الصُّخور. ثمّة صخورٌ، هنا أمامنا، على امتدادِ السَّاحل كلِّه. إنَّها تنتأ في *البحر*، وأنّى تنظرْ ترَها. لذلك تستدير السُّفن صوبَ الشَّاسع.

- لم يكن ينقصنا سوى الصُّخور.

- لقد وضعَها الشَّيطان.

- نعمْ، يا دُوْل.

- إنَّها الحقيقة! انظرْ، الشَّيطان كان يقطن هناك، في جزيرة تابي. حسناً، ذات يومٍ ركبتْ فتاةٌ، وكانت قدِّيسةً، زورقاً صغيراً. وبعد ثلاثة أيَّامٍ بلياليها، بلغَتِ الجزيرة. كانت فائقة الجمال.

- الجزيرة؟ أم القدِّيسة؟

- الفتاة.

- آه.

- كانت فائقة الجمال حدَّ أنَّ الشَّيطان عندما رآها مُلئ منها رعباً. حاول أن يطردها، ولكنَّها لم تتحرَّك قيدَ أنملة. لبثت هناك تنظرُ إليه. حتّى جاء يومٌ نفذَ فيه صبرُ الشَّيطان بحقٍّ...

- نفدَ(*).

---

*) في النَّصِّ الأصليِّ يصوِّب بلاسُّون لصبيِّ المركب خطأه اللغويَّ في تصريف فعل الاستطاعة، ورأينا أنَّ من شأن هذا التَّصرُّف البسيط في التَّرجمة، مع الإبقاء على المعنى العام، أن يكون أكثر بلاغةً في النَّصِّ المعرَّب؛ (م).

- نفدَ صبرُه بحقٍّ، ومزمجراً راح يعدو ويعدو، داخلَ *البحر*، إلى أن اختفى، ولم يرَه أحدٌ بعد ذلك قطُّ.

- والصُّخور ما شأنها؟

- شأنها أنَّه مع كلِّ خطوةٍ خطاها الشَّيطانُ هارباً كانت تخرجُ من *البحر* صخرة. حيثما كان يضع قدماً، بغتةً، كانت تنتأ صخرة. وهي إلى اليوم ما تزال هناك. إنَّها مواطئ الشَّيطان.

- قصَّةٌ جميلة.

- أجل.

- أترى شيئاً؟

- لا.

صمتٌ.

- لكنْ؛ هل سنمكثُ النَّهارَ كلَّه هنا؟

- أجل.

صمتٌ.

- كان يروقني أكثر عندما كنتُ آتي لأحملك في القارب آناءَ المساء.

- لا تشرُدْ، يا دُوْل.

- يمكنك أن تكتب قصيدةً عنهم، أيُّها الأب بلوش.

- تقولُ إنَّ النَّوارس تصلِّي؟

- بالطَّبع. لا سيَّما عندما تكون على وشك الموت.

- وأنتَ ألا تصلِّي، يا بارتلبوم؟

يسوِّي بارتلبوم القبَّعةَ الصُّوفَ على رأسه.

- في الماضي، كنتُ أصلِّي. ثمّ أجريتُ حساباً. خلالَ ثماني سنوات، أذِنتُ لنفسي أن ألتمسَ من القدير شيئين. النَّتيجة: شقيقتي انتقلت إلى الرَّفيق الأعلى، والمرأة التي سأتزوَّجها ما يزال عليَّ أن ألتقي بها. حاليَّاً أصلِّي أقلَّ بكثيرٍ ممَّا كنتُ أفعلُ آنفاً.

- لا أعتقد أنَّ...

- الأرقام تتحدَّث بوضوحٍ، أيُّها الأب بلوش. المتبقَّى شِعرٌ.

- بالضَّبط. فقط لو أنَّنا نكون أكثرَ...

- لا تعقِّد الأمور، أيُّها الأب بلوش. المسألة بسيطة. أتؤمن حقَّاً بأنَّ الله موجود؟

- حسناً، الآن تبدو لي كلمةُ موجود مصطلحاً مُشِطَّاً بعضَ الشَّيء، ولكنَّني أعتقدُ أنَّه هناك، هوَ ذا، إنَّه هناك، على طريقته الخاصَّة.

- وما الفرق؟

- ثمّة فرقٌ، يا بارتلبوم، بالتَّأكيد ثمّة فرق. خذ على سبيل المثال حكايةَ الغرفةِ السَّابعةِ تلك... أجل، حكاية ذلك الرَّجل، في النُّزل، الذي لا يخرج أبداً من غرفته، إلى ما هنالك، أليس كذلك؟

- وإذن؟

- لا أحد رآه قطُّ. إنَّه يتناول الطَّعام، على ما يبدو. ولكنْ: من الممكن

جدّاً أن يكون مجرَّد خدعة. يمكن ألَّا يكون موجوداً. أن يكون اختلاقاً من اختلاقات ديرا. أمَّا بالنِّسبة إلينا، كيفما كان الأمر، فهو هناك. في المساء يُضاءُ المكان، في تلك الغرفة، وبين الحين والآخر، تُسمَعُ جلبةٌ، أنتَ نفسُكَ، رأيتُك، كلّما مررتَ من أمامها خفَّفتَ الوطءَ، حاولتَ أن ترى، أن تسمعَ شيئاً... في نظرنا ذلك الرَّجُل هو هناك.

- لكنْ؛ ليس صحيحاً، ثمّ إنَّ ذلك الرَّجلَ مُختلٌّ، إنَّه...

- ليس مُختلَّاً، يا بارتلبوم. ديرا تقول إنَّه سيِّدٌ كريم المحتد، سيِّدٌ من لحمٍ ودَم. تقول إنَّ لديه سرَّاً، هذا كلُّ ما هنالك، بيدَ أنَّه شخصٌ عاديٌّ للغاية.

- وأنت تصدِّق ذلك؟

- لا أعلم مَن يكون، لا أعلم إن كان موجوداً، ولكنِّي أعلمُ أنَّه هناك. في نظري إنَّه هناك. وهو رجلٌ يتملَّكه الخوف.

- الخوف؟

يهزُّ بارتلبوم برأسه.

- وممَّ؟

- هل تذهب إلى الشَّاطئ؟

- لا.

- أنتَ لا تتنزَّه، لا تكتب، لا ترسم لوحاتٍ، لا تتكلَّم، لا تطرح أسئلةً. أنتَ تنتظرُ فحسب، أليس كذلك؟

- أجل.

- ولماذا؟ لماذا لا تفعل ما ينبغي عليك فعله، وينتهي الأمر؟

يرفع آدامز ناظريه نحو تلك الطِّفلة التي تتحدَّث بصوتِ امرأةٍ، عندما تشاء، وفي تلك اللحظة شاءت.

- في ألف مكانٍ مختلفٍ من العالَم، رأيتُ أنزالاً على غِرار هذا. أو ربَّما: رأيتُ هذا النُّزلَ في ألف مكانٍ مختلفٍ من العالَم. العزلةُ نفْسُها، الألوان نفسُها، العطورُ نفسُها، والصَّمتُ نفسُه. النَّاسُ يَصِلون، والزَّمن يتوقَّف. لأحدٍ ما، ينبغي أن يبدو الأمرُ إحساساً كالإحساس بالسَّعادة، أليس كذلك؟

- لأحدٍ ما.

- لو قُيِّضَ لي أن أعود بالزَّمن إلى الوراء، لاخترتُ هذا: أن أحيا قبالةَ *البحر.*

صمتٌ.

- قبالته.

صمتٌ.

- آدامز...

صمتٌ.

- كُفَّ عن الانتظار. فليس صعباً إلى هذا الحدِّ قتلُ امرئٍ.

- لكنْ؛ في رأيك، هل سأموت، هناك؟!

- في داشنباخ؟

- عندما سيُنزلونني في *البحر*.

- لا، تخيَّلي...

- هيَّا، قلْ لي الحقيقة، أيُّها الأب بلوش، لا تمزح.

- لن تموتي، أقسم لكِ، لن تموتي.

- وكيف تعلم بذلك؟

- أعلمُ وحسب.

- أفٍّ.

- لقد حلمتُ بذلك.

- حلمتَ؟!

- أصغي إليَّ، إذنْ. في إحدى العشيَّات، ذهبتُ إلى النَّوم، اندسستُ في الفراش وفيما أنا على وشك الإغفاء، رأيتُ البابَ ينفتح، ويلجُ منه فتىً. حسبتُه نادلاً، شيئاً من هذا القبيل. لكنَّه بدلاً من ذلك دنا منِّي، وقال لي: "هل هناك شيءٌ ترغب في أن تحلم به، هذه الليلةَ، أيُّها الأب بلوش؟". هكذا. فقلتُ له: "الكونتِسَّة فيرمير وهي تستحمُّ".

- أيُّها الأب بلوش...

- لقد كانت مزحةً، لا؟ حسناً، لم يقل هو شيئاً، ابتسمَ قليلاً، وانصرف. أمَّا أنا؛ فغفَوتُ، وماذا حلُمت؟!

- الكونتِسَّة فيرمير وهي تستحمُّ.

- هوَ ذا.

- وكيف كانت؟

- آه، لا شيء، خيبة أمل...

- قبيحة؟

- زائفة هزيلة، خيبة أمل... أيّاً يكن... كلَّ عشيَّةٍ، كان يعود ذلك الفتى. كان يُدعَى ديتس. وفي كلِّ مرَّةٍ، كان يسألني إن كنتُ أرغب في الحلم بشيءٍ ما. وهكذا قلتُ له أوَّلَ البارحة: "أريد أن أحلم بإليزوين. أريد أن أحلم بها وقد أصبحت كبيرة". فإذا بي أغفو وأحلم بكِ.

- وكيف كنتُ؟

- حيَّةً.

- حيَّةً؟ وبعد ذلك؟

- حيَّةً. لا تسأليني سوى ذلك. كنتِ حيَّةً.

- حيَّةً... أنا؟

آن دوڤِريا وبارتلبوم جالسان بجوارِ بعضِهما، داخلَ قاربٍ جانحٍ.

- وأنتِ بماذا أجبتِهِ؟- يسأل بارتلبوم.

- لم أجبْهُ.

- لا؟

- لا.

- وما الذي سيحدث الآن؟

- لا أعلم. أعتقد أنَّه سيأتي.

- أيبعث هذا الغبطة في نفسِك؟

- أرغبُ فيه. ولكنْ؛ لا أعلم.

- علَّه يجيء إلى هنا، ويمضي بكِ بعيداً، إلى الأبد.

- لا تتفوَّه بحماقاتٍ، يا بارتلبوم.

- ولمَ لا؟ إنَّه يحبُّكِ، وكما قلتِ لي، أنتِ كلُّ ما يملك في هذه الحياة...

كان عشيق آن دوڤِريا قد اكتشف أخيراً المكانَ الذي نفاها إليه زوجُها. كتبَ إليها. في هذه اللحظة ربَّما يكون في رحلةٍ صوبَ ذلك *البحر* وذلك الشَّاطئ.

- لآتينَّ إليكِ، ولَأمضينَّ بكِ بعيداً، إلى الأبد.

تبتسم، آن دوڤِريا.

- قلْها لي ثانيةً، ها بارتلبوم. تماماً بتلك النَّبرة إيَّاها، أرجوك. قلْها لي من جديد.

- هناك... هي ذي هناك!

- هناك أين؟

- هناك... لا، إلى اليمين أكثر، هي ذي، هناك...

- إنيِّ أراها! إنيِّ أراها، يا لِلرَّوعة.

- ثلاثة صوارٍ!

- ثلاثة صوارٍ؟

- إنَّها سفينةٌ شراعيَّةٌ بثلاثة صوارٍ، ألا ترى؟

- ثلاثة؟

- ها بلاسُّون، لكنْ؛ منذ متى ونحن هنا؟

- منذ الأزل، سيِّدتي.

- لا، إنَّني أسألك بمنتهى الجدِّيَّة.

- منذ الأزل، سيِّدتي. بمنتهى الجدِّيَّة.

- في رأيي، إنَّه جنائنيٌّ.

- علامَ؟

- يعرف أسماء الأشجار.

- وأنتِ كيف تعرفين ذلك، يا إليزوين؟

- لا يروقني في شيء أمرُ الغرفةِ السَّابعةِ هذا.

- وبماذا تُراها تُثقِل عليك؟

- إنَّها تخيفني، رجلٌ لا يُرى.

- الأب بلوش يقول إنَّه هو مَن يتملَّكه الخوف.

- وممَّ؟

- بين الحين والآخر أتساءل ما الذي ننتظره على هذه الأرض.

صمتٌ.

- أن يفوتَ الوقتُ، سيِّدتي.

لَكان من الممكن الاستمرار على هذا المنوال إلى الأبد.

الكتاب الثاني
جوفُ البحر

بعد أربعة عشر يوماً على إبحارها من ساحل روشفور(*)، غاصت الفرقاطة أليونس(**)، التَّابعة للبحريَّة الفرنسيَّة، لعدمِ خبرةِ القبطان وعدمِ دقَّةِ الخرائط، في قرارةٍ رمليَّةٍ، قبالةَ سواحل السِّنغال. كلُّ محاولات تخليص الهيكل العائم باءت بالإخفاق. لم يبقَ شيءٌ للقيام به سوى التَّخلِّي عن السَّفينة. ولمَّا كانت زوارق النَّجاة المُتاحة غير كافيةٍ لاستيعاب كامل الطَّاقم، فقد بُنيَ، وأُنزِلَ إلى الماء طوْفٌ، بطولِ حوالي أربعين قدماً، وعرضٍ قدْرُه نصفُ ذلك. حُمِلَ إلى متنه ١٤٧ فرداً: جنودٌ، بحَّارةٌ، بضعة مسافرين، أربعة ضبَّاطٍ، طبيبٌ، ومهندسُ خرائط. كان في حسبان خطَّةِ إخلاء السَّفينة أن تقطُرَ زوارقُ النَّجاة الأربعة المتاحة الطَّوفَ إلى الشَّاطئ. بعد وقتٍ قصيرٍ من الابتعاد عن حُطامِ أليونس، وبرغم ذلك، سيطرَ الذُّعرُ والفوضى على القافلة التي كانت تحاول، بهوادةٍ، بلوغَ السَّاحل. لِخِسَّةٍ أو لِقصُورِ معرفةٍ - لا أحد قطُّ استطاع إرساءَ الحقيقة - فقدَت زوارق النَّجاةِ اتِّصالَها بالطَّوف. حبلُ القَطرِ تمزَّق. أو إنَّ أحداً قطعَه. الزَّوارق واصلت التَّقدُّمَ نحو البرِّ، والطَّوفُ تُرِكَ في عرض البحرِ ليواجه مصيرَه بنفسه. بعد أقلِّ من نصف ساعةٍ على ذلك، مسحوباً بقوَّة التَّيَّارات، كان الطَّوفُ قد تلاشى عندَ الأفق.

---

*) مدينة فرنسيَّة تقع على السَّاحل الفرنسيِّ الغربيِّ للمحيط الأطلسي؛ (م).

**) بالفرنسيَّة وتعني: التَّحالف؛ (م).

أوَّلُ الأشياء هو اسمي، سافيني.

أوَّلُ الأشياء هو اسمي، ثانيها هو نظرة
أولئك الذين تخلَّوا عنَّا - عيونُهم، في تلك اللحظة - تركوها مسمَّرةً صوبَ الطَّوف، لم يستطيعوا النَّظرَ إلى مكانٍ آخر، لكنْ لم يكن ثمّة شيءٌ، داخلَ تلك النَّظرات، كان ثمّة العدم المطلَق، لا كراهية ولا رحمة، لا ندم، لا خوف، لا شيء. يا لِعيونهم!

أوَّلُ الأشياء هو اسمي، ثانيها تلك العيون، ثالثُها
هَجْسٌ: إنَّني على وشك الموت، لا، لن أموت. إنَّني على وشك الموتِ، لا، لن أموت، إنَّني على وشكِ الموتِ، لا، لن أموت إنَّني - الماءُ بلغَ الرُّكَبَ، الطَّوفُ ينزلق تحت سطحِ *البحر*، مسحوقاً تحت ثِقْلِ فائضٍ من البشر - على وشكِ الموتِ، لا، لن أموت، إنَّني على وشكِ الموتِ، لا، لن أموت - الشَّميمُ، شميمُ خوفٍ، بحرٍ وأجساد، الخشبُ الذي يفرقعُ تحت الأقدام، الأصوات، حبالُ التَّعلُّق، ثيابي، أسلحتي، وجه الرَّجل الذي - إنَّني على وشك الموت، لا، لن أموت، إنَّني على وشك الموتِ، لا، لن أموت، إنَّني على وشك الموت - الموجُ يطوِّقنا من كلِّ الجهات، لا حاجة إلى التَّفكير، أين هي الأرض؟ مَن يحملنا، مَن يقودنا؟، الرِّيحُ، اللُجَّةُ، الصَّلواتُ التي كالعويل، صلواتُ الغضب، البحرُ الذي يزمجرُ، الخوفُ الذي

أوَّلُ الأشياء هو اسمي،
ثانيها تلك العيون، ثالثُها هَجْسٌ ورابعُها الليلُ الذي يهبطُ، غيومٌ على نورِ القمر، ظلامٌ مهولٌ، زمجراتٌ وحسب، بين صراخٍ وعويلٍ وصلواتٍ ولعنات، والبحرُ الذي يعلو ويبدأ من كلِّ صوبٍ في كسْحِ تواشجِ الأجسادِ ذاك - لا نملك إلَّا التَّشبُّث بما استطعنا إليه سبيلاً، حبلٌ، ألواحٌ خشبيَّة، ذراعُ أحدِهم، طوالَ الليل، داخلَ الماء، تحتَ الماء، ليت ثمّة نوراً، نوراً

أيّاً يكن، أبديٌّ هذا الظَّلام، ولا يُطاق العويلُ الذي يُخالُ كلَّ ثانيةٍ - لكنْ: مهلاً، أذكرُ، تحت لطمةِ موجةٍ مباغتة، كحائطِ ماءٍ، أذكرُ، مباغتاً كان الصَّمت، صمتٌ صقيعيٌّ مجمِّد، لم يدُم أكثر من هُنيهة، وأنا هناك أصرخُ، وأصرخُ، وأصرخ،

أوَّلُ الأشياء هو اسمي، ثانيها تلك العيون، ثالثُها هَجْسٌ، رابعُها الليلُ الذي يهبطُ، خامسُها الأجسادُ الممزَّقة، المحشورة بين ألواحِ الطَّوف، رجلٌ كأنَّه خرقةٌ، معشَّقٌ بوتدٍ انغرز في صدرِه، وثبَّته هناك: ليتأرجحَ مع رقصةِ *البحر*، في وضحِ النَّهار الذي كشفَ الحجابَ عن الموتى المقتَّلين من البحرِ في الظَّلام، فصَلَهم واحداً واحداً عن أعواد مشانقهم، وإلى البحرِ ردَّهم: حيثُ لُقِفوا، بحرٍ مُحيطٍ مُحيق، ولا أرضَ، لا سفينةَ عندَ الأفق، لا شيء - وفي مشهدِ الجثثِ الجيفيِّ ذاك لا شيء إلّا رجلٌ يشقُّ لنفسِه منفذاً بين الآخرين، ودون كلمةٍ ينزلق في الماء، ويشرعُ في السِّباحة، يغرُبُ، بكلِّ بساطة، وآخرون يرونه، ويحذون حذوَه، ولِلحقيقةِ بعضُهم لا يسبَحُ، يرتمي في الماء فحسب، لا يتحرَّك، يتلاشى - حتّى إنَّه لَمِن المستعذَبِ رؤيتهم - يتعانقون قبل أن يهووا في الماء - دموعٌ على وجوه رجالٍ ما كنتَ لتتوقَّع منهم ذلك - ثمّ يهوون في *البحر*، وبقوَّةٍ يتنشَّقون الماءَ الأجاجَ حتّى يبلغَ رئاتهم، ويحرقَ كلَّ شيءٍ، كلَّ شيء - لا أحد يوقفهم، لا أحد

أوَّلُ الأشياء هو اسمي، ثانيها تلك العيون، ثالثُها هَجْسٌ، رابعُها الليلُ الذي يهبطُ، خامسُها تلك الأجسادُ الممزَّقة، وسادسُها جوعٌ - جوعٌ يتعاظم في الأحشاء، وينهشُ عندَ الحلق، وينقضُّ على العيون، خمسة دِنانٍ من النَّبيذ، وجوالٌ واحدٌ من رقائق الخبز، يقول كوريار، مهندسُ الخرائط: لن ننجوَ - الرِّجالُ يرمق بعضُهم بعضاً، يترصَّدُ

بعضُهم بعضاً، إنَّها اللحظة ما يحدِّد شكلُ النِّزال، إن كان سيقع نِزالٌ، يقول لورو، ضابطٌ أوَّل(*): حصَّةٌ لكلِّ فردٍ، كأسا نبيذٍ ورُقاقةُ خبزٍ - يترصَّدُ بعضهم بعضاً، الرِّجال، لعلَّه الضِّياء أو *البحر* الذي يتهزهزُ بخمولٍ، كمثلِ هدنة، أو لعلَّها الكلمات التي يجوِّدُ لورو نُطْقَها، واقفاً على أحد الدِّنان: إنَّنا سننجو، لأجل الكراهية التي نحملها ضدَّ أولئك الذين تخلَّوا عنَّا، وسنعود لنحدِّق في عيونهم، ولن يكون في مُكْنَتِهم بعد ذلك أن يناموا، ولا أن يعيشوا، ولا أن يُفلِتوا من اللعنةِ، لعنةِ أن نكون، نحن، في عيونهم، أحياءً، وهُم، في كلِّ يومٍ يُقتَلون، إلى الأبدِ، بخطيئتهم - لعلَّه ذلك الضِّياء الأبكم، أو ذلك *البحر* الذي يتهزهز بخمولٍ، كمثلِ هدنة، لكنَّ ما يقع حقّاً هو أنَّ الرِّجال يصمتون، واليأسُ ينقلبُ عذوبةً ونظاماً وسكينة - يصطفُّون واحداً واحداً، أيديهم، أيدينا، حصَّةٌ لكلِّ فردٍ - يكاد يكون من السُّخف التَّفكير أنَّه، في قلب *البحر*، أكثر من مِائة من البشر المسحوقين، التَّائهين، المسحوقين، يقفون صفّاً واحداً، نسقاً مثاليَّاً في فوضى جوفِ(**) البحرِ التي لا وجهةَ لها، لأجل البقاء على قيد الحياة، صامتين، بصبرٍ حيوانيٍّ، ومنطقٍ حيواني

أوَّلُ الأشياء هو اسمي،
ثانيها تلك العيون، ثالثُها هَجْسٌ، رابعُها الليلُ الذي يهبطُ، خامسُها تلك الأجسادُ الممزَّقة، سادسُها جوعٌ، وسابعُها هلَعٌ، الهلَع، الذي يندلع في الليل - هو الليلُ مِن جديد - الهلَع، الوحشيَّة، الدَّم، الموت، الكراهية، هلَعٌ مُنتِنٌ. استحوذوا على دَنِّ نبيذٍ، والنَّبيذُ استحوذ عليهم. في نورِ القمر رجلٌ يهوي بضرباتِ فأسٍ قويَّة على وُصْلاتِ الطَّوف، وضابطٌ يحاول كبحَه، ينقضُّون عليه، ويُثخنونه جراحاً بطعناتِ سكاكين، يعودُ نازفاً نحونا، نسحبُ خناجرنا وبنادقنا، نورُ القمر يحتجبُ وراء الغيوم، تصعبُ الإحاطةُ

---

*) أو نائب الرُّبَّان؛ (م).

**) يستخدم الكاتب تعبير «جوف *البحر*» بمعنى عرض *البحر* وأقاصيه، لا بمعنى غورِه وأعماقه؛ (م).

بشيء، هي لحظةٌ لا تنتهي أبداً، ثمّ هي ذي موجةٌ لامرئيَّة من الأجساد والزَّمجرات ومن الأسلحة المطوَّح بها علينا، هوَ ذا اليأس الأعمى الذي يطلبُ الموتَ، حالاً ويبلغُ خُتْمَتَه، وهي ذي الكراهية التي تطلبُ، حثيثاً، غريماً لها ليُجَرَّ إلى الجحيم – وفي النُّور الذي يلوحُ ويختفي، أذكرُ تلك الأجساد وهي تندفع نحو خناجرنا وطقطقةَ أزندةِ البنادق، والدَّمَ يتفجَّرُ من الجراح، والأقدامَ تنزلقُ على الرُّؤوس المهروسةِ بين ألواحِ الطَّوف، وذلك الزَّحفَ اليائسَ بأرجلٍ مهشَّمةٍ نحوَ أحدٍ منَّا والتحامَهم، وقد باتوا عُزَّلاً الآن، بأرجله وبقاءَهم متشبِّثين، في انتظار الطَّعنةِ والنَّصلِ ليُقطَّعوا إرباً، في النِّهاية - إنَّني أذكرُ - مِيْتَتَين من مِيتاتِنا، هما حرفيّاً من صنيعِ نهشاتِ ذلك الحيوان الوحشيِّ الخارجِ من العدَمِ الليليِّ الكبير، والعشرات ماتوا على هذا المنوال، منهوشين ومُغرَقين، يُجَرُّون على امتداد الطَّوفِ محدِّقين كالمنوَّم مغنطيسيّاً في تشوُّهاتهم، مبتهلين إلى القدِّيسين، فيما أيديهم تغوص في قروحِ أيدينا علَّ هذه تقتلع أحشاءَهم - إنَّني أذكرُ – رجلاً يلقي بنفسِه عليَّ، يهصرُ رقبتي بيدَيه، وفيما هو يحاولُ خنقي لا يكفُّ هُنيهةً عن النَّحيب متوسِّلاً "الرَّحمة، الرَّحمة، الرَّحمة"، مشهدٌ عبثيٌّ سخيف، تحت يديه تقبعُ حياتي، وحياتُه قابعةٌ على رأس خنجري الذي في خاتمةِ المطاف ينغرز في إحدى خاصرتَيه، ثمّ في بطنِه، ثمّ في حلقِه، ثمّ في رأسه التي تتدحرجُ نحو الماء، ثمّ في ذلك المتبقَّى منه، والمتبقَّى عجينةُ دمٍ، مجعَّدةٌ بين ألواحِ الطَّوف، وقراقوزٌ ينغمسُ فيه خنجري مرَّةً، واثنتين وثلاثاً وأربعَاً وخمساً

أوَّلُ الأشياء هو اسمي، ثانيها تلك العيون، ثالثُها هَجْسٌ، رابعُها الليلُ الذي يهبطُ، خامسُها تلك الأجسادُ الممزَّقة، سادسُها جوعٌ، سابعُها هلَعٌ، وثامنُها أشباحُ الجنون، تزهرُ فوق ذلك الجنس من المجازر، فوق ميدان معركةٍ مُريعٍ تشطفُه الأمواج، أجسادٌ في كلِّ مكان،

أشلاءُ أجسادٍ، مُخضرَّةٌ، مُصفرَّة، دمٌ متخثِّرٌ على عيونٍ بلا حدقات، جروحٌ مشرومة الشِّفاه وشِفاهٌ ممزَّقة، كمثل جثثٍ تقيَّأها البرُّ، كزلزالٍ مفكَّكٍ من الموتى، والمحتضرين، كبلاطٍ من سكراتِ موتٍ ملتئمةٍ بالهيكل المتداعي للطَّوف، ومن فوقه الأحياء - الأحياء – يدورون بين الموتى، يختلسون منهم بؤسَ العدَم غير أنَّهم، فوق كلِّ شيءٍ، يتبخَّرون في الجنون واحداً تلوَ الآخر، وكلٌّ على طريقته، كلٌّ مع أشباحه، أشباحه التي اغتصبَها من العقلِ الجوعُ، والعطشُ، والخوفُ، واليأس. أشباح. كلُّ أولئك الذين يرون اليابسة، اليابسة! أو سفناً عندَ الأفق. يصرخون، ولا يسمعُهم أحد. ذلك الذي يكتب رسالةَ احتجاجٍ رسميَّةً إلى الأميراليَّة ليعبِّرَ عن سخطِه، ويندِّد بذلك العار، ويطلب بصورةٍ رسميَّة... كلماتٌ، صلواتٌ، رؤى، سربُ أسماكٍ طائرة، غمامةٌ تشيرُ إلى طريق الخلاص، أمَّهاتٌ، أخوةٌ، خطيباتٌ يظهرْن ليجفِّفن الجراحَ، ويقدِّمن ماءً ومُداعباتٍ، ذلك الذي يبحث في ضيقٍ عن مرآته، مرآته، مَن رأى مرآتَه؟! أعيدوا إليَّ مرآتي، المرآة، مرآتي، رجلٌ يبارِكُ المحتضرين بلعناتٍ وتفجُّعات، وآخرُ يحدِّث البحرَ، بصوتٍ هامسٍ، يحدِّثه، جالساً على حافَّة الطَّوف، يغازلُه، يمكنُ القولُ، ويصغي إلى أجوبته، البحرُ يجيبُ، يا لَها من حواريَّةٍ، آخر الحواريَّات، البعضُ يذعنُ لأجوبتِه المخاتِلة، ومُقتنعاً بها، في النِّهاية، تَراه ينزلق في الماء، ويسلِّم نفسَه للنَّجيِّ الجليل الذي يلتقمُه حاملاً إيَّاه إلى البعيدِ البعيد - فيما على متن الطَّوفِ، غدوَّاً ورواحاً، يواصلُ لِيُون الهرولة، لِيُون الفتى، لِيُون النُّوتيُّ الصَّغير، لِيُون الذي له من العمرِ اثنتا عشرة سنة، وقد نَهبَه الخبَل، وانتَهبَه الذُّعرُ، فغدوَّاً ورواحاً يهرولُ من طرفِ الطَّوفِ إلى طرفِه الآخر صارخاً دونما هداةٍ صرخةً واحدةً أمِّي أمِّي أمِّي أمِّي، لِيُون العذبُ النَّظرةِ والمخمليُّ البشرة، يهرولُ فاقداً عقلَه، طائراً في قفصٍ، إلى أن تزهقَ نفسُه، ينفجرَ قلبُه ربمَّا، أو مَن يعلم، في داخلِه، مَن يعلم ما الشَّيء الذي يطوِّح به هكذا،

على غفلةٍ، بعينَين مُحملِقتَين وانتفاضٍ في صدرِه الذي يرتجُّ، وفي النِّهاية يكبُّه على وجهه أرضاً هناك؛ حيث تلتقطه ذراعا جلبرت - جلبرت المتيَّم به - وتضُمَّانه - جلبرت المتيَّم به والذي يبكيه الآن، ويقبِّله، فاقداً كلَّ عزاء، لَهُو شيءٌ من الغريب رؤيته، هناك في الوسط، في وسطِ الجحيم، وجهُ ذلك العجوز المنحني على شفتَي ذلك الطِّفل، لَهي شيءٌ من الغريب رؤيته تلك القُبَل، أنىَّ لي أن أنساها أنا الذي رأيتُها، تلك القُبَل، أنا الذي بلا أشباحٍ، أنا مع الموتِ فوق كاهلي ودون حتّى نُعمى شبحٍ أو عذوبةِ جنون، أنا الذي انقطعتُ عن حسابِ الأيَّام، غير أنَّني أعلمُ عِلمَ اليقين أنَّ كلَّ ليلةٍ، ومرَّةً أخرى، سيخرج ذلك الحيوان، سينبغي له أن يخرجَ، حيوانُ الخوفِ الوحشيُّ ذاك، المجزرةُ الليليَّة، هذه الحرب التي نخوض، هذا الموت الذي نبذُرُه من حولنا لئلاَّ نموت، نحن الذين

أوَّلُ الأشياء هو اسمي،

ثانيها تلك العيون، ثالثُها هَجْسٌ، رابعُها الليلُ الذي يهبطُ، خامسُها تلك الأجسادُ الممزَّقة، سادسُها جوعٌ، سابعُها هلَعٌ، ثامنُها أشباحُ الجنون، وتاسعُها لحمٌ زائغٌ، لحمٌ، لحمٌ ليجفَّ على حبالِ الأشرعة، لحمٌ ينزفُ، لحمُ إنسانٍ، في يديَّ، تحت أسناني، لحمُ بشرٍ رأيتُهم، بشرٍ كانوا هنا، لحم بشرٍ أحياء، ومن ثمّ أموات، مقتَّلين، مقطَّعين، مختبَلين، لحمُ أذرعٍ وأرجلٍ رأَيتُها تتعارك، لحمٌ منسلخٌ عن العِظام، لحمٌ كان يملك اسماً، والآن ألتهمُه مجنوناً من الجوع، أيَّامٌ من مضغِ جلودِ أحزمتنا، ومِزَقاً من القماش، حتّى لم يعد ثمّة شيءٌ، لا شيء، على هذا الطَّوف الوحشيِّ، لا شيء، ماءُ بحرٍ وبَولٌ مبرَّدٌ في أكوابٍ من الصَّفيح، رقائقُ قصدير تحت اللسانِ لئلاَّ نُجَنَّ عطشاً، وبرازٌ لا نستطيع ازدرادَه، وحبالٌ مغمَّسةٌ بالدَّم والملحِ الغذاءِ الأوحدِ الذي له نكهة الحياة، أيَّامٌ قبلَ أن ينحني أحدُنا، وقد جُنَّ جوعاً، على جثَّةِ صاحبِه وباكياً ومُهمهماً ومصلِّياً ينتزعُ من ظهرِه

اللحمَ، وكمثل وحشٍ يسحبُه إلى ركنٍ منزوٍ، ويشرعُ في امتصاصه، ثمّ في نهشِه، ثمّ في تقيُّؤه، ثمّ مرَّةً أخرى في نهشِه، منتصراً على الاشمئزاز كيما ينتزعَ من الموتِ أقصرَ الطُّرق إلى الحياة، ممرَّاً وحشيَّاً، ها نحن ندخله واحداً تِلْوَ الآخر، كلُّنا، سواسيةً الآن في ذلك التَّحوُّل إلى وحيشٍ وبناتِ آوى، خُرْساً في النِّهاية، وكلٌّ مع شريحته من اللحم، المذاق الحمضيُّ بين الأسنان، الأيدي الملطَّخة بالدِّماء، وفي الأحشاء ذلك الألمُ النَّهَّاشُ حدَّ الهُلاس، رائحةُ الموت، النَّتنُ، الجلدُ، اللحمُ الذي يتفسَّخ، اللحمُ الذي يتنسَّل، والذي يرشحُ ماءً ومَصْلاً، تلك الأجساد المفتوحة، مثلَ صرخات، مثلَ موائدَ مُعدَّةٍ للحيوانات التي صرناها، إنَّها نهاية كلِّ شيء، استسلامٌ مُريعٌ، هزيمةٌ فاحشة، خيبةٌ نكراء، هلاكٌ باغٍ، وحينئذٍ فقط أرفعُ أنا - أنا - أرفعُ ناظريَّ - أرفعُ أنا ناظريَّ - ناظريَّ - حينئذٍ فقط أرفعُ ناظريَّ، وأراه - أنا - أراه: *البحر*. لأوَّل مرَّةٍ، بعد أيَّامٍ وأيَّام، أراه بحقٍّ. أسمع صوتَه المهول، وأشمُّ رائحته القويَّة السَّطوة، وأحسُّ، في داخلِه، رقصتَه التي لا لاجمَ لها، موجتَه اللامتناهية. كلُّ شيءٍ يمَّحي، ولا يبقى إلَّاه، قُدَّامَ وجهي، ومن فوقي. كَشْفٌ. تتبخَّرُ غشاوةُ الألمِ والخوفِ التي انتهَبَتْ روحي، تتحلَّلُ شِباكُ الشَّنارِ والوحشيَّةِ، والهَول الذي استلبَ عينيَّ، تذوبُ ظلالُ الموت التي التهمتْ عقلي، وفي الضِّياء المباغتِ لِسَطْعٍ لا يمكن التَّنبُّؤ به، ها إنِّي أخيراً أرى، وأسمعُ، وأعي. *البحر*. كان يبدو مثلَ متفرِّجٍ، إلى هذا الحدِّ صموتٍ، إلى هذا الحدِّ متواطئ. كان يبدو إطاراً، مشهداً، خلفيَّة. الآن أنظر إليه وأعي: البحرُ كان كلَّ شيء. لقد كان، منذ أوَّل لحظةٍ، كلَّ شيء. أراه يتراقص من حولي، باذخاً في قلب ضياءٍ جليديٍّ، وحشاً لانهائيَّاً مُذهلاً. كان موجوداً في الأيدي التي قتلَتْ، في الموتى الذين ماتوا، كان موجوداً، في الجوعِ وفي العطش، في سكراتِ الموتِ كان موجوداً، في الخِسَّةِ، وفي الجنون، كان هو الكراهية واليأس،

كان الرَّحمة والتَّخلِّي، هو هذا الدَّمُ وهذا اللحمُ، هو هذا الهلَعُ وهذا البهاء. ليس ثمّة طوفٌ، ليس ثمّة بشرٌ، ليس ثمّة كلمات، ولا مشاعر، ولا حركات، لا شيء. ليس ثمّة خَطَأَةٌ ولا أبرياء، لا مُدانون ولا مُخلَّصون. ثمّة البحرُ وحسب. كلُّ شيءٍ تحوَّلَ بحراً. نحن المجفوُّون من الأرضِ صرنا جوفَ البحرِ، جوفُ البحرِ هو نحن، وفينا يتنفَّس ويحيا. أراه يتراقص في طيلسانه البرَّاق، أرى ذلك في غبطة عيونه اللامرئيَّة، فأدرك في النِّهاية أنَّ هذه ليست هزيمة أيٍّ من البشر، بل هو انتصارُ *البحر* فحسب، كلُّ هذا، انتصارُه ومجدُه، وإذَنْ، فليكن إذَنْ **هوشعنا**(*)، **هوشعنا**، **هوشعنا** له هو، *البحر* المحيط، القويُّ فوق كلِّ ذي قوَّة والبهيُّ فوق كلِّ ذي بهاء، **هوشعنا والمجدُ له هو**، سيِّداً وخادماً، ضحيَّةً وجلَّاداً، **هوشعنا**، الأرضُ تسجدُ لمروره، وتلمسُ بشفاهها المعطَّرة أذيالَ طيلسانه هو، **قدُّوسٌ، قدُّوسٌ، قدُّوس**، رحمٌ لكلِّ مولودٍ جديدٍ وجوفٌ لكلِّ مَيْتٍ، **هوشعنا والمجدُ له هو**، مثوى كلِّ مصيرٍ والقلب الذي يتنفَّس، الابتداءُ والمنتهَى، الأفقُ والنَّبعُ، سيِّدُ العدَم، وأُسْطُونُ كلِّ شيء، **هوشعنا والمجدُ له هو**، سيِّدُ الوقتِ ومَولى الليل، الوحيدُ الأوحد، **هوشعنا** لأنَّ الأفقَ أفقُه، ومدوِّخٌ رحمُه، مدوِّخٌ وعميقٌ ولا يُسبَرُ غورُه، **والمجدُ، المجدُ، المجدُ** له في أعالي السَّماوات لأنَّه ما مِن سماءٍ إلَّا وفيه تتمرأى وتمَّحي، وما مِن أرضٍ إلَّا وله تمتثِل، هو الذي لا يُقهَر، هو بعلُ القمرِ الأثيرُ والأبُ الغيورُ لبهاءاتِ المدِّ والجزر، له ينحني النَّاسُ أجمعين، ويرفعون ترنيمة **هوشعنا، والمجد له في الأعالي** ذلك أنَّه في داخلهم يقبعُ، وفي داخلهم ينمو، وهم فيه يحيون ويموتون، وهو لهمُ السِّرُّ والغايةُ والحقيقةُ والإدانة والخلاصُ والطَّريقُ الأوحدُ إلى الأبديَّة، هكذا هو، وهكذا سيبقى، حتّى نهاية الأيَّام، والتي ستكون نهاية *البحر*، إن كان للبحر نهاية، **هو، القدُّوسُ، الواحدُ**

---

*) صيحة تهليلٍ وتمجيد؛ (م).

الأحد، البحرُ المحيط، له فلتكنْ ترانيم **هوشعنا والمجد** من قبلُ وحتَّى نهاية الأزمان. آمين.

آمين.

آمين.

آمين.

آمين.

آمين.

آمين.

آمين.

آمين.

آمين.

آمين.

أوَّلُ

أوَّلُ الأشياء هو اسمي،

أوَّلُ الأشياء هو اسمي، ثانيها تلك العيون،

أوَّلُ

الأشياء هو اسمي، ثانيها تلك العيون، ثالثُها هَجْسٌ، رابعُها الليلُ الذي يهبطُ،

أوَّلُ الأشياء هو اسمي، ثانيها تلك العيون، ثالثُها هَجْسٌ، رابعُها الليلُ

الذي يهبطُ، خامسُها تلك الأجساد الممزَّقة، سادسُها جوعٌ،

أوَّلُ الأشياء هو
اسمي، ثانيها تلك العيون، ثالثُها هَجْسٌ، رابعُها الليلُ الذي يهبطُ، خامسُها تلك الأجساد الممزَّقة، سادسُها جوعٌ، سابعُها هلَعٌ، ثامنُها أشباحُ الجنون،

أوَّلُ الأشياء هو اسمي، ثانيها تلك العيون، ثالثُها هَجْسٌ، رابعُها الليلُ الذي يهبطُ، خامسُها تلك الأجساد الممزَّقة، سادسُها جوعٌ، سابعُها هلَعٌ، ثامنُها أشباحُ الجنون، تاسعُها لحمٌ، وعاشرُها رجلٌ يحدِّق فيَّ ولا يقتلني. يُدعَى توماس. من بينهم جميعاً كان هو الأقوى. لأنَّه داهيةً كان. لم نتمكَّن من قتلِه. حاولَ ذلك لورو أوَّلَ ليلة. وحاول ذلك كوريار. لكنَّه يملك سبعَ أرواحٍ ذلك الرَّجل. كلُّهم سقطوا قتلى مِن حوله، أصحابُه. على الطَّوف بقينا خمسة عشر. وأحدُنا كان هو. مكث طويلاً في ركنٍ قصيٍّ عنَّا. ثمّ بدأ يتزحَّف، رويداً رويداً، ويدنو منَّا. الإتيان بأيِّ حركةٍ هو محاولةٌ مستحيلة، أعلمُ ذلك علمَ اليقين أنا اللابث بلا حراكٍ هنا، منذ الليلة الأخيرة، وهنا قرَّرتُ أن أموت. النُّطقُ بأيِّ كلمةٍ هو محاولةٌ شرسة، والإتيان بأيِّ حركةٍ جهدٌ لا طائل منه. ولكنَّه مع ذلك يواصلُ الدُّنوَّ. لديه سكِّينٌ في حزامه. وأنا هو مطلبُه. أعرف ذلك.

مَن يدري كم من الوقتِ مضى. لم
يعد ثمّة نهارٌ، لم يعد ثمّة ليل، كلُّ شيءٍ صمتٌ هامدٌ. نحن مقبرةٌ مجرورةٌ مع التَّيَّار بلا هدى. فتحتُ عينيَّ، فإذا به هنا. لا أعلم إن كان كابوساً ما رأيتُ أم حقيقةً. لعلَّه جنونٌ فحسب، جنونٌ أقبلَ أخيراً؛ ليأخذني. ولكنَّه إن كان جنوناً، فهو جنونٌ وبيلٌ، وليس من العذوبة في شيء. أريده

أن يفعلَ شيئاً، ذلك الرَّجل. غير أنَّه يواصلُ التَّحديق فيَّ وكفى. خطوةٌ واحدةٌ إلى الأمام، ويكون في وسعه الانقضاضُ عليَّ. لم أعد أملك سلاحاً. هو يملك سكِّيناً. لم أعد أملك قوايَ، لا شيء. هو يملك في عينيه هدوءَ وقوَّةَ حيوانٍ في مصيدة. لَهُوَ أمرٌ مذهلٌ أنَّه ما يزال قادراً بعدُ على الكراهية، في هذا الحبسِ المنتنِ المجرورِ مع التَّيَّار بلا هدىً؛ حيث لا شيء فيه الآن إلَّا الموت. لَهُوَ أمرٌ مذهلٌ أنَّه ما يزال قادراً على التَّذكُّر. فقط لو أنَّني أتمكَّن من الكلام، فقط لو أنَّ فيَّ بقيَّةً مِن رَمَق، لقلتُ له إنِّي كنتُ مُرغماً على فعلِ ذلك، وإنَّه ليس ثمّة رحمة، وليس ثمّة خطيئة في هذا الجحيم وإنَّه لا وجود لي ولا وجود له، بل ثمّة *البحر* فحسب، البحرُ المحيط. لقلتُ له ألَّا ينظر إليَّ أكثر، وأن يقتلني. رجاءً. لكنَّني لا أتمكَّن من الكلام. وهو لا يتزحزح من هناك، ولا يزحزح عينيه عن عينيَّ. ولا يقتلني. أمَا مِن نهايةٍ أبداً، لكلِّ هذا؟

ثمّة صمتٌ مَهولٌ،

على الطَّوفِ، وفي كلِّ مكان. لم يعد أحدٌ يئنُّ. الموتى موتى، والأحياء ينتظرون وحسب. لا صلوات، لا عويل، لا شيء. البحرُ يتراقص، لكنْ: بهوادة، لكأنَّها فقرة قفلِ الأغنية، تُغنَّى بصوتٍ خفيض. ما عدتُ أشعر بجوعٍ ولا بعطشٍ ولا بألَم. مجرَّدُ وهنٍ هائلٍ فحسب. أفتحُ عينيَّ. ذلك الرَّجل ما يزال هناك. أغمضهما. اقتلني، يا توماس، وإلَّا فدعني أمتْ في سلام. لقد انتقمتَ الآن. اغربْ. حوِّل عينيكَ نحو *البحر*. أنا لم أعدْ شيئاً. تلك الرُّوح لم تعد روحي، تلك الحياة لم تعد حياتي، فلا تسلبني، بهاتين العينين، الموتَ.

البحرُ يتراقص، لكنْ: بهوادة.

لا صلوات، لا أنين، لا شيء.

البحرُ يتراقص، لكنْ؛ بهوادة.

هل سيراني أموت؟

اسمي توماس. وهذه قصَّةٌ من قَصَصِ العار. أكتبها في ذهني، الآنَ، بالقوى التي بقيت لي، وبالعينَين المسمَّرتين على ذلك الرَّجل الذي لن يحظى أبداً بمغفرتي. الموتُ، سيقرؤها.

أليونس كانت فرقاطةً قويَّةً وهائلة. ما كان للبحر أن يقهرها أبداً. يلزمنا ثلاثة آلاف شجرة بلُّوطٍ؛ لنبني سفينةً كهذه. غابةٌ عائمة. ففقدانها لم يكن إلَّا ثمرة حماقة الرِّجال. كان القبطان شوماريه يراجع الخرائط، ويقيس عمق قاعِ *البحر*. لكنَّه لم يعرف قراءة *البحر*. لم يعرف قراءة ألوانه. انتهتْ أليونس في حوض جزيرة أرغين(*) دون أن يتمكَّن أحدٌ من إيقافها. حادثة غرقٍ غريبة: سُمِعَ كمثل صوتِ أنينٍ أجوفَ يصعدُ من أحشاء الهيكل، ثمّ إذا بالسَّفينة تتسمَّر، مائلةً برفقٍ على أحد جانبيها. ساكنةً. إلى الأبد. لقد شهدْتُ سفناً مُذهلةً تصارعُ عواصفَ وحشيَّة، وشهدْتُ بعضها يستسلمُ ويتوارى داخلَ موجٍ شاهقٍ كالقلاع. كان الأمر شبيهاً بنِزال. يا لِروعته! ولكنَّ أليونس، هذه، لم تستطع القتال. نهايتها كانت صامتة. كان ثمّة بحرٌ شاسعٌ، يكاد يكون لصفائه رقاقةَ صفيحٍ، مُحيقٌ بنا من كلِّ ناح. غريمُها كان قابعاً في داخلها، لا أمامَها. وكلُّ جبروتها لم يكن شيئاً، مع غريمٍ مِن قبيلِ هذا. لقد رأيتُ حيواتٍ جمَّةً تغرق بتلك الطَّريقة السَّخيفة. أمَّا سفناً؛ فلا.

بدأ هيكل السَّفينة يُطقطِق. قرَّروا ترك أليونس تواجه مصيرَها بنفسِها،

---

*) جزيرة في المحيط الأطلسي تابعة لموريتانيا؛ (م).

وبنوا ذلك الطَّوف. كان يفوح برائحة الموت قبل حتّى أن ينزلَ في الماء. الرِّجال اشتمُّوا ذلك، واحتشدوا حول زوارق النَّجاة، هرباً من تلك المصيدة. لم يكن لهم من محيدٍ عن أن يصوِّبوا بنادقهم عليهم ليرغموهم على الصُّعود. القبطان وعدَ وأقسمَ أنَّهم لن يتخلَّوا عنهم، وأنَّ زوارق النَّجاة ستقطرُ الطَّوفَ، ولا مخاطرة في ذلك. انتهى بهم الأمرُ، مكوَّمين كالحيوانات، فوق تلك العوَّامة التي بلا حِتارٍ، ولا صالبٍ، ولا دَفَّة. وكنتُ أنا واحداً منهم. كانوا جنوداً وبحَّارةً وبضعة مسافرين. وفوق ذلك، أربعة ضبَّاط، خرائطيٌّ، وطبيبٌ يُدعَى سافيني: وُضِعوا في وسط الطَّوفِ؛ حيث كانت قد وُضِعتْ المؤَن، ذلك النَّزر اليسير الذي لم يذهب أدراجَ البحرِ خلال هَرْجِ التَّفريغِ ومَرْجِه. كانوا وُقوفاً على صندوقٍ كبيرٍ: من حولهم وقفنا نحن جميعاً، في ماءٍ بلغَ الرُّكَبَ، ذلك أنَّ الطَّوف كان يغرق تحت وطأة ثِقْلنا. كان عليَّ أن أفهم كلَّ شيءٍ منذ تلك اللحظة.

من تلك اللحظات، بقيت لي صورةٌ واحدة. شمالتز. شمالتز الحاكم، ذلك الذي كان من المفترض أن يستولي، نيابةً عن الملِك، على المستعمرات الجديدة. أنزلوه من جهة متراس السَّفينة الأيمن متربِّعاً على أريكته. الأريكةُ، من قطيفةٍ وذهب، وهو متربِّعٌ عليها، جامدَ الشُّعور. أنزلوهما إلى الأسفل، كما لو كانا تمثالاً واحداً. نحن، على ذلك الطَّوف، كنَّا موثَقين ما نزال إلى أليونس، غير أنَّنا بدأنا نصارعُ البحرَ والخوف. أمَّا هو؛ ففي اللحظةِ إيَّاها كان يتدلَّى، معلَّقاً في الفراغ، نحو زورقِه، ساروفيمیَّاً كتلك الملائكة التي تتدلَّى من الجسر السَّقفيِّ لمسارح المدينة. كان يتأرجح، هو وأريكتُه، كرقَّاص ساعة. وكنتُ أنا أفكِّر: إنَّه يتأرجح كالمشنوق، في نَسَمِ المساء.

لا أستطيع تبيُّنَ اللحظةِ الدَّقيقة التي تخلَّوا فيها عنَّا. كنتُ أصارعُ لأبقى

واقفاً على قدميَّ، ولأستبقي تيريزا قريبةً منِّي. ولكنَّني سمعتُ صيحاتٍ، ثمّ دويَّ طلقاتٍ ناريَّة. رفعتُ ناظريَّ. وفوق عشرات الرؤوس التي كانت تتموَّج، وعشرات الأيدي التي كانت تقطع عنَّا الهواء، رأيتُ البحرَ، والزَّوارق البعيدة، والعدمَ بيننا وبينها. كنتُ أنظر مرتاباً. كنتُ أعلم أنَّهم لن يعودوا. كنَّا قد تُركنا بين يدَي الصُّدفة. وحده الحظُّ كان في مقدوره أن يُنقذنا. غير أنَّ المغلوبين، لا حظَّ لهم أبداً.

تيريزا كانت في مقتبل العمر. لا أعرف حقَّ المعرفة كم كان لها من العمر. ولكنَّها كانت تبدو في مقتبل العمر. عندما كنتُ في روشفور أعملُ في الميناء، كانت تمرُّ بي مع سلالِ السَّمَك، وتنظر إليَّ. بقيتْ تنظر إليَّ إلى أن كلِفتُ بها حبَّاً. كانت كلَّ ما أملك، هناك. حياتي، ما كانت لتساوي شيئاً، من دونها. عندما انخرطتُ في الحملةِ المتَّجهةِ نحو المستعمرات الجديدة، نجحتُ في تجنيدها كبائعة مأكولاتٍ في الثكنات. هكذا رحلنا، راكبَينِ البحرَ معاً على متن أليونس. بدا الأمرُ مجرَّدَ لَهْوٍ. لدى التَّفكير جيِّداً، في تلك الأيَّام الأولى، بدا الأمر مجرَّدَ لَهْوٍ. إن كنتُ أعلمُ معنى أن نكون سعداء، فذلك كنَّاه في تلك الليالي. عندما انتهى بي المطاف بين أولئك الذين كان عليهم أن يصعدوا الطَّوفَ، أرادت تيريزا المجيء معي. كان ممكناً لها أن تصعدَ على زورق نجاة، ولكنَّها أرادت المجيء معي. قلتُ لها ألَّا تقترف أفعالاً مجنونة، وإنَّنا سنلتقي مجدَّداً على اليابسة، وإنَّه ينبغي عليها ألَّا تخشى شيئاً. غير أنَّها لم تشأ الإصغاء لي. كان ثمّة رجالٌ ضِخامٌ وأقوياء كالصُّخور يئنُّون ويستجدون مكاناً على تلك الزَّوارق الملعونة، قافزين من الطَّوف، مجازفين بحياتهم بغيةَ الفرار من هناك. أمَّا هي؛ فصعدت إليه، إلى الطَّوف، دون أن تتفوَّه بكلمة، مُضمِرةً كلَّ الخوف الذي كان يعتريها. النِّساء يفعلن، أحياناً، أموراً لا يمكن إلَّا أن تُجمِّدَ الدَّمِ في عروقنا. يمكن أن تُمضي حياةً كاملةً وأنت تحاول: لكنْ؛

لن يكون في مقدورك أن تمتلك تلك الرِّقَّة التي يمتلكنها من وقتٍ إلى آخر. إنَّهنَّ رقيقاتٌ مِن داخل. مِن داخل.

أوَّل الموتى ماتوا في الليل، مسحوبين إلى *البحر* بقوَّة الموج الذي راحَ يكنسُ الطَّوفَ. في الظُّلمات، سُمِعتْ صرخاتهم وهي تبتعدُ رويداً رويداً. في الفجر، كان عشرة رجالٍ تقريباً قد فُقِدوا. البعض كان يلقى حتفه عالقاً بين ألواحِ الطَّوف، موطوءاً بأقدام الآخرين. الضُّبَّاط الأربعة، مع كوريار، الخرائطيِّ، وسافيني، الطَّبيب، ملكوا زمامَ الأمرِ كلِّه. كان معهم أسلحة. وكانوا يتحكَّمون بالمؤَن. الرِّجال اطمأنُّوا إليهم. لورو، أحدُ الضُّبَّاط، ألقى كلمةً طيِّبة، رفعَ شراعاً، وقال إنَّه سيدفع بنا إلى اليابسة، وهناك سنطارد أولئك الذين غدروا بنا وتخلَّوا عنَّا، ولن يوقفنا شيءٌ حتّى يذوقوا انتقامنا. هذا بالضَّبط ما قاله: حتّى يذوقوا انتقامنا. حتّى إنَّه لم يكن يبدو ضابطاً. بدا واحداً منَّا. الرِّجال تحمَّسوا لتلك الكلمات. ظنُّوا جميعاً أنَّ الأمر سينتهي على ذلك الغرار. يلزَمُ فقط أن نصمدَ، وألَّا يتملَّكنا الخوف. كان *البحر* قد هدأ. ريحٌ واهنة كانت تنفخ الحظَّ في شراعنا. كلُّ واحدٍ منَّا نال حصَّته من المأكل والمشرب. تيريزا قالت لي: سننجو. وقلتُ: بلى.

كان الوقتُ غروباً عندما دفع الضُّبَّاطُ من فوق الصُّندوق، دون أن يتفوَّهوا بكلمة، واحداً من دِنان النَّبيذ الثَّلاثة، تاركين له أن ينزلق؛ ليستقرَّ بيننا. لم يحرِّكوا ساكناً عندما انهال البعضُ عليه، وفتحوه، وراحوا يشربون. بقيَّة الرِّجال اندفعوا نحو الدَّنِّ، وقعوا في هرْجٍ ومَرْج، كلُّهم يريدُ ذلك الخمرَ، وكنتُ غيرَ مُدرِكٍ آنذاك. بقيتُ ساكناً، مُستبقياً تيريزا قريبةً منِّي. كان ثمّة شيءٌ غريبٌ، في كلِّ ذلك. ثمّ علتْ أصوات زمجراتٍ وضرباتِ فأسٍ كان يحاول بها أحدُهم قطعَ الوُصلاتِ التي توحِّدُ أجزاءَ الطَّوف. بدا الأمرُ كمثل إشارة. شجارٌ وحشيٌّ اندلَعَ. كان الظَّلام دامساً، لِماماً فقط كان

القمرُ يبزغ من وراء الغيم. سمعتُ البنادق تُطلق نيرانها، وكمثل أشباحٍ، تحت انهيالات النُّور المباغتة، رأيتُ رجالاً ينقضُّ بعضهم على بعضٍ، وجثثاً، وخناجرَ تضربُ بصورةٍ عمياء. زمجراتٌ، زمجراتٌ هائجةٌ، وأنين. لم يكن في حوزتي سوى سكِّين: السِّكِّين نفسها التي سأغرزها الآن في قلب هذا الرَّجل الذي لم تعد به قوَّةٌ للإفلات. أحكمتُ قبضتي عليه، لكنَّني لم أكن أعرف مَن هو الغريم، لم أرغب في القتل، كنتُ غيرَ مدركٍ آنذاك. ثمّ خرجَ القمر، مرَّةً أخرى أيضاً، فرأيت: رجلاً أعزلَ يُطبِقُ على سافيني، الطَّبيب، ويصيح الرَّحمة، الرَّحمة، الرَّحمة، ولم يتوقَّف عن الصِّياح عندما اخترقت طعنة الخنجر الأولى بطنَه، ثمّ الثَّانية، فالثَّالثة... رأيتُه ينكبُّ على وجهه أرضاً. رأيت وجهَ سافيني. وفهمْتُ. فهمتُ مَن كان الغريمَ. وأنَّ الغريمَ انتصر.

عندما عاد الضِّياء، في ذلك الفجر الفاحش، كان ثمّة على الطَّوف عشرات الجثث، مشوَّهةً على نحوٍ مريع، ورجالٌ في النَّزع الأخير مبعثرون هنا وهناك. حولَ الصُّندوق كان ثمّة ثلاثون رجلاً على وجه التَّقريب مع أسلحتهم يحرسون المؤَن. في عيون الضُّبَّاط كان يتلألأ شيءٌ من اليقين المستبشِر. كانوا يجوبون الطَّوفَ، بخناجرَ مسلولة، مهدِّئين من روعِ الأحياء، ومُلْقِين إلى الماء مَن كان في النَّزع الأخير. لم يجرؤ أحدٌ على قولِ كلمة. الهلعُ والذُّهولُ من ليلة الكراهية تلك أخرَسا وشلَّا الجميع. لم يكن أحدٌ قد فهم بعدُ، بحقٍّ، ما الذي حصل. كنتُ أنظر إلى كلِّ ذلك، وأفكِّر: إذا استمرَّ الأمرُ على ذلك المنوال، فلن يكون لدينا أيُّ أمل. الضَّابط الأكبر سنَّاً كان يُدعى دوبونت. مرَّ على مقربةٍ منِّي، في بذلته البيضاء الملطَّخة بالدِّماء، هاذياً بكلماتٍ عن واجبات الجنود، ولا أعلم عمَّاذا. كان معه مسدَّسٌ، في يده، وخنجرٌ في غمدِه. أدرتُ كتفيَّ، هُنيهَةً. عرفتُ أنَّه لن يمنحني احتمالاً آخر. دون أدنى وقتٍ للصُّراخ، وجدَ نفسَه مثبَّتاً في مكانه

وسكِّينٌ على حلقه. من فوق الصُّندوق، سدَّد الرِّجال، على نحوٍ غريزيٍّ، بنادقهم نحونا. كانوا لِيطلقوا النَّار أيضاً، لولا أنَّ سافيني أوقفهم بصيحة. وإذَّاك، في قلب الصَّمت، كنتُ أنا مَن تكلَّم، ضاغطاً السِّكِّين على حلقِ دوبونت. وقلتُ: إنَّهم يقتلوننا، واحداً تِلْوَ الآخر. ولن ينتهوا حتّى يأتي وقتٌ لا يبقى فيه على الطَّوف سواهم. هذه الليلة جعلونا نثمل. في الليلة القادمة لن تكون بهم حاجةٌ إلى ذريعةٍ ومَدَد. في حوزتهم أسلحة، ونحن لم نعد كثرة. في الظَّلام، سيفعلون ما يحلو لهم. صدِّقوا أو لا تصدِّقوا، ولكنْ؛ هذه هي الحال. ليس ثمّة مؤَنٌ تكفي الجميع، وهم يدركون ذلك. لن يتركوا على قيد الحياة رجلاً واحداً أكثر ممَّا يحتاجون. صدِّقوا أو لا تصدِّقوا، ولكنْ؛ هذه هي الحال.

الرِّجال من حولي لبثوا كالمبهوتين. الجوع، العطش، معركة الليل، ذلك *البحر* الذي لا ينقطعُ هنيهةً عن الرَّقص... حاولوا إعمال الفكر، أرادوا استنباطَ شيء. من الصَّعب بمكانٍ أن نتصوَّر، ونحن تائهين، هناك، نصارعُ الموتَ، أنَّه علينا اكتشاف غريمٍ آخر، أشدَّ مكراً بعدُ: في هيئةِ بشرٍ مثلك. بشرٍ ضدِّك. كان ثمّة شيءٌ عبثيٌّ، في كلِّ ذلك. ومع ذلك، كان ذلك الشَّيء حقيقيَّاً. واحداً تِلْوَ الآخر، تحلَّقوا من حولي. كان سافيني يصيح آمراً ومُنذِراً. لكنَّ أحداً لم يُنصت له. تلك الحرب، لحماقتها، ما إن أوشكت على البدء، فوق ذلك الطَّوف، حتّى انتهت في *البحر*. سلَّمناهم دوبونت، الضَّابط، حيَّاً، مقابلَ قليلٍ من المؤَن والأسلحة. تجمَّعنا في ركنٍ من الطَّوف. وترقَّبنا مقدَمَ الليل. استبقيتُ تيريزا بالقرب منِّي. كانت ما تفتأ تقول لي: لستُ خائفة. لستُ خائفة. لستُ خائفة.

تلك الليلة، والليالي التي تلتْها، لا أرغب في استذكارِها. مذبحةٌ واعيةٌ ومُغرقةٌ في التَّفاصيل. كلّما مرَّ الوقت أكثر، صار لِزاماً أكثر، لكي ننجو، أن

يقلَّ عددنا. وأولئك، مِن منطلقٍ علميٍّ، كانوا يقتلون. كان ثمّة ما فتنَني في ذلك الصَّفاء الذِّهنيِّ النَّفعيِّ، في ذلك الدَّهاء الفاقد الرَّحمة. كان يُعوزنا عقلٌ خارجٌ عن المألوف لِكَيلا نفقدَ، في خضمِّ ذلك اليأس، الخيطَ المنطقيَّ لتلك المهلَكة. في عينَي ذلك الرَّجل، اللتين تنظرَان إليَّ الآن، كما لو كنتُ حلماً، قرأتُ، ألفَ مرَّةٍ، ببغضٍ وافتتان، إشاراتِ نبوغٍ مرعب.

حاولنا الدِّفاع عن أنفسنا. لكنَّ ذلك كان مستحيلاً. الضُّعفاء ليس في مقدورهم إلَّا الهرب. ولا يمكن الهربُ من فوق طَوفٍ تائهٍ في عرض *البحر*. في النَّهار كنَّا نصارع الجوعَ، واليأسَ، والجنون. ثمّ يهبط الليل، وتندلع مجدَّداً تلك الحرب التي تزداد مع الوقتِ وهناً، وكَلَالةً، ترسمُها حركاتٌ تزداد مع الوقتِ فتوراً، ويقترفها محتضرون، وضوارٍ في النَّزع الأخير. في الفجر، كان الموتى الجدد يُغَذُّون أملَ الأحياء، وتصميمهم المريع على النَّجاة. لا أعلم كم دامَ كلُّ هذا. لكنْ؛ كان لا بدَّ له أن ينتهي، عاجلاً أو آجلاً، بطريقةٍ ما. ولقد انتهى. نفدَ الماءُ، والنَّبيذُ، وذلك النَّزرُ اليسيرُ من الطَّعام. ما مِن سفينةٍ أقبلت؛ لتنقذنا. لم يعد ثمّة وقتٌ لإجراء أيِّ حساب. لم يعد ثمّة شيءٌ يستحقُّ القتلَ لأجله. شاهدتُ ضابطين يرميان أسلحتهما في الماء، ويغتسلان لساعاتٍ، وبصورةٍ جنونيَّة، في مياه *البحر*. أرادا الموتَ نقيَّين. انظروا ماذا بقي من طموحِهِم ومن دهائهم. كلُّ شيءٍ باطلٌ. تلك المجزرة، خزيُهُم، وغضبُنا. كلُّ شيءٍ كاملُ البطلان. ليس ثمّة دهاءٌ، وليس ثمّة بسالةٌ قادران على تغيير القدَر. أذكرُ أنَّني تأمَّلتُ وجهَ سافيني. ورأيتُ، في النِّهاية، وجهَ رجلٍ منكسر. الآن أعلم أنَّه حتّى وهي تترنَّح فوق الموت، تبقى وجوه الرِّجال محضَ أكاذيب.

تلك الليلة، فتحتُ عينيَّ، مُستفيقاً مِن وقعِ جلبة، وحدَسْتُ في نورِ القمرِ الخافتِ الصُّورةَ الظِّلِّيَّةَ لرجلٍ، واقفٍ أمامي. على نحوٍ غريزيٍّ قبضت

على سكِّيني، وصوَّبتها نحوه. توقَّف الرَّجل. لم أتيقَّن إن كان حلماً، أم كابوساً، أم ماذا. كان عليَّ أن أنجح في عدمِ إغماض عينيَّ. لبثتُ هناك بلا حراك. لثوانٍ، لدقائق، لستُ أعلم. ثمّ التفتَ الرَّجل. فرأيتُ شيئين. الوجه، وكان وجهَ سافيني، وخنجراً يشقُّ الهواءَ، ويهوي عليَّ. استغرق الأمرُ لحظةً واحدة. لم أتيقَّن إن كان حلماً، أم كابوساً، أم ماذا. لم أشعر بألَمٍ، لم أشعر بشيء. لم تكن ثمّة دماءٌ عليَّ. الرَّجلُ تلاشى. وأنا لبثتُ بلا حراك. بعد بضع لحظاتٍ فقط التفتُّ ورأيتُ: هناك كانت تيريزا، ممدَّدةً بجانبي، مع جرحٍ يمزِّق صدرَها، وعينَين مفتوحتين تحدِّقان بي في ذهول. لا. لا يمكن أن يكون ذلك صحيحاً. لا. الآن بعد أن انتهى كلُّ شيءٍ. لماذا؟ سيكون هذا حلماً، سيكون كابوساً، لا يمكن أن يكون قد وقع حقّاً. لا. ليس الآن. لماذا الآن؟

- يا حبِّي، وداعاً.

- أوه، لا، لا، لا، لا.

- وداعاً.

- لن تموتي، أقسم لكِ.

- وداعاً.

- أتوسَّل إليك، لن تموتي...

- دعني.

- لن تموتي.

- دعني.

- سننجو، عليك أن تصدِّقيني.

- يا حبِّي...

- لا تموتي...

- يا حبِّي.

- لا تموتي. لا تموتي. لا تموتي.

جهيراً، كان يُسمَع التجاجُ *البحر*. قويّاً كما لم أسمعه من قبلُ يوماً. أخذتُها بين ذراعيَّ، وتزحّفتُ حتّى بلغتُ حافَّة الطَّوف. جعلتُها تنزلق في الماء. لم أرِدْ لها أن تبقى في ذلك الجحيم. فإذا لم يكن ثمّة عرضُ كفٍّ من الأرض، هناك، لكي يحرسَ سكينتها، فليكن جوفُ *البحر* مثواها. حديقةُ موتى لانهائيَّة، بلا صلبانٍ ولا حدود. انزلقتْ بعيداً مثلَ موجة، سوى أنَّها كانت أجمل من الأمواج الأُخَر.

لا أعلم. من الصَّعب فَهْمُ كلِّ هذا. لو كانت لي حياةٌ أمامي، ربمَّا كنتُ أمضيتها وأنا أروي هذه القصَّة، ألفَ مرَّةٍ، ودونما انقطاعٍ، إلى أن يُقيَّض لي، ذاتَ يومٍ، أن أفهمها. لكنْ: أمامي لم يكن ثمّة إلَّا رجلٌ ينتظرُ سكِّيني. ثمّ بحرٌ، فبحرٌ، فبحر.

الشَّخص الوحيد الذي بحقٍّ علَّمني شيئاً، عجوزٌ كان يُدعى داريل، كان يقول دائماً إنَّ ثمّة ثلاثة أصنافٍ من الرِّجال: أولئك الذين يعيشون أمامَ *البحر*، أولئك الذين يلجون عرضَ *البحر*، وأولئك الذين يُفلِحون في العودة من *البحر*، أحياء. وكان يقول: ستدركُ المفاجأة عندما تكتشف مَن هم الأوفر سعادةً. كنتُ غلاماً، آنذاك. في الشِّتاءات كنتُ أرى السُّفن جانحةً في المياه الضَّحلة، مسنودةً بركائزَ خشبيَّةٍ ضخمة، الهيكلُ في

مهبِّ الرِّيح والصَّالبُ يشقُّ الرَّملَ كنصلٍ عقيم. وكنتُ أفكِّر: لن أمكثَ هنا. عرضُ *البحر* هو ما أشتهي بلوغه. لأنَّه إن كان ثمّة شيءٌ حقيقيٌّ، في هذا العالم، فإنَّه كامنٌ هناك. الآن أنا هناك، في السَّحيقِ الشَّطونِ من عرض *البحر*. ما أزال حيَّاً؛ لأنَّني قتلْتُ بلا رحمة، لأنَّني ألتهمُ هذا اللحمَ المنزوعَ من جثامين صَحبي، لأنَّني شربتُ دماءَهم. رأيتُ ما لا حصر له من الأشياء التي تكون لامرئيَّةً من شاطئ *البحر*. رأيتُ ما هي الرَّغبة حقَّاً، وما هو الخوف. رأيتُ رجالاً يتحطَّمون، ويتحوَّلون أطفالاً. ثمّ يتحوَّلون مرَّةً أخرى، ويصيرون وحوشاً ضارية. رأيتُهم يحلمون أحلاماً مذهلة، وسمعتُ أجمل القصص التي سمعتُها في حياتي، من أفواه رجالٍ من كلِّ صنفٍ ولون، قبل لحظةٍ من ارتمائهم في *البحر* وتلاشيهم إلى الأبد. قرأتُ في السَّماء علاماتِ ما كنتُ أدري مِن قبلُ ما تكون، وتأمَّلتُ الأفق بعينَين ما كنتُ أظنُّ أنَّني أمتلكهما. ما هي الكراهية بحقٍّ، ذلك فهمتُه فوق تلك الألواح الملطَّخة بالدِّماء، وعلى جسدي ماءُ البحرِ الذي يُنتِّن القروح. وما هي الرَّحمة، ذلك لم أعرفه قبل أن رأيتُ أيدينا القاتلة تداعبُ لساعاتٍ شعرَ صديقٍ لا يتمكَّن من الموت. رأيتُ الوحشيَّة، في المحتضرين المدفوعين ركلاً خارجَ الطَّوف، رأيتُ العذوبة، في عَيني جلبرت، وهو يقبِّل لِيونَهُ الصَّغير، رأيتُ الدَّهاءَ، في الحركات التي كان سافيني يدبِّجُ مذبحتَه بها، ورأيتُ الجنون، في ذيْنِكَ الرَّجلَين اللذين فرَدَا ذات فجرٍ جناحيهما على وَسْعِهما، وحلَّقا بعيداً، في السَّماء. كان عليَّ أن أعيش ألف سنةٍ بعدُ، وحبَّاً ليكن اسمُ ذلك الوزن العذبِ بين ذراعيَّ، وزنِ تيريزا، قبلَ أن ينزلقَ بين الأمواج. قدَراً ليكنْ اسمُ هذا *البحر* المحيط، اللانهائيِّ والبهيِّ. لم أكن مخطئاً، هناك على الشَّاطئ، في تلك الشِّتاءات؛ إذْ ظننتُ أنَّ الحقيقةَ كانت هنا. استغرق الأمرُ سنيناً قبل أن أبلغَ عرضَ *البحر*: لكنَّ ما كنتُ أبحث عنه، وجدتُه. الأشياء الحقيقيَّة. بما فيها ذلك الشَّيء الذي لا يُطاق

ذو الحقيقة الوحشيَّة. مرآةٌ هو، هذا *البحر*. ههنا، في عرضِ عبابه، رأيتُ نفسي. رأيتُ رأيَ العين.

لا أعلم. لو كانت لي حياةٌ أمامي - أنا الموشك على الموت - لكنتُ أمضيتُها وأنا أروي هذه القصَّة، ألفَ مرَّةٍ، ودونما انقطاعٍ، كيما أفهمَ ماذا يعني القولُ إنَّ الحقيقة لا تنقاد إلَّا للخوف، وإنَّه لكي نصل إليها، كان علينا أن نمرَّ من هذا الجحيم، ولكي نراها، كان علينا أن يُهلِكَ بعضُنا بعضاً، ولكي نملكها، كان علينا أن ننقلبَ وحوشاً مفترسة، ولكي نخرجَها من وكرها، كان علينا أن نتمزَّق من الألم. لكي نكون حقيقيِّين، كان علينا أن نموت. لماذا؟ لماذا تصبح الأشياء حقيقةً فقط بين أنياب اليأس؟ مَن شكَّلَ العالمَ بهذه الطَّريقة، أنَّ الحقيقة يجب أن تكون في الجانب المُعتِم، وأنَّ المستنقعَ المخزي لبشريَّةٍ منبوذةٍ هو الأرضُ الوحيدةُ الكريهة التي ينمو فيها ذلك الذي ليس، في حدِّ ذاته، أكذوبة؟ وفي النِّهاية: أيُّ حقيقةٍ هي هذه التي تفوح منها رائحة الجثث، وتنمو في الدَّم، وتتغذَّى بالألم، وتعيش حيث الإنسانُ يُهان، وتنتصر حيث الإنسانُ يتعفَّن؟ حقيقةُ مَن تكون؟ حقيقةٌ لأجلنا نحن؟ هناك على الشَّاطئ، في تلك الشِّتاءات، كنتُ أتخيَّلُ حقيقةً تكون سكِّينةً، حضناً، راحةً، وتَحناناً، وعذوبة. حقيقةً خُلِقتْ لأجلنا. حقيقةً تنتظرنا؛ لتنحني مِن ثمّ علينا، مثلَ أمٍّ مُكتشَفَة. لكنْ: هنا، في جوفِ *البحر*: رأيت الحقيقةَ تصنعُ عشَّها، بدقَّةٍ وإتقان: وذلك الذي رأيتُه هو طائرٌ جارحٌ، مهيبٌ في طيرانه، ووحشيٌّ. لا أعلم. لم يكن هذا ما حلمتُ به، في الشِّتاء، عندما حلمتُ بهذا.

داريل هذا، كان واحداً من الذين عادوا. رأى جوفَ البحرِ، كان هنا، ولكنَّه عاد. كان رجلاً أثيراً لدى السَّماء، كما كانوا يقولون. نجا من حادثتَي غرقٍ، وفي الثَّانية، كما قِيل، قطعَ أكثر من ثلاثة آلاف ميلٍ، على متن قاربٍ

غير ذي غَناء، بحثاً عن اليابسة. أيّاماً وأيّاماً في عرض *البحر*. ثمّ بعد ذلك عاد. لأجل ذلك، كان النّاس يقولون: داريل حكيمٌ، داريل رأى، داريل يعرف. كنتُ أقضي النّهارات مصغياً إليه يتكلَّم: لكنْ؛ عن عرضِ البحرِ لم يذكر لي شيئاً البتَّة. لم يرُقْهُ الكلام عن ذلك. لم يرُقْهُ كذلك أنَّ النّاس يريدونه حكيماً وعارفاً. فوق كلِّ شيءٍ، لم يكن يطيق صبراً مع مَن يقول عنه إنَّه مُخلَّص. لم يكن قادراً على سماع تلك الكلمة: مُخلَّص. كان يُخفض رأسَه، ويُغمض عينيه نصفَ إغماضةٍ، بطريقةٍ من المستحيل نسيانها. كنتُ أنظر إليه، في تلك اللحظات، ولا أفلِحُ في منحِ اسمٍ لذلك الذي كنتُ أقرؤه على وجهه، والذي، هذا ما كنتُ أعلمُه، كان سرَّه. ألفَ مرَّةٍ، مسَسْتُ ذلك الاسم مسّاً خفيفاً. هنا، على هذا الطّوف، في جوفِ *البحر*، عثرتُ عليه. والآن أعلم علمَ اليقين أنَّ داريل كان رجلاً حكيماً وعارفاً. كان رجلاً رأى. لكنْ؛ قبل كلِّ شيءٍ آخر، وفي أعماق كلِّ لحظةٍ من حياته، كان إنساناً لا عزاء له. هذا، علَّمني إيّاه جوفُ *البحر*. أنَّ مَن رأى الحقيقة سيبقى إلى الأبدِ بلا عزاء. وأنَّ المخلَّص حقّاً هو فقط ذلك الذي لم يجد يوماً نفسَه في خطر. حتّى إنَّه من الممكن أن تبلغَ سفينةٌ الأفقَ، الآنَ، وتمخرَ الموجَ إلى هنا، وتصلَ إلينا قبلَ هُنيهةٍ من الموت، فتحملنا بعيداً، وتُعيدنا، أحياءً، أحياء: لكنْ؛ لن يكون هذا هو، حقّاً، ما يمكن أن يُخلِّصَنا. حتّى وإن وجدنا أرضاً ما، فلن نكون أبداً أشدَّ خلاصاً. ذلك الذي رأيناه سيبقى في عيوننا، وذلك الذي اقترفناه سيبقى في أيدينا، وذلك الذي أحسسناه سيبقى في أرواحنا. وإلى الأبد، نحن الذين عرفنا الأشياء الحقيقيَّة، إلى الأبد، نحن أبناء الهلع، إلى الأبد، نحن العائدون من جوف *البحر*، إلى الأبد، نحن العارفون والحكماء، إلى الأبد - سنكون بلا عزاء.

بلا عزاءٍ.

بلا عزاء.

يخيِّمُ صمتٌ مهولٌ، على الطَّوف. سافيني، بين فينةٍ وأخرى، يفتح عينيه وينظرُ إليَّ. إنَّنا في أقصى القرب من الموت، إنَّنا في أقصى جوفِ *البحر*، حدَّ أنَّ الوجوه لا تُفلِح في الكذب. وجهه أقصى الحقيقة. خوفٌ، إعياءٌ، ونفور. لا أحد يعلمُ ماذا يقرأ، هو، على وجهي. إنَّه الآن في أقصى القرب، حدَّ أنَّني أحياناً أشتمُّ رائحته. الآن سأتزحَّف إلى هناك، وبسكِّيني سأفلق قلبَه. يا له من قتالٍ عجيب. لأيَّامٍ، على طوفٍ تحت رحمةِ *البحر*، وسط كلِّ المِيْتات الممكنة، لم نتوقَّف لحظةً عن ترصُّدِ وطَعْن بعضنا بعضاً. خائري القوى أكثر فأكثر، ومتثاقلين أكثر فأكثر. والآن، تبدو أبديَّةً هذه الطَّعنة الأخيرة. لكنَّها لن تكون كذلك. أقسِمُ. القدَرُ لا يمكن تضليلُه: مهما تكن كُلِّيَّةً قدرتُه، فإنَّه لن يصل في الوقت المناسب لإنهاء هذا القتال. لن يموتَ قبل أن يحملني على قتلِه. وقبل أن يموت، سأقتلُه. ذلك ما بقي لي: وزنُ تيريزا العذبُ، مدموغاً مثلَ أثرٍ لا يُمحَى على ذراعيَّ، والحاجة، الرَّغبة في عدالةٍ أيّاً تكن. فليعلمْ هذا البحرُ أنَّني سأنالها. فليعلمْ أيُّ بحرٍ أنَّني سأصل إليه قبلَه. ولن يكون بين أمواجه تكفيرُ سافيني عن ذنبه: بل بين يديَّ.

يخيِّمُ صمتٌ مهولٌ، على الطَّوف. جهيراً، يُسمَع التجاجُ البحرِ فحسب.

أوَّلُ الأشياء هو اسمي، ثانيها تلك العيون، ثالثُها هَجْسٌ، رابعُها الليلُ الذي يهبطُ، خامسُها تلك الأجساد الممزَّقة، سادسُها جوعٌ، سابعُها هلَعٌ، ثامنُها أشباحُ الجنون، تاسعُها لحمٌ، وعاشرُها رجلٌ يحدِّق فيَّ، ولا يقتلني.

آخرُها شراعٌ.

أبيضُ. عندَ الأفق.

الكتاب الثالث

أناشيدُ العودة

١. إليزوين

مترنِّحاً على حافَّةِ الأرض، على مرمى حجرٍ من بحرٍ عاصفٍ اضطجعَ هامداً نُزلُ آلماير، غاطساً في ظلماتِ الليل كمثلِ لوحةٍ، عربونِ حبٍّ، داخلَ دُرجٍ مظلمٍ.

على الرَّغم من أنَّ العشاء انتهى منذ أمدٍ، واصلَ الجميعُ، على نحوٍ يتعذَّر تفسيره، مُساوفةَ النَّومِ في رَدهةِ الموقدِ الكبيرة. اصطخابُ *البحر*، هناك في الخارج، كان يقلِقُ النُّفوسَ، ويشوِّشُ الأفكار.

- لا أريد قولَ ذلك، ولكنْ: ربَّما سيكون...

- هدِّئ من روعِك، يا بارتلبوم. عادةً الأنزالُ لا تغرق.

- عادةً؟ وماذا يعني القولُ عادةً؟

غير أنَّ الشَّيء الأشدَّ عجباً كان الأطفال. كلُّهم هناك، بأنوفٍ مسحوقةٍ على البلَّور، خُرْساً على نحوٍ غريبٍ، يتأمَّلون ظلمةَ الخارج: دُوْد، الذي كان يقطن على حافَّةِ نافذةِ بارتلبوم، وديِتس، الذي كان يهبُ الأحلامَ للأب بلوش، ودُوْل، الذي كان يُبصِرُ السُّفنَ لأجل بلاسُّون. وديرا. وحتَّى الطِّفلة، الفائقة الجمال، التي كانت تنام في سرير آن دوڤِريا والتي، في أنحاء النُّزل، لم يكن قد رآها أحدٌ قطٌّ. كلُّهم هناك، منوَّمون من أمرٍ مجهولٍ، صامتون ومضطربو البال.

- إنَّهم كحيواناتٍ صغيرة، صدِّقوني. يستشعرون الخطرَ. إنَّها الغريزة.

- بلاسُّون، هلاَّ عمدْتَ قليلاً إلى صُنعِ شيءٍ، تهدِّئ به روعَ صديقك...

- أقول، تلك الطِّفلة فائقة الجمال...

- حاولي أنتِ، سيِّدتي.

- لا حاجة لي على الإطلاق بأن يتكبَّدَ أحدٌ عناء التَّهدئة من روعي، فأنا هادئٌ تماماً.

- هادئ؟

- تماماً.

- ها إليزوين... أليست فائقة الجمال؟ تبدو...

- أيُّها الأب بلوش، عليك أن تتوقَّف عن النَّظر دائماً إلى النِّساء.

- إنَّها ليست امرأة...

- بل إنَّها امرأة.

- صغيرة على أيَّة حال...

- لِنقلْ إنَّ الحسَّ السَّليم يُملي عليَّ بصيرةً مقدَّسة في النَّظر إلى...

- ذلك ليس بالحسِّ السَّليم. إنَّه خوفٌ صِرف.

- ليس صحيحاً.

- بلى.

- لا.

- بل إنَّه بالتَّأكيد كذلك.

- بل إنَّه بالتَّأكيد ليس كذلك.

- آه، كفى. إنَّكما قادران على المضيِّ قدماً لساعاتٍ على هذا المنوال. إنَّني أنسحب.

- ليلة سعيدة سيِّدة دوڤِريا - قالَ الجميع.

- ليلة سعيدة - أجابت آن دوڤِريا شاردةَ الذِّهن قليلاً. بيدَ أنَّها لم تنهض عن أريكتها. بل، ولم تغيِّر حتّى من وضعيَّة جلوسِها. بقيتْ ماكثةً هناك، لا تحرِّك ساكناً. كما لو أنَّ شيئاً لم يقع. حقّاً: كانت ليلةً غريبةً، تلك الليلة.

لَكانوا استسلموا جميعاً في النِّهاية، ربَّما، لليلةٍ عاديَّةٍ مطابقةٍ للمألوف، واحداً تِلْوَ الآخر، لَكانوا صعدوا إلى غُرَفِهم، ولَكانوا غرقوا في النَّوم حتّى، على الرَّغم من ذلك الجؤار الذي لا هوادة فيه لبحرٍ عاصفٍ، وكلٌّ ملتحفٌ بأحلامه، أو محتجبٌ وراءَ نومٍ أبكم. لَكان من الممكن في النِّهاية، ربَّما، أن تصيرَ ليلةً كسائر الليالي. لكنَّها لم تَصِرْها.

أوَّل مَن رفعَ عينيه عن البلَّور؛ ليستدير بصورةٍ مباغتة، ويهرعَ إلى خارج الرَّدهة، كان ديرا. الأطفال الآخرون لحقوا بها، دون أن ينبسوا ببنتِ شفة. بلاسُّون نظرَ مبهوتاً إلى بارتلبوم الذي نظرَ مبهوتاً إلى الأب بلوش الذي نظرَ مبهوتاً إلى إليزوين التي نظرتْ مبهوتةً إلى آن دوڤِريا التي استمرَّت في التَّحديق أمامَها. إنَّما بذهولٍ غيرِ محسوس. عندما دخل الأطفالُ الرَّدهةَ من جديد، كانوا يحملون بأيديهم مصابيحَ. شرعتْ ديرا تُضيئها، مصباحاً تِلْوَ الآخر، باهتياجٍ غريب.

- هل حدثَ شيء؟- سألَ بارتلبوم بكِياسة.

- أمسِكْ هنا - أجابَه دُوْد، مقدِّماً إليه مصباحاً مُضاءً. - وأنتَ، يا بلاسُّون، أمسكْ هذا، بسرعة.

لم يعد ثمّة ما هو مفهومٌ. كلُّ امرئٍ قبعَ مع مصباحٍ منيرٍ في يدِه. لا أحد فسَّرَ شيئاً، كان الأطفال يهرعون من ركنٍ إلى آخر، كأنَّما ينهشهم جزعٌ مُبهمٌ، لا تفسير له. كان الأب بلوش يُحدِّق منوَّماً في شعلةِ مصباحِه. وبارتلبوم يُهمهمُ بصوائت احتجاجٍ غامضة. آن دوڤِريا نهضتْ عن أريكتها. وإليزوين وجدتْ نفسَها ترتجف. كانت تلك هي اللحظة التي فُتِحَ فيها البابُ الزُّجاجيُّ الكبيرُ المطلُّ على الشَّاطئ على مصراعيه. وكما لو كانت مقذوفةً من منجنيقٍ، أخذتْ ريحٌ عاتيةٌ تدورُ حولَ كلِّ شيءٍ وكلِّ فردٍ. وجوه الأطفال استضاءتْ. وديرا هتفتْ

- أسرعوا... من هنا!

خرجتْ عَدْواً من الباب المفتوح على مصراعيه، ومصباحُها في يدِها.

- هيَّا... فلنخرجْ، فلنخرجْ من هنا!

كان الأطفال يصيحون. إنَّما ليس خوفاً. كانوا يصيحون ليتغلَّبوا على ذلك الهدير، هديرِ *البحر* والرِّيح. غير أنَّ ضرباً من الغبطة - غبطةٍ يتعذَّر تفسيرُها - كان يُصلصِلُ في أصواتهم.

لبث بارتلبوم متحجِّراً، واقفاً وسطَ الرَّدهة، مشوَّشَ الفكر تماماً. الأب بلوش التفتَ إلى إليزوين: رأى على وجهها شحوباً يُثير المشاعر. آن دوڤِريا لم تنبس ببنتِ شفة، إلَّا أنَّها حملت مصباحَها، ولحقتْ بديرا. بلاسُّون هرعَ خلفَها.

- إليزوين، من الأفضل أن تبقَي هنا...

- لا.

- إليزوين أصغي إليَّ...

بصورةٍ آليَّةٍ، لَفِفَ بارتلبوم معطفَه، وهرعَ خارجاً مهمهماً بشيءٍ بينه وبين نفسِه.

- إليزوين...

- فلنمضِ.

- لا، أصغي إليَّ... لستُ واثقاً من أنَّكِ...

قفلتْ الطِّفلةُ عائدةً - تلك الفائقة الجمال - ودون أن تنبسَ بكلمةٍ، أخذتْ بيدِ إليزوين، مبتسمةً لها.

- وما أنا بواثقة، أيُّها الأب بلوش.

كان صوتها يرتعش. لكنَّه كان يرتعش قوَّةً، ورغبةً. لا خوفاً.

خلَّوا نُزُلَ آلماير وراءَهم، مع بابه يصطفق في الرِّيح، وأنوارِه تتقلَّص في الظَّلام. مثلَ فلزاتٍ تطايرت من مجمرة، كانت عشرة مصابيح صغيرة تندفع على طول الشَّاطئ، راسمةً في الليل حروفاً هيروغليفيَّةً فَكِهةً وغامضة. البحرُ، لامرئيّاً، كان يجرشُ الصَّخب جرشاً يفوق التَّصوُّر. وكانت الرِّيح تعصفُ، مشوِّشةً العالمَ، والكلماتِ، والوجوهَ، والأفكار. ريحٌ عُجابٌ. وبحرٌ مُحيط.

- أريد أن أعرف بحقِّ إبليس: أين نحن ماضون!

- ماذا؟

- **بحقِّ إبليس: أين نحن ماضون؟**

- أبقِ مصباحك عالياً، يا بارتلبوم!

- المصباح!

- أوه، لكنْ؛ هل علينا أن نركض بالضَّبط على هذا النَّحو؟

- مرَّت سنواتٌ مُذْ ركضتُ آخر مرَّة...

- سنوات ماذا؟

- دُوْد، اللعنة، يمكنك تخمين ذلك...

- سنواتٌ مُذ ركضتُ آخر مرَّة.

- كلُّ شيءٍ على ما يرام، سيِّد بارتلبوم؟

- دُوْد، اللعنة...

- إليزوين!

- أنا هنا، أنا هنا!

- ابقي بجانبي، إليزوين.

- إنَّني هنا.

ريحٌ عُجابٌ. بحرٌ مُحيط.

- أتعلم ماذا أظنُّ؟

- ماذا؟

- أظنُّ لأجل السُّفن. **السُّفن.**

- السُّفن؟

- هذا ما يفعلونه عندما يكون ثمّة إعصار... يوقدون شُعَلَ نارٍ على السَّاحل لأجل السُّفن... لئلَّا تجنحَ إلى الشَّاطئ...

- بارتلبوم، هل سمعتَ؟

- ماذا؟

- أنتَ على وشك أن تصير بطلاً، يا بارتلبوم!

- لكنْ؛ ما الذي يقوله بلاسُّون، بحقِّ إبليس؟

- إنَّك على وشك أن تصير بطلاً!

- أنا؟

- آنسة ديرا!

- لكنْ؛ أين نمضي؟

- ألا يمكن أن نتوقَّف لحظةً؟

- أتعلم ماذا يفعل سكَّان الجُزُر، عندما يكون ثمّة إعصار؟

- لا، سيِّدتي.

- يركضون بجنون غدُوَّاً ورواحاً عِبرَ الجزيرة مع مصابيحَ مرفوعةٍ فوق رؤوسهم... هكذا السُّفن... هكذا السُّفن يلتبسُ عليها الأمرُ، وتنتهي على الصُّخور.

- أنتِ تمزحين.

- لستُ أمزح على الإطلاق... ثمّة جُزُرٌ كاملةٌ تعيش على ما تجده في حطام السُّفن.

- لا تريدين القولَ إنَّ...

- أمسك مصباحي، من فضلك.

- قفوا لحظةً، اللعنة!

- سيِّدتي... ملاءتُكِ!

- دعها هناك.

- لكنْ...

- دعها هناك، بالله عليك!

ريحٌ عُجابٌ. بحرٌ مُحيط.

- لكنْ؛ ماذا يفعلون؟

- آنسة ديرا!

- أين يمضون، بحقِّ إبليس؟

- لكنْ؛ في النِّهاية...

- **دُوْد!**

- اركضْ، يا بارتلبوم.

- نعم، ولكنْ؛ في أيِّ اتِّجاه؟

- لكنْ؛ في النِّهاية، هل فقدوا ألسنتهم، أولاء الأطفال؟

- انظري هناك.

- إنَّها ديرا.

- إنَّها تصعدُ الأكمة.

- سأذهب إلى هناك.

- دُوْد! دُوْد! يجب أن تمضي نحو الأكمة!

- لكنْ؛ أين يتَّجه؟

- أيُّها المسيح، لم نعد نفهم شيئاً هنا.

- أبقِه عالياً ذلك المصباح، واركض، أيُّها الأب بلوش.

- لن أخطوَ خطوةً واحدةً بعدُ إذا لم...

- لكنْ؛ ما لَهم لا ينطقون؟

- لا تروقني أبداً تلك النَّظرة في عيونهم.

- ما الذي لا يروقك؟

- العيون. **العيون!**

- بلاسُّون، أين انتهى المطاف ببلاسُّون؟

- أنا ماضٍ مع دُوْل.

- لكنْ...

- **المصباح. لقد انطفأ مصباحي!**

- سيِّدة دوفِريا، أين تمضين؟

- في النِّهاية، أريد أن أعرف، على الأقلِّ، إن كنتُ بصدد إنقاذ سفينةٍ أم بصددِ إغراقها!

- **إليزوين!** مصباحي! لقد انطفأ!

- بلاسُّون، ما الذي قالته ديرا؟

- من هناك، من هناك...

- مصباحي...

- **سيِّدتي!**

- لم أعد أسمعك، يا بارتلبوم!

- ولكنْ؛ لا يمكن...

- **إليزوين!** أين انتهى المطاف بإليزوين؟ مصباحي...

- أيُّها الأب بلوش، تعال من هناك.

- ولكنَّ مصباحي انطفأ.

- إلى الجحيم، إنيِّ ماضٍ إلى هناك.

- تعال، سأضيئُه لك.

- يا إلهي، إليزوين، هل رأيتُمُوها؟

- ستُلفيها بصحبة السَّيِّدة دوڤِريا.

- لكنَّها كانت هنا، كانت هنا...

- أبقِهِ سويَّاً هذا المصباح.

- إليزوين...

- ديتس، هل رأيت إليزوين؟

- **ديتس! ديتس!** لكنْ؛ ما الذي دهى هؤلاء الأطفال، بحقِّ إبليس؟

- هوَ ذا... مصباحُك...

- ما عدتُ أفهم شيئاً.

- هيَّا، فلنمضِ.

- ينبغي أن أعثر على إليزوين...

- فلنمضِ، أيُّها الأب بلوش، الجميع باتَ الآنَ في المقدِّمة.

- إليزوين... **إليزوين!** يا إلهي الرَّحيم، أين أنتِ... **إليزوين؟!**

- أيُّها الأب بلوش، يكفي هذا، سنعثر عليها...

- **إليزوين! إليزوين!** إليزوين، أتوسَّل إليكِ...

هامدةً، ومصباحٌ مُطفَأٌ في يدِها، كانت إليزوين تسمع اسمَها يتناهى إليها من بعيد، ممتزجاً بالرِّيح وبهدير *البحر*. في الظُّلمة، أمامَها، كانت ترى الأنوار الصَّغيرة لكثيرٍ من المصابيح تتقاطع في طوافها، وكلٌّ منها تائهٌ على حافَّة العاصفة. لم يكن ثمّة، في فِكرِها، لا قلقٌ ولا خوف. بحيرةٌ ساكنةٌ انفجرتْ، على حين غرَّةٍ، في روحِها. كان لها نفس الصَّوت الذي عهدَتْه.

استدارتْ، ورجعتْ على عقبيها. لم يعد ثمّة ريحٌ، لم يعد ثمّة ليلٌ، لم يعد ثمّة بحرٌ، في نظرها. سارت، وكانت تعرف إلى أين تسير. هذا كان كلَّ شيء. شعورٌ فائقُ الوصف. عندما يتكشَّف المصيرُ أخيراً، ويصبح درباً بيِّنة الملامح، وعلامةً لا لبسَ فيها، ووجهةً أكيدة. لامتناهٍ هو الزَّمن مع ذلك الدُّنوِّ. ذلك التَّداني. حبَّذا أن لا ينتهي أبداً. يا لإِيماءة الامتثالِ للمصير. ذلك هو التَّحرُّق شوقاً. دون مزيدٍ من المِحَن، دون مزيدٍ من الأكاذيب. أن تعرف أين يكمن. وأن تبلُغَه. أيّاً يكن، ذلك المصير.

كانت تسير - وكان ذلك أجملَ شيءٍ فعلتْه في حياتها.

رأتْ نُزُلَ آلماير يتدانى. بأضوائه. تركت الشَّاطئ، بلغَتِ العتبة، دخلتْ، وأوصدتْ وراءَها ذلك البابَ الذي منه، رفقةَ الآخرين، ولا أحد يعلم منذ متى، خرجتْ عَدْواً، دون أن تكون قد عرفتْ شيئاً بعد.

صمتٌ.

على الأرضيَّة الخشبيَّة، خطوةً إثرَ خطوة. حُبيباتُ رملٍ تُخشخشُ تحت قدميها. في ركنٍ، على الأرض، معطفُ بلاسُّون المنزلق، مِن عجلةِ الإهراعِ بعيداً. في الوسائد، على الأريكة، دمغةُ جسدِ آن دوقِريا، كما لو أنَّها للتَّوِّ نهضتْ. وفي وسطِ الرَّدهة، واقفاً، بلا حراكٍ، آدامز. يحدِّق فيها.

خطوةً إثرَ خطوة، إلى أن أصبحت منه على مقربة. وقالت:

- لن تُنزِلَ بي مكروهاً، أليس كذلك؟

لن يُنزِلَ بها مكروهاً، أليس كذلك؟

- لا.

لا.

إذَّاكَ

إليزوين

أخذتْ

بين يديها

وجهَ

ذلك الرَّجل،

و

قبَّلته.

في أصقاع كايروول، ما كانوا لينتهوا أبداً عن تناقلِ هذه القصَّة. لو أنَّهم فقط علموا بها. ما كانوا لينتهوا أبداً. كلٌّ على طريقته، ولكنْ؛ كلُّهم، كانوا سيواصلون الحديث عن ذينك الاثنين، وعن ليلةٍ بأكملها عاشاها، يُرمِّمُ أحدُهما للآخر حياتَه، بالشِّفاه والأيدي، فتاةٌ لم ترَ شيئاً، ورجلٌ رأى أكثر ممَّا يجب، أحدُهما داخل الآخر - كلُّ شبرٍ من الجسدِ رحلةٌ، رحلةُ استكشافٍ، وعودة - في فمِ آدامز تُذاقُ لذَّةُ العالَم، وعلى ثديي إليزوين يُنسَى - في رحمِ تلك الليلةِ الواجفةِ، عاصفةٌ سوداء، شراراتُ زبدٍ في الظَّلام، أمواجٌ كأكداسِ حطبٍ متهاوية، هديرٌ، عصفاتٌ جَلْجالة، هائجةُ الصَّوتِ والسُّرعة، مرشوقةٌ على سطحِ *البحر المجعَّد*، في عروق الأرض، والبحرُ المحيطُ، تمثالٌ ضخمٌ يتهاوى، واجفاً - تنهيداتٌ، تنهيداتٌ في حنجرةِ إليزوين - مُخمَلٌ يطير - تنهيداتٌ مع كلِّ خطوةٍ جديدةٍ في ذلك العالَم الذي يجوزُ جبالاً، لم تُرَ من قبل، وبحيراتٍ بهيئاتٍ لم تطفْ في ذهنِ أحدٍ قطُّ - على بطن آدامز الوزنُ الأبيضُ لتلك الفتاة يهزهزُ ألحاناً خرساء - مَن كان يظنُّ يوماً أنَّك بتقبيل عينَي رجلٍ ستكون قادراً على الرُّؤيةِ أبعدَ من المعتاد - مَن كان يظنُّ يوماً أنَّك بمداعبة ساقَي فتاةٍ ستكون قادراً على الرَّكض أسرع من المعتاد والهرب - الهرب من كلِّ شيء - الرُّؤية بعيداً – متحدِّرَين كانا من أقصى طرفَي الحياة، وهذا هو المذهلُ في الأمر، أن يظنَّ المرءُ أنَّهما ما كانا ليتدانيا قطُّ، دون أن يعبرا الكونَ بأكمله، من أقصاه إلى أقصاه، ومع ذلك، لم يُضطرَّا إلى محاولةِ البحثِ حتّى، إنَّه لشيءٌ يفوق التَّصوُّر، فجلُّ المعضلةِ كان يكمن فقط في أن يعرفَ أحدُهما الآخر، تلك المعرفة، مسألةُ هُنيهةٍ من الزَّمن، نظرةٌ أولى ووقعَتِ المعرفة، هنا تكمن الرَّوعة –

تلك هي القصَّة التي كانوا سيواصلون تناقلها، إلى ما لا نهايةٍ، في أصقاعِ كايروول؛ بحيث لا يمكن للمرء بعدئذٍ أن ينسى أنَّنا لا نكون أبداً بعيدِين ما فيه الكفاية حتّى يُقالَ إنَّ أحدنا عثرَ على الآخر، أبداً - ولكنَّ ذينك الاثنين كانا بعيدَين ما فيه الكفاية - ليعثرَ أحدهما على الآخر، بعيدَين، أكثر من أيِّ شيءٍ آخرَ، والآنَ - يتأوَّه صوتُ إليزوين، من سيولِ القَصَصِ التي تجتاحُ روحَها، وآدامز يبكي؛ إذ يحسُّ تلك القصص تنزلق بعيداً، بالغةً، أخيراً، في خاتمة المطافِ، خُتْمَتَها - ربَّما كانت الأرضُ جرحاً، وأحدٌ ما يخيطُها الآنَ في انصهار ذينك الجسدين - وليس هذا بالحبِّ حتّى، وهنا يكمن السِّحرُ، بل إنَّه أيدٍ، وبشرتين، شِفاهٌ، دهشةٌ، جنسٌ، مذاقٌ - حزنٌ، ربَّما - بل وحزنٌ حتّى - رغبةٌ - عندما سيقصُّون الحكاية لن يلفظوا كلمةَ حبٍّ - ألفَ كلمةٍ سيلفظون، لكنَّهم سيصمتون عن الحبِّ - كلُّ شيءٍ صامتٌ الآنَ، من حولهما؛ إذْ تحسُّ إليزوين فجأةً بظهرها يتمزَّق، وبعقلها يتلاشى نحوَ الأبيض، تهصرُ ذلك الرَّجلَ بقوَّةٍ داخلَها، تشبك أصابعَها بأصابعِه، وتفكِّر: سأموت. تحسُّ بظهرها يتمزَّق، وبعقلها يتلاشى نحوَ الأبيض، تهصرُ ذلك الرَّجلَ بقوَّةٍ داخلَها، تشبك أصابعَها بأصابعِه، ثمّ، هي ذي، لن تموت.

- أصغي إليَّ، إليزوين...

- لا، لا تتكلَّم...

- أصغي إليَّ.

- لا.

- ذلك الذي سيقع هنا سيكون مرعباً، و...

- قبِّلني... إنَّه الفجر، سيعودون...

- أصغي إليَّ...

- لا تتكلَّم، أرجوكَ.

- إليزوين...

ما العمل؟ كيف تقول لها، لامرأةٍ كمثلِ هذه، ما ينبغي أن تقولَه، فيما يداها تكبِّلانك، وبشرتُها، آهِ بشرتُها، تغمرك، لا يمكنك أن تُحدِّثها عن الموتِ، كيف تُحدِّث امرأةً كمثل هذه عن ذلك، ذلك العارفة هي به مُسبقاً، والذي ينبغي أن تصغي أنتَ إليه، إلى تلك الكلمات، كلمةً إثْرَ كلمة، وربَّما كنتَ أنتَ أيضاً تعرف تلك الكلمات، ولكنْ؛ ينبغي أن تصغي، عاجلاً أو آجلاً، ينبغي أن ينطق بها أحدٌ، وأن تصغي إليها أنت، أن تصغي إلى تلك الفتاة وهي تقول

- لك عينان لم أر لهما مثيلاً من قبل.

وبعد ذلك

- فقط إذا أردتَ أنتَ ذلك، تستطيع الخلاص.

كيف تقول لها، لامرأةٍ كمثلِ هذه، أنَّك ترغب في الخلاص، وأنَّك أكثر من ذلك ترغب في تخليصها معك، في ألَّا تفعل شيئاً آخرَ سوى تخليصها، وتخليص نفسِك، في حياةٍ واحدة؟! ولكنَّ ذلك مُحال، فلكلٍّ رحلتُه التي عليه إتمامُها، وإذْ تنتهي بين ذراعَي امرأة، فإنَّك تنتهي قاطعاً طُرُقاً ملتوية، أنت نفسُك لا تفهمُها، وحتَّى في اللحظة المناسبة لن تكون قادراً على وصفِها، ستُعوِزك الكلماتُ لفعلِ ذلك، الكلماتُ التي لا تكون بهيَّةً إلَّا هناك، بين تلك القُبَل وعلى الجلد، كلماتٌ صائبةٌ، لا وجودَ لها، ستُنقِّب عنها طويلاً في ذلك الذي كنتَه، وذلك الذي أحسَستَه، ولن

تجدَها، فموسيقاها دائماً خاطئة، إنَّها الموسيقى التي فاتَتْها، هناك، بين تلك القُبَل وعلى الجلد، إنَّ المسألة برمَّتها مسألةُ موسيقى. هكذا ستنطق في النِّهاية شيئاً، ولكنَّه زهيداً سيكون.

- إليزوين، إنَّني لن أجدَ الخلاصَ بعدَ اليوم أبداً.

كيف تقولين له، لرجلٍ كمثلِ هذا، إنَّني أنا الآنَ مَن أرغب في تعليمه شيئاً وبين موجِ مداعباتِه أريد أن أجعله يفهم أنَّ القدَرَ ليس قيداً، بل تحليقاً، وأنَّه إن كان فقط ما يزال راغباً بحقٍّ في الحياة، فإنَّه قادرٌ على فعل ذلك، وإن كان فقط ما يزال راغباً بحقٍّ فيَّ، فإنَّه قادرٌ على نيلِ ألف ليلةٍ بدلاً من تلك الفاقدة النَّظير، الرَّهيبة، التي مشى نحوَها، فقط لأنَّها كانت تنتظره، تلك الليلة المرعبة، وتناديه منذ سنين. كيف تقولين له، لرجلٍ كمثل هذا، إنَّ التَّحوُّل إلى قاتلٍ لن يجديَ شيئاً، ولا شيء سيجدي ذلك الدَّم وذلك الألم، إنَّه ليس سوى ضربٍ من الجري منقطعي الأنفاسِ نحوَ النِّهاية، فيما الوقتُ والأرضُ، غيرَ عابئَين بإنهاءِ شيءٍ، يقبعان هنا في انتظارنا، ويناديانا، علَّنا نُحسن الإصغاء إلى صوتيهما فحسب، علَّ ذلك الرَّجل يتمكَّن حقَّاً، حقَّاً، من الإصغاء إليَّ فحسب. كيف تقولين له، لرجلٍ كمثل هذا، إنَّك تتبدَّدين؟!

- سأرحل...

- ...

- لا أريد البقاء هنا... سأرحل.

- ...

- لا أريد سماعَ ذلك العويل، أريدُ المضيَّ بعيداً.

- ...

- لا أريد سماعَه.

المأزقُ يكمنُ في الموسيقى، تلك هي الحقيقة، المأزقُ يكمنُ، لِنَقُلْ، في العثور على الموسيقى؛ إذْ جسداهما هناك لصيقان، في العثور على الموسيقى والحركات، من أجل إبطالِ الألَم، الموسيقى الصَّائبة؛ ليكونَ رقصاً، بطريقةٍ أو بأخرى، لا انسلاخاً ذلك الرَّحيلُ، ذلك الانزلاقُ بعيداً، نحوَ الحياة وبعيداً عن الحياة، كأنَّ للرُّوح بندولها العجيب، مخلِّصاً ومُهلِكاً، والنَّشوةُ أن نُتقن رقصتَه، ولأجل ذلك يبحث العشَّاق، كلُّ العشَّاق، عن تلك الموسيقى، في تلك اللحظة، داخلَ الكلمات، على غبارِ الحركات، ويعلمون، عندما يمتلكون الشَّجاعة لذلك، أنَّ الصَّمت وحدَه هو الموسيقى، الموسيقى الصَّائبة، صمتٌ عشقيٌّ رحيبٌ، قفلةُ أغنيةٍ خفيفةٌ وبحيرةٌ واهنةٌ تنهملُ أخيراً في كفِّ لحنٍ صغيرٍ، لحنٍ لُقِّنَ منذ الأزل؛ ليُغنَّى همساً

- وداعاً، إليزوين.

لحنٍ كأنَّه لا شيء.

- وداعاً، توماس.

تنزلق إليزوين من تحت الدِّثار، وتنهض. تنهض بجسدها المغتلِم، العاري، والمغمور بدفء ليلةٍ كاملة. تجمعُ ثوبَها، وتدنو من البلَّور. العالَمُ في الخارج هو دائماً هناك. في مُكْنتِكَ أن تفعلَ أيَّ شيءٍ، لكنْ؛ كنْ على يقينٍ من أنَّك ستجده في مكانه، دائماً. ثمّة ما يفوق التَّصوُّر في ذلك، ولكنَّ الأمرَ كذلك.

قدمان عاريتان، قدما مغتلِمة. تصعدان الأدراج، تدخلان إحدى الغرَف، تسيران نحو النَّافذة، وتقفان.

تضطجعُ الآكام. كما لو أنَّ لا بحرَ أمامَها على الإطلاق.

- غداً نرحل، أيُّها الأب بلوش.

- ماذا؟

- غداً. نرحل.

- لكنْ...

- من فضلك.

- إليزوين... لا يمكن أن نقرِّر هكذا دونما تفكير... يجب أن نبعث رسالةً إلى داشنباخ... فكِّري في أنَّ أولئك لا يقبعون هناك لأجل أن يرحِّبوا بنا في جميع الأيَّام...

- لن نذهبَ إلى داشنباخ.

- ماذا يعني القولُ إنَّنا لن نذهبَ إلى داشنباخ؟

- لن نذهبَ إلى هناك.

- إليزوين، فلنحافظ على هدوئنا. لقد أتينا إلى هنا لأنَّه ينبغي أن تبرئي، ولكي تبرئي ينبغي أن تلِجي البحرَ، ولكي تلِجي البحرَ ينبغي أن تذهبي إلى...

- قد ولجتُ البحرَ بالفعلِ، وقُضيَ الأمر.

- من فضلك؟

- لم يعد عندي ما أبرأ منه، أيُّها الأب بلوش.

- ولكنْ...

- إنَّني حيَّة.

- يا يسوع... لكنْ؛ ما الذي حدث، بحقِّ الجحيم؟

- لا شيء... عليكَ فقط أن تثق بي... أرجوك، عليكَ أن تثق...

- أنا... أنا واثقٌ بك، لكنْ...

- إذنْ؛ دعني أرحل. غداً.

- غداً...

ظلَّ الأب بلوش لابثاً هناك، يقلِّبُ بين يديهِ أوجهَ ذهولِه. ألفُ سؤالٍ في رأسِه. هو يعلم علمَ اليقين ما ينبغي القيام به. بضع كلماتٍ فحسب. كلماتٍ بيِّنة. كلماتٍ في منتهى البساطة: "وماذا سيقول والدُك؟". كلماتٌ بسيطةٌ. ومع ذلك، أضلَّتْ طريقها. وما من سبيلٍ إلى تصيُّدِها من جديد. عند تلك النُّقطة، كان الأب بلوش ما يزال يبحث عن ضالَّته، عندما سمعَ صوتَه يسأل:

- وكيف هو؟... البحرُ، كيف هو؟

ابتسمت إليزوين.

- فائق الجمال.

- ثمّ ماذا؟

لا تكفُّ عن الابتسام، إليزوين.

- عندَ نقطةٍ محدَّدةٍ، ينتهي.

غادرا في أوَّلِ الصَّباح. العربةُ انسلَّتْ على طول الطَّريق المحاذيةِ للبحر. ترك الأب بلوش جسدَه يتأرجح على المقعد بالامتثالِ البشوشِ نفسِه الذي حزمَ به أمتعته، مسلِّماً على الجميع، ثمّ مسلِّماً مرَّةً أخرى على الجميع، ناسياً عن عمدٍ حقيبةً من حقائبه، في النُّزلِ، لأنَّ عليك أن تَبذُرَ دوماً من ورائك ذريعةً للعودة، عندما تغادر. فأنت لا تعرف أبداً. بقي صامتاً إلى اللحظة التي لم يعد يرى فيها الطَّريقَ تلتفُّ والبحرَ ينأى. لا هُنيهة زيادةً على ذلك.

- أيكون من قبيل الشَّطط أن أسأل إلى أين نحن ماضيان؟

كانت إليزوين تعتصرُ ورقةً في يدها. ألقت نظرةً عليه.

- سانت بارتني.

- وما يكون هذا؟

- بلدةٌ - قالت إليزوين مُحكِمةً قبضتها على الورقة.

- بلدةٌ، أين؟

- ستستغرق الرِّحلة حوالي عشرين يوماً. إنَّها تقع في الرِّيف حولَ العاصمة.

- حوالي عشرين يوماً؟ ولكنَّه ضربٌ من الجنون.

- انظر إلى *البحر*، أيُّها الأب بلوش، إنَّنا نمضي قُدُماً.

- حوالي عشرين يوماً... آملُ أن يكون لديكِ سببٌ وجيهٌ للقيام برحلةٍ من قبيلِ هذه...

- إنَّنا نمضي قُدُماً...

- إليزوين، أقولُ لكِ، ما نحن ذاهبان لنفعل هناك؟

- ذاهبان لنبحث عن أحدهم.

- عشرون يوماً من السَّفر لأجل البحث عن أحدهم؟

- أجل.

- بحقِّ الجحيم، لكنْ؛ أقلُّه ينبغي أن يتعلَّق الأمرُ بأميرٍ، أو بالملكِ نفسِه، مَن يعلم؟! أو بقدِّيس...

- بطريقةٍ ما...

سكونٌ.

- إنَّه أميرالٌ.

سكونٌ.

- يا يسوع...

في أرخبيل تامال، كان يتصاعدُ كلَّ مساءٍ ضبابٌ يبتلعُ السُّفنَ ليردَّها عندَ الفجرِ مغطَّاةً كُلِّيّاً بالثَّلج. في مضيقِ قادوم، عندَ كلِّ قمرٍ جديدٍ، كانت المياه تتراجع تاركةً وراءَها ركاماً هائلاً من الرِّمال مأهولاً برخويَّاتٍ ناطقةٍ وطحالب سامَّة. قبالةَ صقلية اختفتْ جزيرةٌ وأخريان غيرها، لا وجود لهما

على الخارطة، برزتا على السَّطح في مكانٍ ليس ببعيد. في مياه دراغار، أُلقيَ القبضُ على القرصان ڤان ديل، الذي آثرَ أن يرمي نفسَه وليمةً لأسماك القرش بدلاً من الوقوع في أيدي البحريَّةِ الملكيَّة. في قصره، وأخيراً، كان الأميرال لانغلاي يواصل بحصافةٍ واهنةٍ تبويبَ التُّرَّهاتِ القابلة للتَّصديق والحقائق البعيدة الاحتمال التي كانت تصله من جميع بحار العالَم. كانت ريشته تخطُّ بصبرٍ لا يتبدَّل الجغرافية الغرائبيَّة السَّاحرة لعالَمٍ لا يعرف الكلل. في الحصافةِ، كان يرتاحُ عقلُه، في حصافةِ رتابةٍ يوميَّةٍ لا تتغيَّر. مطابقةً لنفسِها، كانت تترامى حياتُه. ومُهمَلةً، باعثةً على القلقِ إلى حدٍّ ما، كانت تتصلَّبُ حديقتُه.

- اسمي إليزوين - قالت الفتاة حين وقفتْ أمامَه.

أبهرَه ذلك الصَّوتُ: مُخمَلٌ.

- التقيتُ رجلاً يُدعى توماس.

مُخمَلٌ.

- عندما كان مقيماً هنا، في كنفك، كان اسمُه آدامز.

لبث الأميرال لونغلاي بلا حراكٍ، مثبِّتاً نظرتَه في عينَي تلك الفتاة الدَّاكنتين. لم يقلْ شيئاً. ذلك الاسم، لَكَم تمنَّى ألَّا يسمعَه مرَّةً أخرى أبداً. لقد أبقاه بعيداً لأيَّامٍ، لِشهور. لم تكن لديه سوى لحظاتٍ قليلةٍ؛ ليمنعه من أن يعودَ، ويجرحَ روحَه وذاكرتَه. فكَّر في أن ينهضَ ويتوسَّلَ إلى تلك الفتاة أن ترحل. لَسَوفَ يمنحها عربةً. مالاً.

لَكان فعلَ أيَّ شيء. لَكان أمرَها بالانصراف. باسم الملِك، فلتنصرفي.

تناهى إليه، كما لو من أصقاعٍ قصيَّةٍ، ذلك الصَّوتُ المخمَلُ. وقال:

- خذني في كنفِك.

لثلاثةِ وخمسين يوماً وتسع ساعاتٍ، لم يفهم ما الذي دفعه في تلك اللحظة ليجيبَ

- حسناً، إذا كانت هذه رغبتك.

ذلك فهمَه ذاتَ مساءٍ، وهو جالسٌ قربَ إليزوين، يُنصتُ إلى ذلك الصَّوتِ المخمليِّ يُلقي على مسمعِه

- في تمْبُكْتُو هذه هي السَّاعةُ التي يطيب للنِّساء فيها أن يُغنِّين لرجالهنَّ، ويفعلنَ الحبَّ. يرفعن الأخمرةَ عن الوجوه حتّى لتكاد الشَّمس تأفلُ، حيرَى من جمالهنَّ.

أحسَّ لونغلاي بخدرٍ عذبٍ وفائقٍ يصعدُ إلى قلبه. كما لو أنَّه ارتحلَ لسنينٍ، تائهاً، وفي النِّهاية وجدَ طريق العودة. لم يلتفتْ نحو إليزوين. غيرَ أنَّه قالَ بهدوءٍ

- أنَّى تعلمين بهذه القصَّة؟

- لا أعلم. ولكنِّي أعلمُ أنَّها لك. هذه، وكلُّ القَصَص الأُخَر.

مكثتْ إليزوين في قصرِ لونغلاي خمسَ سنين. الأب بلوش، خمسة أيَّام. في اليوم السَّادس قالَ لإليزوين إنَّه أمرٌ لا يُصدَّق، ولكنَّه نسيَ حقيبةً، هناك، في نُزلِ آلماير، ذلك لا يُصدَّق، حقَّاً، لكنْ ثمّة غرضٌ مهمٌّ، هناك في الدَّاخل، في داخل الحقيبة، ثوبٌ، وربَّما حتّى الكتاب مع كلِّ ما فيه من صلوات

- ماذا يعني قولُكَ ربَّما؟

- ربَّما... تعني، بلا ريبٍ، إذ أفكِّر الآن بالأمر، أنَّه، بلا ريبٍ، داخلَ تلك الحقيبة، تعلمين لا أستطيع بأيَّةِ حالٍ تركَه هناك... لا لأنَّ تلك الصَّلوات، يعلم الله، إنَّما هي صدقاتٌ، ولكنْ باختصارٍ، لأنَّ فقدانها على هذا النَّحو... آخذين بالحسبان أنَّ رحلةً تستغرق حوالي عشرين يوماً، ليست إلى هذا الحدِّ بعيدةً، إنَّها فقط مسألةُ...

- أيُّها الأب بلوش...

- ... مسلَّمٌ به على أيَّةِ حالٍ أنِّي سأعود... إنَّني ذاهبٌ فقط لأستعيدَ الحقيبة، ربَّما مكثتُ بضعة أيَّامٍ لأستريح، ومن ثمّ...

- أيُّها الأب بلوش...

- إنَّها مسألةُ شهرين، في أسوأ الأحوال، قد أعرِّجُ على أبيكِ، أعني، أريدُ القولَ، احتكاماً إلى المنطق، إنَّه لمن الأفضل كذلك أن أقوم...

- أيُّها الأب بلوش... يا إلهي كم سأشتاق إليك.

غادرَ في اليوم التَّالي. كان قد صعدَ إلى العربةِ بالفعلِ، عندما نزل منها ثانيةً، ودنا من لونغلاي قائلاً له:

- أتعرف ماذا؟ كنتُ أظنُّ أنَّ الأميرالات لا يغادرون البحرَ...

- أنا أيضاً كنتُ أقولُ لنفسي إنَّ القساوسةَ لا يغادرون الكنائس.

- أوه، حسناً، كما تعلم، الله موجودٌ في كلِّ مكان...

- البحرُ كذلك، يا أبانا. البحرُ كذلك.

غادرَ. ولم يترك من ورائه حقيبةً، هذه المرَّة.

إليزوين، مكثتْ في قصر لونغلاي خمس سنين. النِّظامُ المغرِقُ في التَّفاصيل لتلك الغُرَف، وصمتُ تلك الحياة، كانا يذكِّرانها بسجاجيدِ كايروول البيضاء، وبالمسالك الدَّائريَّة، وبالحياة المجرَّدةِ من خير ما فيها التي، ذاتَ يومٍ، أعدَّها والدُها لها. لكنَّ ذلك الذي كان هناك دواءً واستشفاءً لها، كان هنا يقيناً ساطعاً وبُرءاً بهيجاً. ذلك الذي عرفَتْهُ هناك حضنَ ضعفٍ، أعادت اكتشافه هنا شكلاً بلَّوريَّاً من أشكال القوَّة. في كنف لونغلاي تعلَّمتْ أنَّه من بين جميع الحيوات المحتملَة، علينا أن نلقي مراسينا في واحدةٍ فقط، كيما يتسنَّى لنا أن نتأمَّل، بصفاءِ ذهنٍ، كلَّ تلك الأُخَر. على لونغلاي أغدقتْ، واحدةً واحدة، آلافَ القصص التي بذرَها فيها رجلٌ وليلةٌ، وحده الله يعلم كيف، ولكنْ: على نحوٍ نهائيٍّ وثابتٍ لا يُمحى. بصمتٍ، كان هو يلقي إليها السَّمعَ. وكانت هي تلقي إليه القولَ. مُخمَلاً.

لم يأتيا البتَّةَ على ذِكرِ آدامز. مرَّةً واحدةً فقط قال لونغلاي بهدوءٍ، وقد رفعَ ناظريه بغتةً عن كُتُبه

- لقد عشقتُه، ذلك الرَّجلَ. إن كان في وسعكِ أن تعي ماذا يعني القولُ، لقد عشقتُه.

فاضت روحُ لونغلاي في صبيحةِ صيفٍ، منهوشةً بآلامِ وَجْدٍ شائنٍ ومصحوبةً بصوتٍ - مُخمَلٍ - وهو يبوحُ له بعطرِ حديقةٍ، هي أصغر وأجمل حدائق تمْبُكْتُو.

في اليوم التَّالي، رحلتْ إليزوين. إلى كايروول، أزمعت العودة. أستغرقَ الأمرُ شهراً، أم حياةً كاملةً، إلَّا أنَّ مآبَها إلى هناك كان. من جلِّ ما كان

ينتظرها، استطاعت تخيُّلَ القليل. كانت تعلمُ فقط أنَّ جميع تلك الحكايا، المحروسةِ في داخلها، ستظلُّ ملكاً لها وحدها، وإلى الأبد. كانت تعلمُ أنَّ أيما رجلٍ أحبَّت، ستنبشُ فيه عن مذاق توماس. كانت تعلمُ أنَّ أيَّ أرضٍ لن تمحوَ، في داخلها، بصمةَ *البحر*.

كلُّ شيءٍ آخرَ كان لا يستحقُّ حتّى تلك السَّاعةِ الذِّكرَ. اختلاقُه - هذا هو مكمنُ الرَّوعة.

٢. الأب بلوش

صلاةٌ لأجل رجلٍ ضلَّ طريقَه، وإذنْ؛ فلنكنْ صادقين، صلاةٌ لأجلي.

إلهي، أيُّها الرَّبُّ الرَّحوم
تحلَّ بالصَّبر
إنَّه أنا مرَّةً أخرى.

وبعدُ، ههنا الأمورُ
تسيرُ على ما يُرام،
مع البعضِ أفضل ممَّا مع البعض الآخر،
زبدةُ القولِ،
إنَّنا ندبِّرُ أمورنا،
ثمّة دائماً طريقةٌ ما
طريقةٌ لتخطِّي الصِّعاب،
إنَّك تفهم قولي،
ومِن ثمّ، ليست هذه هي المسألة.
إذا كان لديك الصَّبرُ على الإصغاء

على الإصغاء إليَّ

على.

المسألة هي هذه الطَّريق

الطَّريق الآسرة

هذه الطَّريق التي تمتدُّ

وتتمدَّدُ

وتتمادى

ولكنَّها لا تمتدُّ مستقيمةً

وهي القادرة على ذلك

ولا حتّى مُعوَجَّةً

وهي البارعة في ذلك

لا.

على نحوٍ غرائبيٍّ

تتفسَّخ.

صدِّقني

(لمرَّةٍ واحدةٍ، كن أنتَ مَن يصدِّقني)

إنَّها تتفسَّخ.

بحُكْمِ الإيجاز حُكْماً، أقول،

إنَّها تمضي

تارةً من هنا

وتارةً من هناك

مأخوذةً
ببرق حُرِّيَّةٍ
مباغتة.
مَن يعلم.

الآنَ، لا حظّاً من قدرك، ولكنْ أودُّ أن أشرح لك هذه المسألة، التي هي مسألةٌ بشريَّةٌ، لا مسألةٌ إلهيَّة، عندما تجد أنَّ الطَّريق التي تمتدُّ أمامَك تتفسَّخ، تتبدَّد، تنفرط، تنخسف، لا أعلم إن كنتَ تذكُر، وإنَّه لمن السَّهلِ ألَّا تذكُر، فالضَّياعُ، على العموم، مسألةٌ بشريَّة. هو ليس شأناً إلهيّاً. ينبغي أن تتحلَّى بالصَّبر، وتأذنَ لي أن أشرح لك. إنَّها مسألة لحظة. أوَّلاً وقبل كلِّ شيءٍ ينبغي ألَّا يضلِّلك الأمرُ، فتحيدَ عن حقيقة أنَّ هذه الطَّريق، وأتكلَّمُ هنا تقنيَّاً؛ حيث إنَّه أمرٌ يتعذَّر إنكاره، إنَّ هذه الطَّريق التي تمتدُّ وتتمدَّدُ وتتمادى، تحت عجلات هذه العربة، في واقع الأمر، رغبةً في التَّمسُّك بالوقائع، لا تتفسَّخ على الإطلاق. تقنيَّاً أتكلَّم. إنَّها تواصلُ التَّمدُّدَ مستقيمةً، بلا أدنى تردُّدٍ، ولا حتّى مفترَقٍ خجولٍ، لا شيء. مستقيمةً مثلَ مِرْدَن(*). ذلك أراه من هنا. غير أنَّ المسألة، ائذَنْ لي أن أقول، لا تكمن هنا. لا عن هذه الطَّريق، المَصوغةِ من ترابٍ وغبارٍ وحُصِيٍّ، نتحدَّث. إنَّما الطَّريقُ المقصودةُ طريقٌ أخرى. وهي لا تمتدُّ في الخارج، بل في الدَّاخل. ههنا في الدَّاخل. لا أعلم إن كنتَ تذكُر: إنَّها طريقي أنا. لكلِّ امرئٍ طريقه، هذا تعلمه أنتَ أيضاً. ذلك أنَّك، خلافاً لأيِّ شيءٍ آخر، لستَ دخيلاً على تصميمِ هذه الآلة التي هي نحن، هي نحن جميعاً، وكلٌّ على طريقته. طريقٌ باطنيَّةٌ، الكلُّ يملكها، شيءٌ يهوِّن، في الغالب، رسالةَ هذه الرِّحلة، رحلتنا، ونادراً فحسب، يعقِّدُها. هذه اللحظة إنْ هيَ إلَّا واحدةٌ من تلك

*) محورٌ عموديٌّ يحمل بكرةً للفِّ الخيوط عليها في آلة الغزل؛ (م).

اللحظات التي تعقِّدُ فيها الطَّريقُ الرِّسالةَ. بحُكْمِ الإيجازِ حُكْماً، أقول، إنَّها تلك الطَّريق، تلك الباطنيَّة، التي تتفسَّخ، التي تفسَّختْ، المبارَكة، التي لم يعد لها وجود. يحدث ذلك. صدِّقني. وليس ذلك بالأمر المستطاب. لا.

ظنِّي

أنَّه كانَ،

أيُّها الرَّبُّ الرَّحيم،

أنَّه كانَ

فيما أظنُّ

البحرَ.

البحرُ

يقلبُ الموجَ

والأفكارَ

والمراكبَ الشِّراعيَّة

عقلُكَ ينكرُكَ فجأةً

والطُّرقات

التي كانت بالأمس

لم تعد اليومَ شيئاً.

وعليه أظنُّ،

إنِّي أظنُّ،

أنَّ فكرتك تلك

عن الطُّوفان الكونيِّ

كانت

في الحقيقة

فكرةً بارعة.

لأنَّه

بغيةَ

ابتكارِ عقابٍ

أسألُ نفسي

إذا كان في الإمكان ابتكارُ

ما هو أفضل

من تركِ مسيحٍ بائسٍ

وحيداً

في عرضِ ذلك *البحر*.

لا شاطئَ حتّى.

لا شيء.

لا صخرةً.

لا حطاماً مهجوراً.

ولا حتّى ذلك.

لا علامةَ

يُفهَمُ منها

من أيِّ جهةٍ

نمضي

لكي نمضي إلى حتفنا.

ها أنت ترى، إذنْ،

أيُّها الرَّبُّ الرَّحيم،

أنَّ البحرَ

ضربٌ

من طوفانٍ كونيٍّ

مصغَّر.

في حجمِ غرفة.

تقف هناك،

تمشَّى

تأمَّل

تنفَّس

تكلَّم

تراقبُه،

من الشَّاطئ، أقصُد،

بينما هو

في الوقتِ نفسِه

يسلبكَ

أفكارَكَ المنيعة كالحجَر

التي كانت من قبلُ

طريقاً

يقيناً

قدَراً

و

في المقابل

يَهَبُ

حُجُباً

تتموَّجُ في رأسِك

كرقصةِ

امرأةٍ

من شأنها أن تدفعكَ

إلى الجنون.

عذراً على الاستعارة.

لكنْ؛ ليس من السَّهلِ أن تشرحَ

كيف أنَّك تفقد كلَّ جوابٍ

حين تنظر إلى *البحر*.

هكذا الآن، بحُكْمِ الإيجاز حُكْماً أقول، المسألةُ هي هذه، أنَّ لديَّ العديد من الطُّرق من حولي فيما لا أملك منها واحدةً في داخلي، أو على وجه الدِّقَّة، ولا واحدة في داخلي وأربع من حولي. أربع. الأولى: أن أعود إلى إليزوين، وأبقى هناك، إلى جانبها، فذلك أيضاً كان السَّبب الأوَّل، إذا صحَّ التَّعبير، لرحلتي هذه. الثَّانية: أن أواصلَ على هذا المنوال، وأمضي إلى نُزل آلماير، الذي ليس بالمكان المستطاب تماماً، نظراً لقربه المحفوفِ بالمخاطر من *البحر*، ولكنَّه أيضاً، وإلى مدىً لا يُصدَّق، جميلٌ للغاية، ووادعٌ،

وعذبٌ، ومُذيبٌ، ونهائيٌّ. الثَّالثة: أن أكْمِلَ قُدُماً، لا أنعطفُ نحو النُّزل، بل أعود إلى البارون، إلى كايروول، حيث ينتظرني، فبعد كلِّ شيءٍ منزلي هناك، وذلك هو مكاني. كان كذلك، على أقلِّ تقدير. الرَّابعة: وقد انهارَ كلُّ شيءٍ، أنْ أخلعَ هذا الرِّداء الأسودَ والحزين، وأختارَ طريقاً أخرى أيّاً تكن، أتعلَّم مهنةً، وأتزوَّج امرأةً متوقِّدةً، وليست في منتهى الجمال، أنجب بعض الأبناء، أشيخ، وفي نهاية المطاف أموتُ، يتغمَّدني عفوُكَ، وادعاً ومُتعباً، كأيِّ مسيحيٍّ عاديٍّ. كما ترى، فالقضيَّة ليست أنَّني لا أملك أفكاراً واضحة، فأفكاري فائقة الوضوح، إنَّما فقط إلى نقطةٍ معيَّنةٍ من هذه المسألة. أعرف حقَّ المعرفة ما هو السُّؤال. الجوابُ هو ما يُعوِزُني. تجري، هذه العربة، وأنا لا أعرف إلى أين. أتقصَّى الجوابَ، وفي ذهني تسقطُ العتمة.

هكذا

تلك العتمة

أحملُها

وأضعها

بين

يديك.

وأسألكَ

أيُّها الرَّبُّ الإله الرَّحيم

أن تبقيها معك

لساعةٍ فقط

أن تبقيها في يدِك

الوقتَ الكافيَ؛

لتذيبَ منها السَّوادَ؛

لتذيبَ منها السَّقمَ

الذي يذروه في الرَّأسِ

ذلك الظَّلام

وفي القلبِ

ذلك السَّواد،

فهلَّا فعلت؟

لربَّما

أمكنكَ فقط

أن تنحني

أن ترنو إليها

أن تبتسمَ لها

أن تفتحَها

وتسرقَ منها

قبسةَ نورٍ

وتتركها تسقط

ليكون شأني مِن ثمّ

أن أرى

أين

يمكن العثورُ

عليها.

شيءٌ لا يستحقُّ الذِّكرَ

عندَك،

عظيمُ الشَّأنِ

عندي.

هل تسمعني

أيُّها الرَّبُّ الإله الرَّحيم؟

لستُ أسألُك الكثيرَ

إذا سألتُكَ أنْ.

ليس إثماً

إذا رجوتُ أنَّكَ.

ليس سُخْفاً

إذا توهَّمتُ أنَّ.

إنَّها مِن ثمّ مجرَّد صلاة،

طريقةٌ لتدوينِ العطرِ،

عطرِ الانتظار.

دوِّنْ أنتَ،

أنَّى شئتَ،

الدَّربَ

التي أضعْتُها.

حسبيَ منكَ علامةٌ،

شيءٌ ما،

خدشٌ

رقيقٌ

على بلَّورِ

هاتين العينين

اللتين تنظران

ولا تبصران،

سأبصرُه أنا.

دوِّن

على وجهِ الأرضِ

كلمةً واحدةً

خُطَّتْ لأجلي،

ولسوفَ

أقرؤها أنا.

اقتلعْ

هُنيهةً واحدةً

من هذا الصَّمت،

ولَسَوف أسمعُها.

لا تخفْ،

فأنا لستُ خائفاً.

ولتنزلقْ

هذه الصَّلاة بعيداً

بقوَّةِ الكلمات

إلى ما وراء قفصِ العالَم

حيث لا يدري أحد.

آمين.

صلاةٌ لأجل رجلٍ وجدَ طريقَه، وإذنْ؛ فلنكنْ صادقين، صلاةٌ لأجلي.

إلهي أيُّها الرَّبُّ الرَّحوم

تحلَّ بالصَّبر

إنَّه أنا مرَّةً أخرى.

يموتُ بهوادةٍ،

هذا الرَّجل،

يموتُ بهوادةٍ

كأنَّما يريدُ

أن يهشِّمَها،

أن يفتِّتَها

تحتَ أصابعه،

تلك الحياة الأخيرة

التي يملك.

يموتُ الباروناتُ

مثلما يموتُ البشرُ،

هذا نعلمُه الآن.

إنَّني هنا،

جليٌّ

أنَّ هذا هو مكاني،

هنا إلى جانبه،

هو البارون في نزعِه الأخير.

يريد أن يسمعَ

عن ابنته

التي لا وجود لها،

ولا أحد يعلم أين تكون،

يريد أن يسمعَ

أنَّها حيَّةٌ

حيث هي

وليست ميِّتةً في *البحر*

بل في البحرِ

برِئَتْ.

ها أنا أروي له

وها هو يموت

لكنَّه شيءٌ أقلُّ بقليلٍ من الموتِ

الموتُ هكذا.

ها أنا أحدِّثه

بالقرب منه

بشيءٍ من الهدوء

وجليٌّ

أنَّ مكاني

كان

هنا.

أنتَ، من تلك الطَّريق

أخرجتَني

وبصبرٍ

حملتَني

صوبَ هذه السَّاعة

التي تحتاجُ إليَّ.

وأنا الذي

كنتُ ضائعاً

في قلبِ هذه السَّاعةِ

عثرتُ

على نفسي.

لَمِن الجنون الظَّنُّ

أنَّكَ كنتَ حقّاً على وشكِ

الإصغاء

في ذلك اليوم،

على وشك الإصغاء

إليَّ.

إنَّما يصلِّي المرءُ

لئلَّا يبقى وحيداً

يصلِّي المرءُ

ليراوغَ الانتظار

ولا يحلمُ أبداً

أنَّ الله

يطيبُ له الإصغاء.

أليس جنوناً؟

لقد أصغيتَ إليَّ.

لقد خلَّصتَني.

وبطبيعةِ الحال، إذا جازَ لي، فإنَّني، بكلِّ تواضعٍ، أعتقدُ أنَّه لم يكن ثمّة لزومٌ حقّاً لِنَسْفِ الطَّريق إلى كوارتايل، الأمر الذي أسخطَ السُّكَّان المحليِّين أيضاً، فلقد كان كافياً، ربَّما، ما هو أخفُّ من ذلك، إشارةٌ أشدُّ تكتُّماً، أو لا أدري، شيءٌ أكثر حميميَّةً، بيني وبينك. على هذه الصُّورة، إن كان لي أن أبدي شيئاً من الاعتراض، فإنَّ مشهدَ الخيولِ المسمَّرة على الطَّريق التي كانت تعيدُني إلى إليزوين، والحقُّ أنَّه لم يكن ثمّة من سبيلٍ لحملها على

المضيِّ قدماً، بدا مشهداً ناجحاً من النَّاحية الفنِّيَّة، بل وحتَّى مُذهِلاً ربَّما، ألا تعتقد ذلك؟، لقد أدركتُ على نحوٍ أقلَّ بكثيرٍ أيضاً أنَّه يحدث لك، من حينٍ لآخر، أن تبالغَ في صنيعِك، أم إنَّني أخطئ؟، أيَّاً يكن فإنَّ أولئك الذين هناك ما فتِئوا يروون ذلك المشهد، فمشهدٌ كمثلِ هذا محالٌ أن يُنسَى. في النِّهاية أعتقدُ أنَّه كان كافياً ربَّما ذلك الحلم الذي رأيتُ فيه البارون ينهض من فراشه، ويصيح "أيُّها الأب بلوش! أيُّها الأب بلوش!"، لَكان شيئاً مُحكَمَ التَّدبير، من ذلك المنظور، ولا يترك هوامشَ للشَّكِّ، وبواقع الحال، كنتُ بالفعل، صبيحةَ اليوم التَّالي، قد اتَّخذتُ طريقي إلى كايروول، فانظرْ، إذنْ، كيف أنَّ القليل يكفي في النِّهاية. لا، إنَّني أقول لك ذلك، لأنَّه سيحدث معكَ مرَّةً أخرى، فتعرف إذَّاكَ كيف تدبِّر الأمرَ. الحلمُ شيءٌ يقوم بوظيفته على أتمِّ وجه. إذا أردتَ نصيحتي، تلك هي الطَّريقة المثلى. لتنجيةِ شخصٍ ما، في الوقت المناسب. حلمٌ ما.

هكذا
أحتوشُ إليَّ
هذا الرِّداء الأسود
الرِّداء الحزين
وكلَّ هذه الآكام
الآكامِ الجذلى
أجعلُها في عينيَّ
وعلى كاهلي.
إلى أبد الآبدين(*)

---

*) في الأصل باللاتينيَّة؛ (م)

ذا هو مكاني.
كلُّ شيءٍ
أكثر بساطةً
الآن.
الآنَ
بسيطٌ
هو
كلُّ شيء.
ذلك الذي يتعيَّن القيام به بعدُ
سأجيدُ القيامَ به بنفسي.
فإن كان يجديك شيئاً،
بلوش هذا،
المدين لك بحياتِه،
فإنَّك تعلم أين يكون.

ولتنزلقْ
هذه الصَّلاة بعيداً
بقوَّةِ الكلمات
إلى ما وراء قفصِ العالَم
حيث لا يدري أحد.
آمين.

٣. آن دوڤِريا

عزيزي أندريه، يا عشقي ومعشوقي من قبل آلاف السِّنين،

الطِّفلة التي أعطتك هذه الرِّسالة اسمُها ديرا. قلتُ لها أن تُقرئك إيَّاها، فورَ وصولك إلى النُّزل، قبل أن تدعك تصعد إليَّ. حتّى آخر سطرٍ فيها. لا تحاول أن تفتريَ عليها. مع تلك الطِّفلة لا يمكن الافتراء.

اجلسْ، إذنْ. وأصغِ إليَّ.

لا أعلم كيف عثرتَ عليَّ. هذا مكانٌ يكادُ يكونُ لا وجودَ له. وإذا سألتَ عن نُزلِ آلماير، نظرَ إليك النَّاسُ حائرين، ولم يُحيروا جواباً. إن كان زوجي قد بحث عن ركنٍ في الأرضِ بعيدِ المنال، لأجل استشفائي، فإنَّه قد عثرَ عليه. الله وحده يعلم كيف عثرتَ عليه أنتَ أيضاً.

لقد تسلَّمتُ رسائلكَ، ولم تكن من هيِّناتِ الأمورِ قراءتُها. فليس من دون ألمٍ يُعادُ فتْحُ جراحِ الذِّكريات. لو أنَّني واصلتُ، ههنا، رغبتي فيك وانتظاري لك، لكانت تلك الرَّسائل فرحاً مبهراً. ولكنَّ هذا مكانٌ عجيب. الواقعُ يتبخَّرُ وكلُّ شيءٍ يتحوَّل إلى ذاكرة. حتّى أنتَ، شيئاً فشيئاً، كَفَفْتَ عن كونك رغبةً، وانقلبتَ ذكرى. لقد وصلتني مكاتيبُك وكأنَّها رسائلُ ناجيةٌ من عالَمٍ لم يعد له وجود.

لقد أحببتُكَ، يا أندريه، ولا أستطيع أن أتصوَّر أنَّه يمكن للمرء أن يحبَّ بقوَّةٍ أكبر. كنتُ أملك حياةً، وكانت مبعثَ سعادةٍ لي، ولقد تركتُها تنتهي

حُطاماً فقط لكي أكون معك. لم أحبَّكَ لملَلٍ، أو لوحدةٍ، أو لِنزوة. أحببتُكَ لأنَّ الرَّغبة فيك كانت أقوى من أيَّةِ سعادة. وكنتُ أعلم مِن ثمّ أنَّ الحياة ليست جبَّارةً بما يكفي لتحافظ على تماسُكِ كلِّ الأشياء التي يمكن للرَّغبة أن تتخيَّلَها. بيدَ أنَّني لم أحاول كبحَ جماحي، ولا كبحَ جماحِك. كنتُ أعلمُ أنَّها هي التي ستفعل ذلك. وقد فعلَتْه. انفجرتْ دفعةً واحدة. كان ثمّة شظايا في كلِّ مكان، وكلُّ شظيَّةٍ تبترُ كأنَّها نصل.

ثمّ وصلتُ إلى هنا. وهذا ليس من السَّهل تفسيرُه. كان زوجي يظنُّه مكاناً يُستشفَى فيه. غير أنَّ الاستشفاءَ كلمةٌ جدٌّ ضئيلةٌ قياساً بما يحدث هنا. ضئيلةٌ وبسيطة. هذا مكانٌ تأخذ فيه إجازةً من نفسِك. كلُّ ما كنتَه يوماً تَراه ينزلق عنك، رويداً رويداً. وأنتَ تتركه وراءَك، خطوةً إثْرَ خطوة، على هذا الشَّاطئ الذي لا يعرف الوقتَ ويحيا يوماً واحداً، هو دائماً ذاتُ اليوم. الحاضرُ يذوبُ وتنقلبُ أنتَ ذاكرة. تنسلُّ بعيداً عن كلِّ شيء، عن المخاوفِ، والمشاعرِ، والرَّغبات: تحفظُها، كمثلِ ملابس مُهمَلة، في صُوانِ حكمةٍ غامضة، وسلامٍ غير مرجوٍّ. أتستطيع فهمي؟ أتستطيع أن تفهم كم هو أخَّاذ - كلُّ هذا؟

صدِّقني، ليس الأمرُ مجرَّد طريقةٍ، أكثر نعومةً، في الموت. لم أشعر يوماً بأنَّني أكثر حياةً من الآن. إنَّه شيءٌ مغاير. ذلك الذي صرتُه، صرتُهُ الآن: وهنا، والآن، يحيا فيَّ كالخطوةِ في دمغةِ القدَم، كالصَّوتِ في الصَّدى، وكاللغزِ في جوابه. لا يموتُ أبداً، أبداً. ينسلُّ من الجانب الآخر للحياة. بخفَّةٍ تبدو رقصاً.

إنَّه وسيلةٌ لخسران كلِّ شيءٍ، لقاءَ العثور على كلِّ شيء.

إن كنتَ قادراً على فهم كلِّ هذا، ستصدِّقني حين أقول لك إنَّه

يستحيلُ عليَّ التَّفكيرُ في المستقبل. المستقبلُ فكرةٌ انسلختْ عنِّي. ليست بالشَّيء الجوهريِّ. لم تعد تعني شيئاً. ليس لي عينان بعدَ اليومِ أراه بهما. إنَّك تتحدَّث عنه في كثيرٍ من الأحيان على هذا النَّحوِ، في رسائلك. إنيِّ أكابدُ لأتذكَّر معناه. معنى المستقبل. مستقبلي، قد باتَ كلُّه هنا، والآنَ. مستقبلي سيكون سكونَ زمنٍ ثابتٍ، زمنٍ يجمَعُ اللحظاتِ ليراكمها واحدةً فوق الأخرى، كما لو كانت وحدةً واحدة. من الآن إلى يومِ أموت، ستكون تلك اللحظةُ، فحسب.

لن أتبَعَكَ، يا أندريه. لن أشيِّدَ أيَّ حياةٍ أخرى، لأنَّني للتَّوِّ تعلَّمتُ أن أكون المسْكَنَ لتلك الحياة التي هي حياتي. وهذا يروقني. لا أريدُ شيئاً آخرَ. إنَّني أفهمُها، جُزُرَكَ القصيَّة، وأفهمُ أحلامَك، وتصوُّراتك. لكنْ: لم تعد ثمّة طريقٌ يمكن أن تحملني إلى هناك. ولن تستطيعَ أنتَ ابتكارَها، من أجلي، فوق أرضٍ لا وجودَ لها. اغفر لي، يا عشقيَ المعشوق، ولكنَّ مستقبلَكَ، لن يكون مستقبلي.

ثمّة رجلٌ، في هذا النُّزل، يملك اسماً غريباً، ويدرسُ أين ينتهي *البحر*. في هذه الأيَّام، فيما أنتظرُك، حدَّثتُه عنَّا وعن الخوف الذي يتملَّكني من مجيئك مع اشتهائي ذلك. إنَّه رجلٌ طيِّبٌ وصبور. ظلَّ يُصغي إليَّ. إلى أنْ قال لي ذاتَ يومٍ: "اكتبي إليه". يقول إنَّ الكتابة إلى أحدهم هي الطَّريقة الوحيدة لانتظاره دون أن نتألَّم. وقد كتبتُ إليك. كلُّ ما يعتلجُ في داخلي وضعتُه في هذه الرِّسالة. يقول، ذلك الرَّجلُ الغريبُ الاسمِ، إنَّك ستفهم. يقول إنَّك ستقرؤها، ثمّ ستخرج إلى الشَّاطئ، وبينما أنت تتمشَّى على حافَّة *البحر* ستفكِّر في كلِّ شيءٍ، وستفهم. سيستغرق الأمرُ ساعةً أو يوماً، لا يهمُّ. ولكنَّك في النِّهاية ستعود إلى النُّزل. يقول إنَّك ستصعدُ الأدراجَ، ستفتحُ بابي، ودون أن تقولَ لي شيئاً ستأخذني بين ذراعيك، وتقبِّلني.

أعلمُ أنَّ ذلك يبدو سخيفاً. لكنْ؛ أحبُّ أن يحدثَ حقّاً. إنَّها طريقةٌ لطيفةٌ للتَّلاشي، التَّلاشي بين ذراعَي الآخر.

لا شيء يمكن أن يسلبني ذكرى الأيَّام التي، بكلِّ جزءٍ من كياني، كنتُ فيها

المخلصةَ لك آن

٤. بلاسُّون

كتالوجٌ تمهيديٌّ للأعمال الفنِّيَّة للرَّسَّام ميشيل بلاسُّون مرتَّبةً ترتيباً زمنيَّاً منذ مغادرةِ المذكورِ محلَّ إقامته إلى نُزل آلماير (منطقة كوارتايل) وصولاً إلى لحظةِ موتِه.

حرَّره، لمصلحةِ الأجيال القادمة، البروفسور إسماعيل أدِلانتي إسماعيل بارتلبوم، استناداً إلى خبرته الشَّخصيَّة وإلى شهاداتٍ أخرى جديرةٍ بالثِّقة.

مُهدَىً إلى السَّيِّدة آن دوڤِريا

١. بحرٌ محيطٌ، زيتٌ على قماش، ١٥ x ٢١,٦ سم

من مجموعة بارتلبوم

الوصف.

بيضاء بالكامل.

٢. بحرٌ محيطٌ، زيتٌ على قماش، ٨٠,٤ x ١١٠,٥ سم
مج. بارتلبوم

الوصف.
بيضاء بالكامل.

٣. بحرٌ محيطٌ، ألوانٌ مائيَّة، ٣٥ x ٥٠,٥ سم
مج. بارتلبوم

الوصف.
بيضاء مع ظلالٍ مُغْرَوِيَّةٍ غامضةٍ في الجهةِ العلويَّة.

٤. بحرٌ محيطٌ، زيتٌ على قماش، ٤٤,٢ x ١٠٠,٨ سم
مج. بارتلبوم

الوصف.
بيضاء بالكامل. الإمضاءُ بالأحمر.

٥. بحرٌ محيطٌ، تخطيطٌ أوّليٌّ، قلمُ رصاصٍ على ورق، ١٢ x ١٠ سم
مج. بارتلبوم

الوصف.
يمكن تمييز نقطتين، في منتصف الورقة، قريبتين للغاية من بعضهما. الباقي بلونٍ أبيض. (على الحافَّة اليمنى، بقعةٌ: لطخةُ زيتٍ؟)

٦. بحرٌ محيطٌ، ألوانٌ مائيَّة، ٣١,٢ x ٢٦ سم
مج. بارتلبوم. في الوقت الرَّاهن، ولفترةٍ مؤقَّتةٍ تماماً، في عُهدةِ السَّيِّدة ماريَّا لويخيا سِبِرينا هوهنهايت.

الوصف.
بيضاء بالكامل.
عندَ تسليمي إيَّاها، قال لي صاحب العمل الفنِّيِّ، حرفيَّاً:
"إنَّه أفضل ما صنعتُ إلى الآن". النَّبرةُ كانت نهايةَ الرِّضى.

٧. بحرٌ محيطٌ، زيتٌ على قماش، ١٢٠,٤ x ٨٠,٥ سم
مج. بارتلبوم

الوصف.
يمكن تمييز بقعتين ملوَّنتين: واحدةٌ، مُغرويَّةٌ، في الجهة العلويَّة من اللوحة، وواحدةٌ، سوداء، في الجهة السُّفلى. الباقي، أبيض. (على الوجه الخلفيِّ، تعليقٌ بخطِّ اليد: عاصفةٌ رعديَّة. وفي الأسفل: تاتاتُمْ تاتاتُمْ تاتاتُم(*))

٨. بحرٌ محيطٌ، باستيلٌ على ورق، ١٩ x ٣١,٢ سم
مج. بارتلبوم

*) لا تعني شيئاً. شيءٌ من قبيل الدَّندنة؛ (م).

الوصف.

في منتصف الورقة، منزاحاً قليلاً نحو اليسار، شراعٌ صغيرٌ أزرق. الباقي، أبيض.

٩. بحرٌ محيطٌ، زيتٌ على قماش، ٢٤٠,٨ x ٢٢٠,٥ سم

متحفُ كوارتايل المحليِّ. رَقْم الفهرسة: ٨٧

الوصف.

على اليمين، حيدٌ صخريٌّ داكنٌ يبرز من الماء. أمواجٌ شاهقةٌ؛ إذْ تتكسَّر على الصُّخور، تكوِّن الزَّبدَ بمشهديَّةٍ مُبهرة. في قلب النَّوِّ تُرى سفينتان وهما ترضخان للبحر. أربعة زوارق نجاة تتدلَّى على حافَّةِ دُوَّامة. على الزَّوارق، تكوَّمَ الموشكون على الغرق. بعضُهم، وقد سقطَ في *البحر*، تبتلعُه الآنَ الهاوية. غيرَ أنَّ هذا البحرَ عالٍ، أعلى بكثيرٍ هناك صوبَ الأفق منه هنا في الجانب الأقرب، وهو يحجب الأفقَ عن الرُّؤية، مخالفاً كلَّ منطقٍ، فلكأنَّ العالمَ برمَّته ينهض مع نهوضه ولكأنَّنا نغرقُ، هنا حيث نحنُ، في جوفِ الأرض، فيما غلالةٌ تزداد إلى ما لا نهايةٍ مهابةً، توشك أن تغلِّفنا والليلُ يهبطُ بهلعٍ على هذا الوحش. (إسنادٌ مشكوكٌ فيه. يكاد يكون من الدَّامغ أنَّها زائفة)

١٠. بحرٌ محيطٌ، ألوانٌ مائيَّة، ٢٠,٨ x ١٦ سم

مج. بارتلبوم

الوصف.

بيضاء بالكامل.

١١. بحرٌ محيطٌ، زيتٌ على قماش، ٦٦,٧ x ٨١ سم

مج. بارتلبوم

الوصف.

بيضاء بالكامل. (تالفةٌ للغاية. أغلب الظَّنِّ أنَّها وقعت في الماء)

١٢. بورتريه لإسماعيل أدِلانتي إسماعيل بارتلبوم، قلمُ رصاصٍ على ورق، ٤١,٥ x ٤١,٥ سم

الوصف.

بيضاء بالكامل. في المنتصف، بحروفٍ مائلةٍ، مكتوبٌ: بارتلب

١٣. بحرٌ محيطٌ، زيتٌ على قماش، ٤٦,٢ x ٥١,٩ سم

مج. بارتلبوم

الوصف.

بيضاء بالكامل. ولكنْ؛ في حالةِ هذه اللوحة، على وجه التَّحديد، ينبغي أن يُفهَمَ هذا التَّعبير بمعناه الحرفيِّ: القماشُ مغطًّى كُلِّيّاً بضرباتِ ريشةٍ كثيفةٍ باللون الأبيض.

١٤. في نُزل آلماير، زيتٌ على قماش، ٥٠ x ٤٢ سم

مج. بارتلبوم

الوصف.

رسمٌ لملاكٍ بأسلوب ما قبل الرفائيليَّة. الوجه مجرَّدٌ من القسمات. الجناحان يزدهيان بثراءٍ لونيٍّ كبير. خلفيَّة ذهبيَّة.

١٥. بحرٌ محيطٌ، ألوانٌ مائيَّة، ١١٨ x ٨٠,٦ سم

مج. بارتلبوم

الوصف.

ثلاث بقعٍ صغيرةٍ زرقاء اللون في الأعلى جهةَ اليسار (أشرعة؟). الباقي، أبيض. على الوجه الخلفيِّ، تعليقٌ بخطِّ اليد: منامةٌ وجوارب.

١٦. بحرٌ محيطٌ، قلمُ رصاصٍ على ورق، ٢٨ x ٣١,٧ سم

مج. بارتلبوم

الوصف.

ثمانية عشر شراعاً، بأحجامٍ مختلفة، موزَّعة دونما ترتيبٍ معيَّن. في الزَّاوية اليسرى أسفل الورقة، رسمٌ أوَّليٌّ صغير لسفينةٍ ثلاثيَّة الأشرعة، من الواضح أنَّ يداً أخرى أنجزتْه، ربَّما كانت يدَ طفل (دُوْل؟).

١٧. بورتريه للسَّيِّدة آن دوفِريا، زيتٌ على قماش، ٥٢,٨ x ٣٠ سم

مج. بارتلبوم

الوصف.

يدُ امرأةٍ بلونٍ باهتٍ للغاية، الأناملُ مستدقَّةٌ بشكلٍ أخَّاذ. خلفيَّةٌ بيضاء.

١٨، ١٩، ٢٠، ٢١. بحرٌ محيطٌ، قلمُ رصاصٍ على ورق، ١٢ x ١٢ سم

مج. بارتلبوم

الوصف.

سلسلةٌ من أربعةِ رسومٍ أوَّليَّة تبدو متطابقةً تماماً. خطٌّ أفقيٌّ بسيطٌ يجتازها من اليسار إلى اليمين (أو أيضاً من اليمين إلى اليسار، إذا شئتَ) عندَ منتصف ارتفاعها على وجه التَّقريب. كان بلاسُّون قد أكَّد، في الواقع، أنَّ الأمر يتعلَّق بأربع صورٍ مختلفةٍ جذريّاً. لقد قال بالحرف الواحد: "إنَّها أربع صورٍ مختلفةٍ جذريّاً". انطباعي الشَّخصيُّ يقول إنَّها تمثِّل المشهدَ نفسَه في أربع لحظاتٍ مختلفةٍ متعاقبةٍ من النَّهار. عندما عرضتُ وجهة نظري هذه على الفنَّان كان جوابه لي، بالحرف الواحد: "أوَتظنُّ ذلك؟".

٢٢. (بلا عنوان)، قلمُ رصاصٍ على ورق، ٢٠,٨ x ١٣,٥ سم

مج. بارتلبوم

الوصف.

رجلٌ في مقتبلِ العمر، على الشَّاطئ، يدنو من *البحر* حاملاً على ذراعيه الجسدَ المهجورَ لامرأةٍ لا ثياب عليها. قمرٌ في السَّماء وانعكاساتٌ على الماء.

هذا الرَّسم الأوَّليُّ، الذي أبقيتُه طويلاً طيَّ الكتمان نزولاً عند رغبةِ الفنَّان على وجه التَّحديد، أعلنه اليومَ على الملأ نظراً للوقت الذي مرَّ على الأحداث الدِّراماتيكيَّة المرتبطة به.

٢٣. بحرٌ محيط، زيتٌ على قماش، ٧١,٦ x ٣٨,٤ سم

مج. بارتلبوم

الوصف.

خدشٌ بغيضٌ بلونٍ أحمر داكن يقصُّ القماشَ من اليسار إلى اليمين. الباقي، أبيض.

٢٤. بحرٌ محيط، زيتٌ على قماش، ١٢٧ x ١٠٨,٦ سم

مج. بارتلبوم

الوصف.

بيضاء بالكامل. هي العمل الأخير المنجَز خلال إقامته في نُزل آلماير، بلدة كوارتايل. أهداها الفنَّان إلى النُّزل، مُبدياً رغبته في أن تُعرَضَ على جدارٍ مواجهٍ للبحر. في وقتٍ لاحقٍ، وعِبرَ قنواتٍ، لن أتمكَّن أبداً من الإفصاح عنها، وصلتْ إلى حوزتي. أستبقيها عندي، على أن تبقى في متناول أيِّ شخصٍ قد يتمكَّن من المطالبة بحقِّه في ملكيَّتها.

٢٥، ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣٠، ٣١، ٣٢. (بلا عنوان)، زيتٌ على قماش،

أبعادٌ مختلفة.

متحف سانت جاك دو غرانس

الوصف.

ثمانية رسومٍ لبحَّارةٍ، يمكن عزوُها فنِّيّاً إلى أسلوب بلاسُّون الأوَّل. رئيسُ الدَّيرِ فيرون، الذي امتلك من اللطف المقرَّب إلى النَّفس ما جعله يشرِّفني بلقائه، يشهدُ أنَّ صاحبَ العمل قد أنجزَه من غير مقابلٍ، كدليلِ حبٍّ لبعض الشَّخصيَّات التي عقد معها أواصرَ صداقةٍ خالصةٍ إبَّانَ إقامته في سانت جاك. رئيسُ الدَّيرِ نفسُه اعترف لي بأسلوبٍ لطيفٍ بأنَّه طلب من الرَّسام أن يرسم بورتريهاً له، بيدَ أنَّه حصل على رفضٍ مهذَّبٍ وقاطع. ظنِّي أنَّ الكلمات الدَّقيقة التي تلفَّظ بها في ذلك المقام كانت: *"للأسف ما أنتَ ببحَّارٍ، ومِن ثمّ فليسَ ثمّة بحرٌ على وجهِك. كما تعلم، أنا الآن أجيدُ رسمَ البحرِ وحسب"*.

telegram @ktabpdf

٣٢. بحرٌ محيط، زيتٌ على قماش، (الأبعاد غير مؤكَّدة) (لوحةٌ مفقودة)

الوصف.

بيضاء بالكامل. هنا أيضاً أثمِّن عالياً شهادة فيرون رئيسِ الدَّير. كانت لديه الصَّراحة للإقرار بأنَّ اللوحة، التي عُثِر عليها في مكان إقامة الرَّسَّام بعد يومٍ من رحيله، قد نُظِرَ إليها، لسوء فَهْمٍ لا يمكن تفسيره، على أنَّها قطعة قماشٍ صِرْفٍ وبسيطٍ، لا على أنَّها عملٌ فنِّيٌّ مكتملٌ، ولا يقدَّر بثمن. على هذا النَّحو حُمِلتْ بعيداً من قِبل مجهولين، وما تزال إلى اليوم في عدادِ المفقودات.

٣٤، ٣٥، ٣٦. (بلا عنوان)، زيتٌ على قماش، ٦٨,٨ x ٨٢ سم
متحف غالن-مارتندورف، هلبورغ

الوصف.
تمُثِّل ثلاث نسخٍ دقيقةٍ للغاية، متطابقةٍ تقريباً، لإحدى لوحات هانس فان دايك، ميناء سكالِن. يصنِّفها متحفُ غالن- مارتندورف على أنَّها أعمالٌ لِفان دايك نفسِه، مقترفاً بذلك سوءَ فَهْمٍ مُحزِن. مثلما أشرتُ عدَّة مرَّاتٍ للقيِّم على المتحف، البروفسور برودرفونس، أنْ يلاحظَ، فإنَّ اللوحات الثلاث لا تحمل فقط على وجهها الخلفيِّ التَّعليقَ الصَّارخَ "فان بلاسُّون"، بل إنَّها تُظهرُ ميزةً خاصَّةً تجعل من أبوَّة بلاسُّون لها أمراً لا لبس فيه: في اللوحات الثَّلاث كلِّها يصوِّرُ الرَّسامُ نفسَه واقفاً على الرَّصيف البحريِّ يعمل، في الأسفل إلى اليسار، وأمامه مِسندٌ، رسم عليه لوحةٌ بيضاء بالكامل. في النُّسخة الأصليَّة لِفان دايك، تبدو اللوحة ملوَّنةً بصورةٍ منتظمة. البروفسور برودرفونس، وبرغم إقراره بصحَّةِ ملاحظتي، لم يرَ أيَّ معنىً ذي قيمةٍ خاصَّةٍ فيها. البروفسور برودرفونس هو، علاوةً على ذلك، باحثٌ غيرُ كفءٍ ورجلٌ لا يُطاق على الإطلاق.

٣٧. بحيرةُ كونستانس، ألوانٌ مائيَّة، ٢٧ x ٣١,٩ سم
مج. بارتلبوم

الوصف.
عملٌ مُنجَزٌ بدقَّةٍ وذوقٍ رفيعٍ، يُصوِّر بحيرة كونستانس الشَّهيرة عندَ الغروب. الألوان دافئةٌ ومتلاشيةٌ بعضُها في بعضٍ. لا تظهرُ هيئاتٌ بشريَّة. غيرَ أنَّ الماء والضِّفافَ يتمُّ تقديمها بشعريَّةٍ وكثافة. أرسلَ لي بلاسُّون هذه

اللوحة مُرفَقةٌ بمذكَّرةٍ موجزةٍ، نصُّها الحرفيُّ أنقلُه هنا كاملاً: *"إنَّه الوهنُ، يا صديقي. الوهنُ الجميل. وداعاً"*.

٣٨. بحرٌ محيط، قلمُ رصاصٍ على ورق، ٢٦ x ١٣,٤ سم
مج. بارتلبوم

الوصف.
مرسومةٌ هنا، بدقَّةٍ وعنايةٍ، يدُ بلاسُّون اليسرى. فهوَ، وهنا يحتِّمُ عليَّ الواجبُ أن أذكرَ، كان أعسرَ.

٣٩. بحرٌ محيط، قلمُ رصاصٍ على ورق، ٢٦ x ١٣,٤ سم
مج. بارتلبوم

الوصف.
يدُ بلاسُّون اليسرى. من غيرِ تظليل.

٤٠. بحرٌ محيط، قلمُ رصاصٍ على ورق، ٢٦ x ١٣,٤ سم
مج. بارتلبوم

الوصف.
يدُ بلاسُّون اليسرى. القليل من الخطوط، بالكاد تَبين.

٤١. بحرٌ محيط، قلمُ رصاصٍ على ورق، ٢٦ x ١٣,٤ سم

مج. بارتلبوم

الوصف.
يدُ بلاسُّون اليسرى. ثلاثة خطوطٍ وتظليلٌ خفيف.

مُلاحَظة. أُعطِيَ هذا الرَّسمُ لي، جنباً إلى جنب مع الرُّسوم الثلاثة السَّابقة، من قِبَل الدُّكتور مونيير، الطَّبيب الذي اعتنى ببلاسُّون خلال الفترة الوجيزة والأليمة لمرضِه الأخيرِ (التهابٌ رئويٌّ). وفقاً لشهادته، التي لا أملك أيَّة حجَّةٍ للتَّشكيكِ فيها، فإنَّها تمثِّل الأعمال الأربعة الأخيرة التي كرَّس بلاسُّون نفسَه لها، وهو عالقٌ في السَّريرِ يزدادُ وهناً يوماً بعدَ يوم. ووفقاً للشَّهادة نفسِها، فإنَّ بلاسُّون قضى نحبَه بوداعةٍ، في عزلةٍ هادئةٍ وبروحٍ مُترَعةٍ بالسَّكينة. قبل دقائق قليلةٍ من موتِه تلفَّظَ بالعبارة التَّالية: *"ليست مسألَةَ ألوانٍ، إنَّها مسألةُ موسيقى، أتفهمُ ما أعني؟ لقد استغرق الأمرُ منِّي وقتاً طويلاً، أمَّا الآن (صمتٌ)"*.

كان رجلاً نبيلاً وذا موهبةٍ فنِّيَّةٍ عظيمةٍ بكلِّ تأكيد. كان صديقي. ولقد أحببتُه.

إنَّه يرقدُ الآن، نزولاً عند رغبتِه التي صرَّح بها قبل موتِه، في مقبرة كوارتايل. الشَّاهدُ، على قبرِه، عبارةٌ عن حجرٍ بسيطٍ. أبيض بالكامل.

٥. بارتلبوم

هكذا سارت الأمور. كان بارتلبوم آنذاك في منتجَعٍ ينابيعَ معدنيَّة، في منتجعِ بادْ هولِّن للينابيع المعدنيَّة، وبادْ هولِّن هذه بلدةٌ صغيرةٌ تقشعرُّ منها الأبدان، إنْ كنتَ تعلم ما أعني. توجَّهَ إلى هناك لبعض الاضطرابات التي ألمَّت به، شيءٌ ذو صلةٍ بالبروستات، وهو أمرٌ مُثقِلٌ، ومُرهِقٌ للغاية. عندما تُنقَرُ من تلك الجهات، فذلك هو الإرهاق بعينِه؛ إذ يتعيَّن عليك، دائماً، حتّى وإن لم يكن الأمر على تلك الدَّرجة من الخطورة، أن تأخذ حذرك، وأن تقوم بالكثير من الأشياء الباعثة على الهزلِ، والمُهينة. فبارتلبوم، على سبيل المثال، مضى إلى ينابيع بادْ هولِّن المعدنيَّة. وهي، من بين أمورٍ أخرى عديدة، بلدةٌ تقشعرُّ منها الأبدان.

لكنْ؛ أيّاً يكن.

بارتلبوم كان هناك، مع خطيبته، ماريَّا لويخيا سِبرِينا هوهنهايت، وهي امرأةٌ جميلةٌ، لا ريب في ذلك، ولكنَّها من النَّوع الذي ينتمي إلى مسرح الأوبرا، إنْ كنتَ تعلم ما أعني. سطحيَّةٌ بعضَ الشَّيء. يخطرُ لك أن تدورَ من حولها؛ لترى إن كان ثمّة شيءٌ ما وراءَها، وراءَ المساحيق والكلام المفخَّم وكلِّ شيءٍ آخر. ثمّ إنَّك لا تفعل شيئاً من ذلك، بل هو خاطرٌ خطرَ لك وحسب. غير أنَّ بارتلبوم، إذا ما توخَّينا الحقيقة، لم يُقدم على الخطبة بحماسٍ كبيرٍ، في واقع الأمر. هذا لا بدَّ من قوله. الأمرُ كلُّه كان من تدبير واحدةٍ من عمَّاته، العمَّة ماتيلدا. ينبغي أن نعرف أنَّه آنذاك كان مطوَّقاً

تقريباً بالعمَّات، وكان، لنكنْ صادقين، يتّكل كُلِّيّاً عليهنَّ، اقتصاديّاً أقصُد، فهو لم يكن يملك شروى نقير. إنَّهنَّ العمَّات مَن كان يُخرِج ما في المحفظة من نقود. الشَّيء الذي كان النَّتيجةَ التي لا مناصَ منها لذلك الانقطاع الكُلِّيِّ والمشبوب العاطفة إلى علمٍ وحَّدَ حياة بارتلبوم بتلك الموسوعةِ العاليةِ الطُّموح عن مسألةِ الحدودِ وما إلى ذلك، بما هي عملٌ سامٍ، وجديرٌ بالمكافأة، ولئن حالَتْ، وهذا جليٌّ، دون الانكباب على واجباته المهنيَّة، حاملةً إيَّاه كلَّ عامٍ على تركِ مقعد الأستاذيَّة والمعاش المتَّصل به لبديلٍ يقوم مؤقَّتاً مقامَه والذي، في واقع الحال، وعلى مدى السَّبع عشرة سنةً كلِّها التي ذهبت أدراجَ مثل هذه الموجة السُّلوكيَّة العابرة، لم يكن إلَّا أنا. من هنا، ستدرك، مدى امتناني له، وافتتاني بعملِه. ذلك غنيٌّ عن القول. إنَّها أشياء لا يمكن لرجلٍ نبيلٍ أن ينساها.

لكنْ؛ أيَّاً يكن.

العمَّة ماتيلدا دبَّرتْ كلَّ شيء، وبارتلبوم لم يتمكَّن من مجابهةِ الأمرِ مُجابهةً تُذكَر. عقدَ الخطوبةَ. والحقُّ أنَّه لم يفهمها بالشَّكل المثاليِّ الذي ينبغي. لقد فقدَ شيئاً من ذلك الشَّغف... حجابٌ أُرخِيَ على روحِه، إنْ كنتَ تعلم ما أعني. كان الأمرُ كما لو أنَّه كان يترقَّب شيئاً مغايراً، مغايراً تماماً. لم يكن على أهبة الاستعداد لتلك الحياة الطَّبيعيَّة آنذاك. قذف بنفسهِ إلى الأمام، ولا شيء أكثر. ثمّ ذات يومٍ، هناك في بادْ هولِّن، قصدَ، صُحبةَ خطيبتِه وبروستاتِه، حفلَ استقبالٍ، حدَثٌ في منتهى الأبَّهة، طافحٌ بالشَّمبانيا وبأنغام موسيقى عذبة. رقصاتُ فالس. وهناك التقى آنَّا آنشر. وكانت امرأةً استثنائيَّة. كانت ترسم. بل وبصورةٍ جميلةٍ أيضاً، على حدِّ قولهم. إنَّها من صنفٍ آخر مختلفٍ تماماً عن صنفِ ماريَّا لويخيا سبِرينا، فلنفهمْ ذلك. كانت هي مَن استوقفَه، في خضمِّ الصَّخب الاحتفاليِّ.

- اعذرني... أنت هو البروفسور بارتلبوم، أليس كذلك؟

- أجل.

- إنَّني صديقةٌ لميشيل بلاسُّون.

تبيَّنَ ساعتئذٍ أنَّه كتب إليها ما لا يُحصَى من الرَّسائل، الرَّسَّامَ أعني، محدِّثاً إيَّاها عن بارتلبوم وكثيرٍ من الأشياء الأخرى، وعلى وجه الخصوص عن تلك الموسوعة التي تتحدَّث عن الحدود وما إلى ذلك، وهي القصَّة التي، عند سماعِها لها، حرَّكتْ أدقَّ مشاعرها.

- مسحورةً سأكون إذا ما قُيِّضَ لي يوماً أن أرى عملَك.

هذا ما قالتْه بالحرفِ الواحدِ: مسحورةً. قالتْه وهي تميل برقَّةٍ برأسها الصَّغيرة إلى جهةٍ، بينما أصابعُها تزيحُ عن عينيها خصلةَ شعرٍ سوداءَ سوادَ الغراب. حركةٌ في غايةِ البراعة. بالنِّسبة لبارتلبوم كان الأمرُ كما لو أنَّ تلك العبارة سقطتْ مباشرةً في مجرى دمِه. أو لنقلْ، بتعبيرٍ أدقَّ، إنَّ صداها دوَّى في طويَّةِ سروالِه. رطنَ ببعضِ الكلمات، ومنذ تلك اللحظة لم يفعل شيئاً سوى التَّعرُّق. كان يتعرَّق كإلهٍ، عندما يقتضي الأمر. ولم يكن ثمّة شأنٌ لحرارة الطَّقس في ذلك. كان ينجز ذلك كلَّه من تلقاء نفسِه.

لكانت انتهتْ عند ذلك الحدِّ، تلك القصَّة، لولا أنَّ بارتلبوم في اليوم التَّالي، فيما كان يتنزَّه، وحيداً، مقلِّباً في رأسِه تلك العبارة وكلَّ الأشياء الأخرى، رأى عربةً تمرُّ، عربةً من تلك العربات الأخَّاذة، ومن فوقها حقائبُ وصناديقُ قبَّعات. كانت تتوجَّه إلى خارج المدينة. وفي الدَّاخل، رأى رأيَ العين، آنَّا آنشر قابعةً هناك. لا ريبَ كانت هي. بشعرِها الأسودِ سوادَ الغراب. برأسِها الصَّغيرة. بكلِّ شيء. حتّى الدَّويُّ في سرواله كان نفسَ دويِّ ذلك اليوم. وعى بارتلبوم الأمرَ. أيّاً يكن ما يقال عنه، لقد كان رجلاً

يُحسِن، إذا لزمَ الأمرُ، اتِّخاذ قراراتِه، بعيداً عن الهزل، وحين يجدُّ الجِدُّ، فإنَّه لا يتراجع قيدَ أنملة. هكذا قفلَ عائداً إلى المنزل، حزمَ حقائبه، وإذْ أصبح على أهبة الرَّحيل، آثرَ أن تراه خطيبته، ماريًّا لويخيا سِبرِينا. كانت منكبَّةً على نبشِ فُرَشِها، وأشرطتها، وقلائدها.

- ماريًّا لويخيا...

- الرَّجاء، إسماعيل، إنَّني متأخِّرةٌ سلفاً...

- ماريًّا لويخيا، أودُّ إحاطتك علماً بأنَّكِ لم تعودي خطيبةً لي.

- حسناً، يا إسماعيل، نتحدَّث عن هذا لاحقاً.

- وبالتَّالي، فأنا أيضاً لم أعد خطيباً لكِ.

- هذا بَدَهيٌّ، يا إسماعيل.

- الوداع إذنْ.

ذلك الذي كان مذهِلاً، في تلك المرأة، إنَّما هو تأخُّر مواقيتِ ردودِ فعلِها. تطرَّقنا إلى تلك المسألة أكثر من مرَّةٍ، أنا وبارتلبوم، وكان مفتوناً كُلِّيّاً بتلك الظَّاهرة، بل إنَّه درسَها أيضاً، إذا جاز القولُ، محصِّلاً في نهاية المطاف، في هذا الصَّدَد، جدارةً تكاد تكون علميَّةً، ومكتملة. في تلك الحالة، كان يعرف حقَّ المعرفة أنَّ الوقت المتاح له ليختفيَ دون عقاب من ذلك المنزل يتراوحُ ما بين اثنتين وعشرين وستٍّ وعشرين ثانية. وفقاً لحساباته، فإنَّ ذلك كان كافياً لكي يبلُغَ العربة. في الواقع، حدَثَ في اللحظة نفسِها بالضَّبط عندما وضعَ مَقْعَدَتَه على أريكة العربة أنَّ هواءَ بادْ هولِّن الصَّباحيَّ النَّقيَّ ارتجَّ من صرخةٍ لابشريَّة

- باااااارتلبوم!

يا لِصوتِها، تلك المرأة. حتّى بعد مرور سنواتٍ على ذلك، يقولون، في بادْ هولِّن، إنَّ الأمرَ بدا كما لو أنَّ أحدَهم، من برجِ الكنيسةِ، رمى آلة بيانو مباشرةً على كومةِ ثريّاتٍ من الكريستال.

بارتلبوم، كان قد أُبلِغ: عائلة آنشر تقيم في هولِّنْبِرغ، على بعدِ أربعةٍ وخمسين كيلومتراً شمالي بادْ هولِّن. انطلق في رحلته. ارتدى بزَّةً من تلك الخاصَّة بالمناسبات الكبيرة. القبَّعةُ هي الأخرى، كانت من النَّوع الاحتفاليِّ. كان يتعرَّق، أجل، ولكن ضمن حدودِ اللياقة العامَّة. كانت العربة تجري دونما عوائق على طولِ الدَّربِ بين الآكام. كلُّ شيءٍ، كما بدا، كان يسير على أحسن ما يُرام.

أمَّا عن الكلمات التي كان سيقولها لآنَّا آنشر، حالما يقف بين يديها، فقد كان في ذهن بارتلبوم أفكارٌ بيِّنة:

- آنستي، لقد كنتُ في انتظارك. لقد انتظرتكِ لِعُهود.

ثمّ، كالبرقِ، سيناولها حُقَّةَ الماهوغاني مع كلِّ ما فيها من رسائل، مئات الرَّسائل، والتي لا يملك المرءُ إلَّا أن يقفَ مشدوهاً من سحرِها ورقَّتها. كانت فكرةً جميلةً، ذلك غنيٌّ عن القول. وقد راح بارتلبوم يقلِّبها في عقلِه طوالَ الرِّحلة، الأمر الذي يجعلنا نتفكَّر في مدى تعقيد عقولِ بعضِ رجال العلمِ والفِكر العظماء - ومنهم البروفسور بارتلبوم، بلا أدنى شكٍّ - الذين تورِثُهم الملَكَةُ السَّاميةُ في التَّركيزِ على فكرةٍ ما بعمقٍ وبصيرةٍ لامألوفَين تلك اللازمةَ الغامضةَ لِيُقْصوا في الحالِ، وبطريقةٍ متفرِّدةٍ كُلِّيّاً، كلَّ الأفكار الأخرى المجاورةِ، والقريبةِ، والموازية. رؤوسٌ مجنونةٌ، باختصار. ومن هنا، على سبيل المثال، أنفقَ بارتلبوم رحلتَه كلَّها وهو يتحقَّق من دقَّة المنطق الحصينة لخطَّته، غيرَ أنَّه على بُعد سبعة كيلومتراتٍ فقط من هولِّنْبِرغ،

وتحديداً بين قريتَي آلزن وبالزن تذكَّرَ، على وجه الدِّقَّة، أنَّ تلك الحُقَّة من خشب الماهوغاني، ومعها بالطَّبع كلُّ الرَّسائل، مئاتُ الرَّسائل، *لم تعدْ في حوزتِه.*

إنَّها صروفُ الدَّهرِ، تلك الحوادث. إنْ كنتَ تعلم ما أعني.

في الواقع، الحُقَّة مع الرَّسائل كان بارتلبوم قد أعطاها لماريَّا لويخيا سِبرِينا، يومَ الخطوبة. لم يكن مقتنعاً تماماً، غير أنَّه حملَها إليها كاملةً، بشيءٍ من المهابة، قائلاً

- لقد كنتُ في انتظارك. لقد انتظرتُكِ لِعُهودٍ.

بعد تلك الثَّواني العشر، أو الاثنتي عشرة، من الجمودِ المعهود، فتحتْ ماريَّا لويخيا سِبرِينا عينيها باتِّساعٍ، ومدَّت عنقَها ثمّ، بارتيابٍ، نطقتْ كلمةً واحدةً، بدائيَّة

- أنا؟

"أنا؟" لم تكن بالضَّبط الجوابَ الذي حلمَ به بارتلبوم لِسنواتٍ، فيما كان يخطُّ تلك الرَّسائل ويحيا وحيداً، باذلاً أفضل ما لديه. لذا؛ من نافلةِ القولِ القولُ إنَّه أصيب قليلاً، في واقعِ الحال، بخيبةِ أملٍ، ويمكننا فهمُ ذلك. الأمر الذي يفسِّر، أيضاً، كيف أنَّه بعد ذلك لم يعدْ مرَّةً أخرى إلى تلك الرَّسائل، مكتفياً بالتَّأكُّد من أنَّ حُقَّةَ الماهوغاني كانت دائماً هناك، في عهدةِ ماريَّا لويخيا، والله وحده يعلم إن كان أحدٌ قد فتحَها يوماً. يحدُث ذلك. يشيِّدُ المرءُ أحلاماً، وهذا شأنٌ من شؤون قلبِه، ثمّ إذا بالحياة ليست مستعدَّةً للعب معه، وإذا بها تفكِّكُ ما بنى، في لحظةٍ واحدة، بعبارةٍ واحدة، فينهارُ كلُّ شيء. يحدُثُ ذلك. لا لأيِّ شيءٍ آخرَ هي الحياةُ مهنةٌ بائسة. يحدُثُ أن نستسلم. إنَّها لا تملك من العرفان بالجميل شيئاً، تلك الحياة، إنْ كنتَ تعلم ما أعني.

العرفان.

لكنْ؛ أيّاً يكن.

المشكلة آنذاك أنَّ الحُقَّة كانت ستُجدي نفعاً، بيد أنَّها كانت في أسوأ الأماكن المحتملة، في مكانٍ ما من منزل ماريَّا لويخيا. نزل بارتلبوم من العربة في بالزن، قبل هولّنبرغ بخمسة كيلومترات، أمضى ليلته في النُّزل. وفي صبيحة اليوم التَّالي استقلَّ العربة بالاتِّجاه المعاكس، عائداً إلى بادْ هولّن. لقد بدأتْ أوديسَّاه. أوديسَّة حقيقيَّة، لو تصدِّق.

مع ماريَّا لويخيا اتَّبعَ الأسلوبَ المعتادَ، فلم يكن ثمّة مجالٌ للخطأ. دخلَ دون الإفصاحِ عن حضوره إلى الغرفة حيث كانت مسترخيةً، في السَّرير، تطبِّبُ أعصابَها، ومن غير مقدِّماتٍ، قال

- عزيزتي، لقد عدتُ لآخذَ الرَّسائل.

- إنَّها على منضدة الكتابة، يا حبِّي - أجابت هي بعذوبةٍ مشرقة. ثمّ، بعدَ ستٍّ وعشرين ثانيةً بالضَّبط، أصدرتْ أنيناً مخنوقاً، وأُغميَ عليها. أمَّا بارتلبوم، بطبيعةِ الحال، فكان قد اختفى قبل ذلك.

استقلَّ العربةَ مجدَّداً، هذه المرَّة ميمِّماً شطْرَ هولّنبرغ، وعشيَّةَ اليوم التَّالي كان يقدِّم نفسَه لآل آنشر في منزلهم. صحبوه إلى قاعة الاستقبال، وفاتنا قليلاً أن نذكرَ أنَّه بقي متيبِّساً، متيبِّساً كقتيل. كانت جالسةً إلى البيانو، المرأة إيَّاها، وكانت تعزف، برأسِها الصَّغيرة، وبشعرِها الأسود سوادَ الغراب، وبكلِّ شيءٍ آخر، تعزف كما لو أنَّها ملاك. وحدها، هناك، هي والبيانو ولا شيء آخر. صورةٌ تفوق الوصفَ. لبث بارتلبوم متحجِّراً، مع حُقَّة الماهوغاني في يدِه، عندَ عتبة القاعة، شاحباً بالكامل. لم يتمكَّن حتّى من التعرُّق. راح يتأمَّل وحسب.

عندما انتهت المعزوفة، أدارتْ المرأة ناظريها نحوَه. مسلوباً تماماً، عَبَرَ القاعةَ، إلى أن صارَ قُبالتَها، وضعَ حُقَّة الماهوغاني على البيانو، وقال:

- آنسة آنَّا، لقد كنتُ في انتظارِك. لقد انتظرتُكِ لِعُهود.

هذه المرَّة أيضاً كان الجواب فريداً.

- أنا لستُ آنَّا.

- عفواً؟

- أنا اسمي إليزابيتَّا. آنَّا هي أختي.

توأمان، إنْ كنتَ تعلم ما أعني.

قطرتا ماء.

- أختي في بادْ هولِّن، في منتجع الينابيع المعدنيَّة. حوالي خمسين كيلومتراً بعيداً عن هنا.

- أجل، أعرف الطَّريق، شكراً.

إنَّها صروفُ الدَّهر. لا شيء ليُقال في هذا المقام. صروفٌ حقيقيَّة. لحسن الحظّ كان لدى بارتلبوم مَعيناً يمتحُ منه، كان لديه من قوَّة الاحتمال ما يكفي ليُغدقه، في العربات. انطلق في رحلته، والوجهةُ بادْ هولِّن. إذا كان ذلك هو المكان حيث تمكث آنَّا آنشر، فذلك هو المكان الذي إليه ينبغي أن يمضي. الأمرُ بسيط. كان قد بلغَ منتصفَ الطَّريق تقريباً عندما بدأ الأمرُ يبدو له أقلَّ بساطةً بقليل. الحقيقة هي أنَّه لم يكن يُفلحُ في طرحِ تلك الموسيقى عن كاهله. وكذا ذلك البيانو، تلك الأنامل على لوحة المفاتيح، تلك الرَّأس الصَّغيرة بشَعرِها الأسود الغرابيِّ، ذلك التَّجلِّي كلُّه، باختصار.

مشهدٌ بدا، لِكماله الفائق، كما لو كان من تدبير الجنِّ. أو من تدبير القدَر، على حدِّ قول بارتلبوم لنفسِه. بدأ يتعذَّب، البروفسور، مع قصَّة التوأمين تلك، الرَّسامة وعازفة البيانو، ولم يعد يفهم شيئاً، وذلك أيضاً مفهومٌ. كان كلّما مرَّ الوقتُ أكثر، قلَّ فَهْمُه أكثر. يمكن القولُ إنَّه مع كلِّ كيلومترٍ واحدٍ من الطَّريق كان كيلومترٌ واحدٌ ينقصُ من ملَكَةِ الفَهْمِ عندَه. في النِّهاية، قرَّر أنَّه لا مناصَ من وقفةِ تأمُّل. نزلَ في بوتْزِل، على بُعْد ستَّةِ كيلومتراتٍ من بادْ هولِّن. وهناك أمضى ليلته. في صبيحةِ اليوم التَّالي استقلَّ العربة إلى هولِّنْبِرغ: لقد عقدَ العزمَ على عازفة البيانو. إنَّها أكثر سحراً، فكَّر. بدَّلَ رأيَه عندَ بلوغ الكيلومتر الثَّاني والعشرين: في قرية بازِل على وجه الدِّقَّة، حيث نزلَ وأمضى ليلتَه. غادرَ مع أوَّل خيوط الصُّبحِ بالعربةِ صوبَ بادْ هولِّن - خاطباً في طويَّة نفسِه ودَّ آنَّا آنشر، الرَّسَّامة - ليتوقَّف في سوتزر، قرية صغيرة على بُعْد كيلومترين من بوتْزِل، حيث اتَّضح له بلا أدنى شكٍّ أنَّه، بطبْعِه نقصد، ميَّالٌ أكثر إلى إليزابيتَّا، عازفة البيانو. في الأيَّام التَّالية حملَهُ تطوافُه المتذبذب من جديدٍ صوبَ آلزن، ثمّ صوبَ توتْزِر، ومن هناك صوبَ بالزن، وبالتَّالي رجوعاً صوبَ فاتْزِل، ومن هناك، بالتَّرتيب، صوبَ پالزن، رولزن، آلزن (للمرَّة الثَّالثة) وكولزن. نضجَ لدى قاطني الإقليم يقينٌ مفادُه أنَّه مفتِّشٌ في إحدى الوزارات. عاملوه جميعاً خيرَ مُعاملَة. حتّى إنَّه في آلزن، عندَ العبورِ الثَّالث، وجدَ لجنةَ المجلس البلديِّ في انتظاره. لم يُعرْهم الكثير من الاهتمام. لم يكن رجلَ شكليَّاتٍ. كان رجلاً بسيطاً، بارتلبوم هذا، مثالاً جميلاً للرَّجل البسيط. لا أكثر ولا أقل. إنَّها الحقيقة.

ولكنْ؛ أيَّاً يكنْ.

لا يمكن لتلك القصَّة أن تستمرَّ بلا نهاية. حتّى وإن أظهرت الرَّعيَّة لُطفاً ولباقة. عاجلاً أو آجلاً عليها أن تنتهي. ذلك فهمَهُ بارتلبوم. فبعدَ اثني عشر

يوماً من التَّذبذب العاطفيِّ، ارتدى البزَّة المناسبة، ويمَّمَ عازماً شطرَ بادْ هولِّن. لقد عقدَ العزمَ: سيعيش مع رسَّامة. وصلَ عشيَّةَ يومٍ احتفاليٍّ. لم تكن آنَّا آنشر في المنزل. قد تعودُ بعد قليل. سأنتظر، قال. جلسَ في غرفة المعيشة. حدَثَ هناك أنْ عادت فجأةً، كالصَّاعقة، إلى ذاكرته صورةٌ بسيطةٌ ومدمِّرة: حُقَّتُه الماهوغاني، بسحرِها البرَّاق، موضوعةً على بيانو آلِ آنشر. لقد نسيها هناك. تلك أشياء من الصَّعب أن يفهمها النَّاسُ العاديُّون، مثلي أنا على سبيل المثال، ذلك أنَّها سرٌّ من أسرار العقول الفائقة، سمةٌ خاصَّةٌ بتلك الرُّؤوسِ، تروسِ العبقريَّةِ المسنَّنة، القادرة وحدها على القيام ببهلوانيَّاتٍ مهيبةٍ وبزلَّاتٍ جسيمة. هو، بارتلبوم، كان من ذلك الصِّنف إيَّاه. له زلَّاته الجسيمة، في بعض الأحيان. بيدَ أنَّه لم يفقد توازنه، بأيَّة حال. نهض، وأبلغهم بأنَّه سيعود لاحقاً، ولاذَ بنُزلٍ صغيرٍ خارج المدينة. في اليوم التَّالي، استقلَّ العربة إلى هولِّنْبِرغ. لقد بدأ يكتسب دِرايةً يقينيَّةً بتلك الطَّريق، بدأ يصبح، إذا جاز التَّعبير، خبيراً حقيقيَّاً بها. لو كان ثمّة على وجه الأرض كرسيٌّ جامعيٌّ لدراسة تلك الطَّريق، لاستطعتَ أن تُقسِمَ لنا أنَّه من نصيبه، بكلِّ تأكيد. في هولِّنْبِرغ سارت الأمور بسلاسة. الحُقَّة كانت بالفعلِ هناك.

- لقد ودَدْتُ أن أرسلها إليك، لكنْ لم تكن لديَّ أدنى فكرة أين تقيم - قالت له إليزابيتَّا بصوتٍ كان ليغوي حتّى الأصمَّ. ترنَّحَ بارتلبوم للحظةٍ، ثمّ لم يلبث أن استعادَ توازنه.

- لا يهمُّ، الأمور تسير على خير ما يرام هكذا.

قبَّلَ يدَها، ومضى في سبيله. لم يغمُض له جفنٌ طوالَ الليل. ومع ذلك، كان في الصَّباح واقفاً أمام أوَّل عربةٍ متَّجهةٍ إلى بادْ هولِّن. كانت رحلةً جميلة. عندَ كلِّ محطَّةٍ تحيَّاتٌ واحتفاءٌ بمَقْدَمِه. كان يستميل القلوبَ

إليه، والنَّاسُ هناك، في تلك الأنحاء، مفطورون على ذلك، على حسن المخالطة، فتراهُم لا يطرحون عليك الكثير من الأسئلة، ويأتونك بقلوبهم في أكفِّهم. الحقَّ أقول. ذلك إقليمٌ تقشعرُّ الأبدان من بشاعتِه، وهذا ينبغي أن يُقال، غيرَ أنَّ الشَّعب هناك رفيعُ السُّلوك رقيقُ الحاشية، شعبٌ من زمنٍ آخر.

ولكنْ؛ أيَّاً يكن.

وفقاً لمشيئة الرَّبِّ، وصلَ بارتلبوم إلى بادْ هولِّن مع حُقَّتِهِ الماهوغاني، والرَّسائلِ وكلِّ شيء. عادَ إلى منزل آنَّا آنشر، وأعلن عن حضورِه. كانت الرَّسَّامة تعملُ على طبيعةٍ صامتة، تفَّاحٍ وكُمَّثرى وتَدَارِجَ(*)، أشياء من هذا القبيل، تَدَارِجَ مَيْتة، أعني، طبيعةٍ مَيْتةٍ، حَرفيَّاً. رأسُها الصَّغيرة مائلةٌ بلطفٍ إلى أحد الجانبين. شعرُها الأسودُ سوادَ الغراب يؤطِّرُ الوجهَ الذي كان لَذَّةً للنَّاظرين. لو كان ثمَّة بيانو أيضاً لما تولَّد عندَكَ أدنى شكٍّ في أنَّها الأخرى، تلك التي في هولِّنْبرِغ. ولكنَّها كانت هي، تلك التي في بادْ هولِّن. قطرتا ماءٍ، أقول. مُعجزٌ، ذلك الذي تتمكَّن الطَّبيعة من صُنعِه عندما تصمِّمُ على صُنعِه. لَشَيءٌ يفوق الوصفَ. حقَّاً.

- البروفسور بارتلبوم، أيُّ مفاجأة!- غرَّدتْ هي.

- صباح الخير، آنسة آنشر - ردَّ هو، مُضيفاً على الفور: - آنَّا آنشر، أليس كذلك؟

- بلى، لماذا؟

أرادَ التَّصرُّف ضمن حدودِ الأمان، البروفسور. فلا أحد يعلم.

- ما الذي أتى بكَ إلى هنا، لتُسعِدَ قلبي بزيارتك؟

---

*) جمعُ تَدرُجٍ، وهو طائرٌ من فصيلة التَّدْرُجيَّات، من رتبة الدَّجاجيَّات؛ (م).

- هذا - أجابَ بارتلبوم بجدِّيَّةٍ، واضعاً أمامَها حُقَّةَ الماهوغاني وفاتحاً إيَّاها تحت ناظريها. - لقد كنتُ في انتظارك، يا آنَّا. لقد انتظرتُكِ لِعُهود.

مدَّت الرَّسَّامة يدَها، وأغلقت مِن فورِها الحُقَّةَ.

- قبل أن نكملَ حوارَنا، سيكون من الجيِّدَ أن أخبرك شيئاً، بروفسور بارتلبوم.

- أخبريني ما شئتِ، يا حبيبتي.

- إنَّني مخطوبة.

- ولكنْ؟!

- إنَّني مخطوبةٌ منذ ستَّةَ أيَّامٍ للنَّقيب غاليغا.

- اختيارٌ ممتاز.

- شكراً.

عادَ بارتلبوم بذاكرته ستَّةَ أيَّامٍ إلى الوراء. كان ذلك هو اليوم الذي، بعدَ أن وصلَ فيه إلى رولزن، توقَّف في كولزن؛ ليغادرَ ثانيةً إلى آلزن. في منتصف طريق آلامِه، باختصار. ستَّةَ أيَّام. ستَّةَ أيَّامٍ بئيسة. وبالمناسبة، غاليغا ذاك كان طُفيليَّاً حقيقيَّاً، إنْ كنتَ تعلم ما أعني، كائناً ضئيلاً، وفوق ذلك مؤذياً بطريقةٍ ما. إنَّه لَعِقابٌ، بحتٌ وحقيقيٌّ. إنَّه لَعِقاب.

- أترغب الآن في إكمال ما بدأناه؟

- أعتقد أنَّ ذلك لم يعد مناسباً - أجابَ بارتلبوم مستردَّاً حُقَّةَ الماهوغاني.

على الطَّريق التي كانت تحمله إلى نُزله، حاول البروفسور بارتلبوم تحليلَ الموقفِ ببرودٍ، وخلصَ إلى نتيجةٍ مفادُها أنَّ ثمّة احتمالين (فكلُّ موقفٍ، لاحِظوا، حين يتكرَّر وفق وتيرةٍ محدَّدة، يكون عدد الاحتمالات فيه اثنين عموماً، وفقط فيما ندرَ ثلاثة): إمَّا أنَّ الأمر كان مجرَّد عقبةٍ في غير مكانها، ومِن ثمّ فإنَّ ما ينبغي عليه القيام به آنذاك هو أن يتحدَّى إلى مبارزةٍ ذلك المدعوَّ بالنَّقيب غاليغا، ويطوِّح به بعيداً. وإمَّا أنَّه كان إشارةً واضحةً من القدَر، من قدَرٍ سَمْحٍ، ومِن ثمّ فإنَّ ما ينبغي عليه القيام به هو أن يعودَ على الفور إلى هولِّنْبِرغ، ويتزوَّجَ بإليزابيتَّا آنشر، عازفةِ البيانو التي لا تُنسَى.

وبالمناسبة، فلقد كان بارتلبوم يبغضُ النِّزالات. بل إنَّه لم يكن يطيقها على الإطلاق.

"تَدارِجُ مَيْتةٌ..." فكَّرَ بشيءٍ من النُّفور. وقرَّر الرَّحيل. متَّخذاً مكانه، على أوَّل عربةٍ صباحيَّةٍ، ولجَ مرَّةً أخرى الطَّريق المؤدِّية إلى هولِّنْبِرغ. كان رائق المزاج، وقابلَ باستلطافٍ ودودٍ تظاهرات الحبِّ البهيجة التي أغدقها عليه بالتَّدريج قاطنو بلداتِ بوتْزِل، وكولزِن، وتوتْزِر، ورولزِن، وبالزن، وآلزن، وبالزن، وفاتْزِل. شعبٌ رقيق الحاشية، كما سبق وقلتُ. عندَ حلول الشَّفق كان يقف، بكامل برَّته المعهودة وفي يده حُقَّة الماهوغاني، على عتبة آل آنشر.

- الآنسة إليزابيتَّا، من فضلِك - قال بأسلوبٍ طقسيٍّ مؤثِّرٍ للخادم الذي فتحَ له الباب.

- ليست هنا، سيِّدي. لقد غادرتْ هذا الصَّباحَ إلى بادْ هولِّن.

لَهُوَ ضربٌ من اللامعقول.

رجلٌ آخرُ ذو استعدادٍ معنويٍّ وثقافيٍّ مختلفٍ، كان من شأنه ربَّما أن يعودَ أدراجه، ويستقلَّ أوَّل عربةٍ نحوَ بادْ هولِّن. رجلٌ آخرُ قاصرُ الجِبلَّةِ

النَّفسيَّةِ والعصبيَّةِ، كان من شأنه ربَّما أن يستسلمَ لإطلاق أكثر التَّعابير سوقيَّةً عن يأسِه النِّهائيِّ والمزمِن. غير أنَّ بارتلبوم كان رجلاً حقَّانيَّاً وسويَّاً، واحداً من أولئك الذين لديهم أسلوبٌ معيَّنٌ عندما يتعلَّق الأمر بهَضْمِ نزواتِ القدَر.

بارتلبوم، هذا، شرَعَ في الضَّحِك.

ولكنَّه كان ضَحِكاً من الأعماق، تكاد تنفجرُ الأوداجُ منه، وينطوي من وطأته الجسدُ ثلاثَ طيَّات، وما من سبيلٍ إلى لجمِه، مع الدُّموع وكلِّ شيء، ضحِكاً مشهديَّاً، ضحِكاً على قدْرِ بابلَ، والمحيطاتِ، وسِفْرِ الرُّؤيا، ضحِكاً لا ينتهي أبداً. لم يعدْ خدمُ آلِ آنشر يعرفون ماذا يفعلون، لم يكن ثمّة طريقةٌ لإيقافه، لا بالتي هي أحسن، ولا بالتي هي أقبح، فلقد استمرَّ في التَّحطُّمِ ضحِكاً، وذلك مُحرِجٌ، ومُعْدٍ فوق كلِّ شيءٍ، كما تعلمون، فما إن يبدؤه أحدٌ حتّى يأتيه الجميعُ لِحاقاً من ورائه، إنَّه قانون نوبةِ الضَّحِك، تماماً كالطَّاعون، ترغبُ في محاولةِ الاحتفاظ بجدِّيَّتِك، فلا تُفلِح، ذلك أنَّه شيءٌ لا يلين، ولا تستطيع صُنعَ شيءٍ حياله، وإذا بهم يتهاوون واحداً إثرَ الآخر، الخدمُ، بالرَّغم من عدم وجود ما يستدعي ضحكَهم بل إنَّه، إذا توخَّينا الدِّقَّة، كان لديهم ما يدعو حقَّاً إلى القلق، من تلك الحالة المحرجة، إن لم نقل الدِّراماتيكيَّة، غير أنَّهم بدلاً من ذلك، راحوا يتهاوون واحداً واحداً، من الضَّحِك كالمجانين، حدَّ تبليل أنفسهم، إنْ كنتَ تعلم ما أعني، حدَّ تبليل أنفسهم، إن لم تعِ ما أقول. في النِّهاية حملوه إلى السَّرير. ضحكَ حتّى أفقيَّاً، على أيَّةِ حال، وبأيِّ اتِّقادٍ، بأيِّ سخاءٍ، بأيِّ إعجازٍ، حقيقةً، وسطَ شهقاتٍ ودموعٍ واختناقاتٍ، حتّى إنَّ شيئاً لم يكن في مقدوره إيقاف تلك المعجزة، حقيقةً. بعد ذلك بساعةٍ ونصف السَّاعة، كان ما يزال هناك مستغرقاً في الضَّحِك. ولم ينقطع عن ذلك لحظةً واحدة. كان

الخدم آنذاك قد بلغوا حافَّة الانهيار، فكانوا يهرعون خارجَ المنزل لكيلا يسمعوا ذلك النَّحيب المبهِج والمُعدي، كانوا يلوذون بالفرار، ومصارينهم تتلوَّى ألماً، من شدَّة الضَّحك، في محاولةٍ للنَّجاة بأنفسِهم، ويمكننا تفهُّم موقفهم، فالأمر بالنِّسبة لهم كان قد بدأ آنذاك يتحوَّل إلى مسألة حياةٍ أو موت. شيءٌ يفوق الوصف. بعدئذٍ، في لحظةٍ ما، ودون سابق إنذار، توقَّف بارتلبوم، كمثلِ آلةٍ عُطِّلَتْ، وانقلبَ جدِّيَّ المزاجِ فجأةً، نظرَ مِن حولِه ومحدِّقاً في الخادم الذي كان الأقربَ إلى متناول يدِه قالَ له، بجدِّيَّةٍ فائقة:

- أرأيتَ حُقَّةً من خشب الماهوغاني؟

لم يبدُ له، لذلك الخادم، أنَّ من الصَّائب أن يكون رجلاً ذي جدوى، ما لَم ينقطع عن الضَّحك.

- هي ذي، سيِّدي.

- حسناً، إنَّني أهديها إليك - قال بارتلبوم، وأغْرَقَ ثانيةً في الضَّحك، مثلَ مجنونٍ، وكما لو أنَّ أحداً أطلق نكتةً لا تقاوَم، نكتةً هي الأكثر استملاحاً في حياته، أو هي، بتعبيرٍ آخر، أعظم النِّكات. منذ ذلك الحين وطوالَ الليلِ، لم ينقطع بتَّةً عن الضَّحك.

تلك الليلة، قضاها كلَّها ضاحكاً. وبصرف النَّظر عن خدمِ آلِ آنشر، الذين كانوا آنذاك يطوفون وفي آذانهم قُطاعاتُ قطنٍ، فإنَّ الأمر كان مزعجاً للمدينةِ بأسْرِها، مدينةِ هولِّنْبِرغ الوادعة، ذلك أنَّ ضحكات بارتلبوم، في واقع الحال، كانت تتخطَّى حدودَ المنزل إيَّاه، وتتفشَّى في ذلك الصَّمت الليلي. أمَّا النَّوم؛ فلن أتكلَّم عن ذلك. فوحده أنْ يُفلِحوا في الاحتفاظ بجدِّيَّتهم كان ضرباً من الشَّطط. للوهلة الأولى، في الواقع، كانوا يُفلحون في ذلك، حتّى في ضوء سخطهم من ذلك الضَّجيج المزعِج، ولكنْ سرعان

ما كانت تلك الفطرة السَّليمة تذهب إلى الجحيم، وتبدأ بكتريا الضَّحك بالتَّفشِّي، لا يلجمُها شيءٌ، آخذةً بالتهامِ الجميعِ، دونما تفريقٍ، رجالاً ونساءً، ناهيك عن الأطفال، الجميعِ حقَّاً. كمثلِ وباء. كان ثمّة بيوتٌ لم يضحك سكَّانُها منذ شهور، حتّى إنَّهم لم يعودوا يتذكَّرون كيف يفعلون ذلك. أناسٌ غارقون إلى القاع في مظالمهم، وفي بؤسهم. لشهورٍ، من غير ترفِ ابتسامة. ثمّ كانت تلك الليلة، ليُغرِقَ الجميعُ في الضَّحِك، حدَّ التواء أحشائهم، وبشكلٍ لم يسبق له مثيلٌ، فكانوا يكابدون ليَمِيْزَ بعضُهم بعضاً، بعد أن سقط قناعُ تجهُّماتهم الأبديَّة، وانفتحتْ واسعاً، في وجوههم، تلك القهقهة. يا لِلمُكاشفة. كنتَ تعثرُ من جديدٍ على طعمٍ للحياة، ترى السُّرجَ يُعادُ إيقادُها واحداً واحداً، في تلك المدينة، وتسمعُ البيوتَ تنهارُ من الضَّحك، دون أن يكون هناك أيُّ باعثٍ على ذلك، سوى أنَّ الأمرَ محضُ أعجوبة، كما لو أنَّ برميلَ الصَّبر الجماعيَّ والإجماعيَّ، في تلك الليلةِ بالذَّات، طفحَ عن آخره، وفي صحَّة كلِّ الأحزان غُمِرَتْ المدينة برمَّتها بأنهارٍ مقدَّسةٍ من خمر الضَّحِكات. كونشرتو يلامسُ القلوب. أعجوبة. بارتلبوم، نفسُه، كان قائد الجوقة. تلك كانت لحظته، إذا جاز التَّعبير. وكان يؤدِّي المهمَّة كأيِّ مايسترو خبير. ليلةٌ لا تُنسَى، الحقَّ أقول لك. اسألْ مَن شئت. رَذْلاً أكون إن لم يقولوا لك إنَّها كانت ليلةً لا تُنسَى.

ولكنْ؛ أيَّاً يكن.

عندَ أوَّل خيوط الفجر، هدأ. بارتلبوم، أقصد. ومن بعدِه، رويداً رويداً، المدينة بأسْرِها. توقَّفوا عن الضَّحك، شيئاً فشيئاً في البداية، ومِن ثمّ بشكلٍ نهائيٍّ. مثلما بدأ الأمرُ انتهى. طلبَ بارتلبوم شيئاً يأكله. فالمسألة، بطبيعة الحال، ألقت على كاهله جوعاً عظيماً، ذلك أنَّه ليس بالأمر الهيِّن أن تضحكَ لكلِّ ذلك الوقت، وبكلِّ ذلك الاندفاع. أمَّا عن الصَّحَّة؛ فبدا أنَّ لديه فيضاً منها.

- لم أكن يوماً أفضل حالاً - أكَّدَ لوفدِ أبناء المدينة الذين أتوا، شاكرين بطريقةٍ أو بأخرى، وبدافع الفضول على أيَّة حال، ليستفسروا عن حالِه. عمليَّاً، كان بارتلبوم قد عقدَ صداقاتٍ جديدة. ولا شكَّ فإنَّه كان قدَراً في تلك المنطقة أنْ ينتهي المرءُ متَّصلاً بالآخرين. لقد انقلب شرَّ منقلَبٍ مع النِّساء، هذا صحيحٌ، ولكنْ مع عامَّة النَّاس بدا وكأنَّه خُلِق لذلك المكان. حقيقةً. ومهما يكن الأمرُ، فلقد نهضَ، وصافحَ الجميع، وراح يتهيَّأ للرَّحيل. كان يمتلك فكرةً محدَّدةً في هذا الصَّدد.

- أيُّ طريقٍ تؤدِّي إلى العاصمة؟

- عليك أن تعود إلى بادْ هولِّن، يا سيِّدي، ومن هناك تأخذ...

- ولا حتّى لمجرَّد الذِّكر - غادرَ في الاتِّجاه المعاكس، على حنطورٍ لأحدِ الجيران، رجلٍ كان يعمل في الحِدادة، ويمتلك موهبةً حقيقيَّةً في حقلهِ ذاك. كان قد أمضى تلك الليلة يتمزَّق من الضَّحك. باختصارٍ، كان لديه شعورٌ بالامتنان، إذا أمكنَ القولُ. فأغلق ورشته، في ذلك الصَّباح، وحملَ بارتلبوم بعيداً عن تلك الأمكنة، وعن تلك الذِّكريات، وعن كلِّ شيءٍ، وإلى الجحيم بكلِّ ذلك، فالبروفسور لن يعودَ مرَّةً أخرى إلى هناك ما حَيِيَ، وتلك القصَّة انتهتْ، خيراً كانت أم شرّاً، لقد انتهتْ، مرَّةً واحدةً وإلى الأبد، عهداً قطعَهُ إلهٌ. لقد انتهتْ.

هكذا.

ثمّ لم يعدْ بارتلبوم يحاول شيئاً من ذلك. الزَّواجَ، أقصُد. قال إنَّ العمر ولَّى، ولم يتطرَّق إلى الأمر بعدئذٍ أبداً. أعتقد أنَّه كان يتألَّم قليلاً، من تلك المسألة، ولكنَّه لم يكن ليجعلك تلقي بالاً إلى ذلك، لم يكن من ذلك الصِّنف، بل كان يحتفظ بكُرُباتِ نفسِه لنفسِه، ويعرف كيف يخطو من

فوقِها. كان واحداً من أولئك الذين، مهما يكن من أمرٍ، فإنَّه يرسم صورةً جذلى للحياة. رجلاً مسالماً، إن كنتَ تعلم ما أعني. في السَّنوات السَّبع التي عاشها هنا، تحتَ منزلنا، كان على الدَّوام مبعثَ غبطةٍ وجودُه هنا، تحتَ منزلنا، وفي كثيرٍ من الأحيان داخلَ منزلنا، كما لو كان فرداً من العائلة، وذلك ما كانه حقَّاً بكلِّ معنى الكلمة. عدا ذلك، كان في مقدوره أن يقطن في أيِّ حيٍّ شاء، مع كلِّ تلك الأموال التي راحت تنهملُ عليه في السَّنوات الأخيرة، مِن ميراثِ عمَّاتِه، بطبيعةِ الحال، اللائي رحن يسقطنَ واحدةً إثْرَ الأخرى، كتفَّاحاتٍ نضيجات، فليرقدنَ في سلام، فكنتَ ترى طابوراً لا ينتهي من محرِّري العقود، حاملين وصيَّةً إثْرَ وصيَّة وجميعهم، شئنا أم أبينا، كانوا يسكبون السُّيولة الماليَّة في جيوب بارتلبوم. حاصلُ القول، لو شاء لاستطاع العيش في أيِّ مكانٍ آخر. ولكنَّه بقي هنا. اعتادَ القولَ إنَّ المرءَ يكون على خير ما يرام في هذا الحيِّ. كان يجيدُ تقديرَ الأمور، إذا جاز التَّعبير. إنَّك تراه، حتّى من منظور هذه الأشياء، رجلاً.

واصلَ العملَ على موسوعةِ الحدودِ، وهلمَّ جرَّاً حتّى آخر لحظة. كان آنذاك قد بدأ بإعادة كتابتها من جديد. كان يقول إنَّ العلمَ يخطو خطواتٍ ماردة، وإنَّ المرء، في المحصِّلة، لا يتحرَّر أبداً من حاجته إلى التَّجديد، والتَّفصيل، والتَّصويب، والتَّنقيح. لقد فتنَه هذا التَّصوُّرُ عن أنَّ موسوعةً للحدود يمكن أن تتحوَّل إلى كتابٍ لا ينتهي أبداً. كتابٌ بلا حدود. كانت فكرةً عبثيَّةً، لدى التمعُّن فيها، وكان هو يضحك منها، ويشرحُها لي، ويعيدُ الشَّرح، مفتوناً، بل وحتَّى مستمتعاً. رجلٌ آخرُ ربَّما كانت ليعاني الأمرَّين. ولكنْ هو، أزعُمُ، لم يكن لبعض الأشواك أن تخترقه. أثيريَّاً كانَ، هو.

غنيٌّ عن القول إنَّ الموتَ، هذا أيضاً، كان شيئاً أنجزَه على طريقته الخاصَّة. بخفوتٍ، دونَ مغالاةٍ في مشهديَّةِ العرض. رقدَ في الفراش، ذاتَ

يومٍ، وكان معتلاًّ قليلاً، ثمّ بعد أسبوعٍ انتهى كلُّ شيء. حتّى إنَّه لم يتَّضح لنا، خلال تلك الأيَّام، إن كان يتألَّم أو لا، فلقد سألتُه عن ذلك، ولكنْ همُّه الوحيد كان ألَّا يبالي أحدٌ منَّا بتلك القصَّة على الإطلاق. كان يقلقه أن يكون مثارَ إقلاق. مرَّةً واحدةً فقط سألني بلطفٍ أن أصحِّح له وضْعَ لوحةٍ من لوحاتِ صديقه الرَّسام، معلَّقةٍ على الجدار، أمام السَّرير بالضَّبط. تلك أيضاً كانت قصَّةً لا تُصدَّق، قصَّةَ مجموعةِ بلاسُّون. كانت كلُّها تقريباً بيضاءَ، إذا كنتَ تصدِّقني. ولكنَّه كان يكترث لأمرِها كلَّ الاكتراث. حتّى تلك التي صحَّحتُ له وضْعَها، في ذلك الحين، كانت بيضاءَ، بيضاءَ تماماً، وقد اختارها هو من بين جميع اللوحات، وعلَّقتُها له هناك، ليتمكَّن من رؤيتها جيِّداً، مِن ذلك السَّرير. كانت بيضاء، أقسِمُ. ولكنَّه كان ينظر فيها، ويعيدُ النَّظرَ، ويقلِّبُها في ناظرَيه، إذا جاز التَّعبير.

- *البحر...* - كان يقولُ بِخُفوت.

فاضت روحُه في الصَّباح. أغمض عينيه، ولم يفتحهما مرَّةً أخرى. ببساطة.

لا أعلم. ثمّة أناسٌ يموتون و، مع كلِّ الاحترام، لا نشعر بأنَّنا فقدنا شيئاً. أمَّا هو؛ فكان واحداً من أولئك الذين تشعر بغيابهم عندما يغيبون. كما لو أنَّ العالَم أصبحَ، بين ليلةٍ وضحاها، أثقلَ قليلاً. لعلَّ هذا الكوكب، مع كلِّ ما عليه، قادرٌ على البقاء معلَّقاً في الفضاء فقط لأنَّ ثمّة الكثير من البارتلبومات، في كلِّ مكانٍ، وهم مَن يأخذ على عاتقه مسألة إبقائه عالياً. بتلك الخفَّة التي يملكون. دون أن تكون لهم ملامحُ الأبطال، ولكنَّهم مع ذلك يواصلون تشييد قلاعِهم. إنَّهم مخلوقون هكذا. بارتلبوم، هذا، كان مخلوقاً هكذا. وإذا جاز القولُ: كان شخصاً قادراً على تأبُّط ذراعك، في أيِّ يومٍ، عِبْرَ أيِّ شارعٍ؛ ليبثَّكَ سرَّه المهيب

- لقد رأيتُ الملائكةَ يوماً. كانوا على شاطئ *البحر*.

وبالرَّغم من عدم إيمانه، بالله، فلقد كان رجلاً عارفاً، ولم يكن لديه ميلٌ كبيرٌ إلى المسائل الكنسيَّة، إن كنتَ تعلمُ ما أعني. بيدَ أنَّه رأى الملائكة. كان يتأبَّطُ ذراعَك، في أيِّ يومٍ، عِبْرَ أيِّ شارعٍ، والدَّهشةُ في عينيه، ويبثُّك ذلك السِّرَّ.

- لقد رأيتُ الملائكةَ يوماً.

أيمكن لرجلٍ كهذا ألَّا يُحَبَّ؟

٦. سافيني

- إذنْ؛ أنتَ مُغادرُنا، يا دكتور سافيني...

- أجل، سيِّدي.

- وقرَّرتَ العودة إلى فرنسا.

- أجل.

- لن يكون الأمرُ هيِّناً عليك... أعني، فضولُ النَّاس، الصُّحف اليوميَّة، رجالُ السِّياسة... أخشى أنَّ مطاردةً حقيقيَّةً قد بدأتْ وراءَ النَّاجين من ذلك الطَّوف...

- لقد أخبروني بذلك.

- كادَ يصبحُ الأمرُ حَدَثَاً وطنيَّاً. وذلك يحدُث، حقيقةً، عندما تدخلُ السِّياسةُ في المنتصف...

- عاجلاً أو آجلاً، سترى، سيُنسَى كلُّ شيءٍ عن هذه القصَّة.

- لا أشكُّ في ذلك، عزيزي سافيني. خُذْ: هي ذي الخرائط اللازمة لإبحارك.

- إنيِّ مدينٌ لك بالكثير، أيُّها القبطان.

- لا تقلْ هذا.

- وأمَّا طبيبك، فأنا مدينٌ له بحياتي... لقد صنعَ المعجزات.

- ها سافيني، إذا بدأنا بإحصاء المعجزات، في هذه القصَّة، فلن ننتهي من ذلك أبداً. امضِ في سبيلك. وليكنْ الحظُّ حليفَك.

- شكراً، أيُّها القبطان... آه، بقي أمرٌ واحدٌ، بعدُ.

- قلْ لي.

- ذلك... ذلك البحَّارُ مديرُ الدَّفَّة... توماس... يقولون إنَّه هاربٌ من المشفى...

- أجل، إنَّها قصَّةٌ غريبة. بالتَّأكيد ما كان ذلك ليحدث هنا، ولكن هناك، في المشفى المدنيِّ، يمكنك أن تتخيَّل كيف...

- لم يُعرَف أيُّ شيءٍ، عنه، بعد ذلك؟

- لا، حتّى السَّاعة لا. ولكنْ؛ لا يمكن أن يكون قد مضى بعيداً جدَّاً، في ضوء الحالة التي كان فيها. ليس ثمّة ما هو أسهل من أن يكون مَيْتاً الآن، في مكانٍ ما...

- مَيْتاً؟

- حسناً، هذا أقلُّ ما يمكن أن يفكِّر فيه المرءُ حيالَ رجلٍ... آه، سامحني: لعلَّه كان صديقاً لك؟

- لن يكون الأمرُ صعباً، يا سافيني، عليك فقط أن تردِّدَ ما كتبتَه في

كتاب ذكرياتِك ذاك. بالمناسبة، لا بدَّ أنَّك صنعتَ ثروةً، أليس كذلك؟ مع ذلك الكتيِّب... النَّاسُ لا يقرؤون في مجالسهم سواه...

- لقد سألتك إن كان من الضَّروريِّ حقَّاً أن آتي إلى داخل القاعة.

- آه، لا، ربمَّا ليس من الضَّروريِّ القيام بذلك، ولكنَّه إجراءٌ روتينيٌّ لعين، فعيون البلدِ بأسره مُسلطةٌ علينا... ولا يمكنك أن تعمل جيِّداً والحالُ هذه... وكلُّ ذلك باسمِ العُرْف، يا لِلسَّخافة...

- هل سيكون شوماريه هو الآخر حاضراً؟

- طبعاً سيكون... إنَّه يريد الدِّفاع عن نفسِه شخصيَّاً... ولكنْ؛ لن تكون له أيُّ فرصةٍ لذلك، صِفْر، فالنَّاس يريدون رأسَه، وسيكون لهم ما أرادوا.

- لم يكن ذلك خطأه وحده.

- هذا لا يعني شيئاً، يا سافيني. لقد كان هو القبطان. هو مَن قادَ أليونس إلى ذلك المستنقع، هو مَن قرَّر التَّخلِّي عنها، ودائماً هو مَن، في الخاتمة، ترككم تمضون على غير هدى فوق ذلك الجحيمِ المنصوبِ فخَّاً لكم...

- حسناً، حسناً، دعنا من ذلك. نلتقي في القاعة.

- ثمّة أمرٌ آخر...

- دعني أمضي، يا باربيل.

- المحامي باربيل، شكراً.

- وداعاً.

- لا، لا يمكنك الذَّهاب.

- ماذا هناك أيضاً؟

- آه، شيءٌ مكدِّرٌ... شيءٌ لا يستحقُّ الذِّكر، لكنْ كما تعلم، الأفضل أن نكون حذرَين... باختصارٍ ثمّة شائعاتٌ يجري تداولُها، يبدو أنَّ أحدهم كتبَ ما... ما يمكن أن نسمِّيه يوميَّات، شيئاً يشبه اليوميَّات عن تلك الأيَّام التي أمضاها على الطَّوف... يبدو أنَّه بحَّارٌ، وهذا في حدِّ ذاته يقول الكثير عن جدِّيَّة المسألة... تخيَّلْ بحَّاراً يكتب، لا جَرَمَ أنَّه الهراء بعينِه... لكنْ؛ مع ذلك يبدو أنَّ أحد النَّاجين...

- توماس. توماس كان يجيد الكتابة.

- عفواً؟

- لا، لا شيء.

- حسناً، حاصلُ القول، في هذه اليوميَّات يبدو أنَّ ثمّة أشياء... بطريقةٍ أو بأخرى... مُحرِجة... أو لنقُلْ... إنَّ الحكاية باختصارٍ مُغايرة قليلاً لما رويتَه أنتَ والآخرون...

- وكان يقرأ كُتُباً. كان يجيد القراءة والكتابة.

- بحقِّ الله، أتريد أن تُسمِعَني ما تقول؟

- ماذا؟

- حاولْ أن تفهم، لا يحتاجُ الأمرُ شيئاً لكي يفتريَ أحدٌ عليك... ويستطيع أن يدمِّرك أيضاً... ولذلك كنتُ أتساءلُ إن كنتَ على استعدادٍ إذا لزِمَ الأمرُ لاستخدام مبلغٍ معيَّنٍ من المال، إنَّك تفهمني، فليس ثمّة وسيلةٌ

أخرى لندفع عن أنفسنا الافتراء، ومن جهةٍ أخرى فمن الأفضل خنقُ القضيَّة قبلَ أن... سافيني! أين أنت ذاهبٌ، بحقِّ الجحيم؟ سافيني! لاحظ أنَّ الوقت ليس مناسباً للشُّعور بالإهانة، فأنا قلتُ ما قلتُه لأجل مصلحتِك، وإنَّها مهنتي أن...

- لقد كانت شهادتك ثمينةً للغاية، دكتور سافيني. المجلسُ القضائيُّ يشكرُك، ويدعوك للجلوس.

- ...

- دكتور سافيني...

- أجل، اعذرني، كنتُ أودُّ...

- ألديكَ ما تضيفه؟

- لا... أو بالأحرى... لديَّ شيءٌ واحدٌ فقط... أردتُ القولَ إنَّ... البحرَ، إنَّما هو شيءٌ مُغايرٌ... لا يمكن الحكم على ما يحدث هناك وسطَ عُبابِه... البحرُ شيءٌ آخر.

- دكتور، هذه محكمةُ البحريَّة الملكيَّة: إنَّها تعرف جيِّداً ما هو *البحر*.

- أتظنُّون ذلك؟

- صدِّقني، لقد كانت قراءة كتابك الصَّغير الآسر ذاك تجربةً عاطفيَّةً حقيقيَّة... بل تجربةً عاطفيَّةً قويَّةً للغاية لسيِّدةٍ عجوزٍ مثلي...

- سيِّدتي المركيزة، ما تقولينه...

- إنَّها الحقيقة، دكتور سافيني، ذلك الكتاب هو هكذا... كيف يمكنني القول... واقعيٌّ، هوَ ذا، أقرؤه، فيُخيَّلُ إليَّ أنَّني على متن ذلك الطَّوف، في عرضِ *البحر*، وتسري في جسدي القشعريرة...

- إنَّكِ تدغدغين روحي بكلماتِك المعسولة، سيِّدتي المركيزة.

- لا، لا... ذلك الكتاب هو حقّاً...

- أسعدتَ صباحاً، دكتور سافيني.

- أديل...

- أديل، ابنتي، ليس من اللائق أن نجعل رجلاً مشغولاً للغاية كالدُّكتور سافيني ينتظر كلَّ هذا الوقت...

- أوه، أنا على يقينٍ من أنَّكِ نكَّلتِ به بألف سؤالٍ عن مغامراته، أليس كذلك، يا سافيني؟

- إنَّه لمن دواعي السُّرور التَّحدُّث مع والدتِك.

- قليلاً بعدُ ويبردُ الشَّاي.

- إنَّك في غاية الجمال، يا أديل.

- شكراً.

- فنجانٌ آخر، دكتور؟

- له عينان داكنتان؟

- أجل.

- طويلُ القامة، ذو شَعرٍ أسودَ، سَبْطٍ...

- معقودٍ خلفَ عنقِه، سيِّدي.

- بحَّارٌ؟

- قد يبدو كذلك. ولكنَّه كان يلبسُ... على نحوٍ عاديٍّ، أنيقٍ بعضَ الشَّيء.

- ولم يقل ما اسمُه.

- لا. قال فقط إنَّه سيعود.

- سيعود؟

- لقد وجدناه في نُزلٍ عندَ النَّهر... محضُ صدفةٍ... كنَّا نبحث عن هاربَين من الجنديَّة، ووجدنا هذا... يقول إنَّه يُدعى فيليب.

- ولمْ يحاول الهرب؟!

- لا. لقد احتجَّ، أرادَ أن يعرف لأيِّ سببٍ سُقناه... إنَّها أمورٌ مُعتادةٌ... في هذه الأنحاء، يا سافيني.

- وأنتم ماذا قلتم له؟

- لا شيء. الشُّرطة ليست مضطرَّةً، هذه الأيَّام، إلى أن تفسِّر لماذا تضع أحداً في السِّجن. بطبيعةِ الحال، لا يمكننا الاحتفاظ به أمداً طويلاً، إذا لم نجد سبباً وجيهاً لذلك... أمَّا هذا؛ فأنت مَن سيفكِّر في شأنه، أليس كذلك؟

- بالتَّأكيد.

- هوَ ذا، تعال. لا، لا تُخرج رأسَك كثيراً من النَّافذة. إنَّه هناك، أتراه؟ الرَّجل قبل الأخير في الرَّتل.

- ذلك المستندُ إلى الجدار...

- أجل. أليس هو؟

- أخشى أنْ لا.

- لا؟

- لا، يؤسفني ذلك.

- ولكنْ؛ هذا هو الوصف، إنَّه مطابقٌ له.

- مطابقٌ، ولكنَّه ليس هو.

- سافيني... أصغِ إليَّ... باستطاعتك أن تصبح أيضاً بطلاً من أبطال المملكة، باستطاعتك أن تكون أيضاً صديقاً لجميع الوزراء في هذا العالَم، ولكنّ هذا الذي هناك هو فعلاً الرَّابعُ الذي...

- لا يهمُّ. لقد سبقَ وفعلتُم الكثيرَ.

- لا، اسمعني. نحن لن نعثر أبداً عليه، ذلك الرَّجل، أوَتعلم لماذا؟ لأنَّ ذلك الرَّجل قد مات. لقد هربَ من مشفىً زريٍّ الحال في ركنٍ نتنٍ من أركان إفريقيا، ومشى عدَّة كيلومتراتٍ في إحدى الصَّحارى الجحيميَّة، وهناك شوتْه الشَّمسُ حتّى تشقَّق. الخاتمة. ذلك الرَّجل، الآن، هو في الجهة الأخرى من العالَم يُسمِّدُ برميمِه كثيباً من الرِّمال.

- ذلك الرَّجل، الآن، هو في هذه المدينة، وعمَّا قريبٍ يصلُ إليَّ. انظر هنا.

- رسالة؟

- قبلَ يومين تركها أحدُهم على بابي. اقرأ، أقرأ جيِّداً...

- عبارةٌ واحدةٌ وحسب...

- ولكنْ؛ في منتهى الوضوح، أليس كذلك؟

- توماس...

- توماس. أنتَ محقٌّ، يا باستور. لن تعثروا أبداً عليه، ذلك الرَّجل. لكنْ؛ ليس لأنَّه مَيْتٌ. بل لأنَّه حيٌّ. حيٌّ أكثر منِّي ومنكَ معاً. حيٌّ مثلما هي حيَّةٌ الحيوانات قبل اصطيادها.

- سافيني، أؤكِّد لك...

- إنَّه حيٌّ. وعلى النَّقيض منِّي، فإنَّ لديه سبباً وجيهاً للبقاء كذلك.

- ولكنَّه ضربٌ من الجنون، يا سافيني! طبيبٌ لامعٌ مثلك، ذائعُ الصِّيتِ، الآنَ... تحديداً الآنَ؛ إذْ توشك أبوابُ الأكاديميَّة أن تفتح مصاريعها أمامَه... فكما تعلم جيِّداً، دراستُك تلك عن آثار الجوع والعطش... مع أنَّني، في المحصِّلة، أجدُها رومانسيَّةً أكثر منها علميَّةً...

- سيِّدي البارون...

- ... غير أنَّها، على أيَّة حالٍ، خلَّفت انطباعاً قويَّاً في نفوس زملائي،

وإنَّني سعيدٌ لأجلك، الأكاديميَّة بأسْرها تنحني لسحرِك... وأيضاً... لتجاربك المؤلمة...، أستطيع فَهْمَ ذلك... ولكنَّ الشَّيء الذي لا أستطيع فَهْمَه على الإطلاق هو لماذا وضعتَ في رأسك، الآنَ تحديداً، فكرةَ الرَّحيل لكي تتوارى في حفرةٍ منسيَّةٍ من المقاطعة وتعملَ، اسمعوا اسمعوا، طبيباً ريفيَّاً، هل هذا صحيح؟

- أجل، سيِّدي البارون.

- آه، تهانيَّ... لا يوجد طبيبٌ في هذه المدينة إلَّا ويرغب، بل بالأحرى، يحلم بأن يكون له اسمُك ومستقبلُك المشرق، بينما أنتَ على ماذا عقدتَ العزمَ؟ على الرَّحيل لمزاولة مهنتك في بلدةٍ صغيرة... أيُّ نوعٍ من البلدات هي إذنْ، يا تُرى؟

- في الرِّيف.

- هذا فهمتُه، ولكن أين؟

- بعيداً.

- أعليَّ أن أستخلصَ أنَّه لا يمكنني أن أعرف أين؟

- تلك هي رغبتي، سيِّدي البارون.

- هذا غيرُ منطقيٍّ. إنَّك مثيرٌ للشَّفقة، يا سافيني، إنَّك غير مقبولٍ، وغير معقولٍ، ومَقيت. لا أجدُ أيَّ مبررٍ منطقيٍّ لموقفك الذي لا يُغتفَر هذا و... و... لا أستطيع التَّفكير في أيِّ شيءٍ آخر سوى هذا: إنَّك مجنون!

- الأمرُ مُغايرٌ: الجنونُ هو ما لا أريد أن أنتهي إليه، أيُّها البارون.

- هي ذي... إنَّها شَرْبون... أتراها هناك؟

- نعم.

- إنَّها مدينةٌ صغيرةٌ جميلة. ستكون على ما يرام هناك.

- نعم.

- انهض، يا دكتور... بهذا الشَّكل. أمسكْ هذا قليلاً، هوَ ذا... لقد كنت تهذي طوالَ الليل، عليك القيامُ بشيء...

- لقد قلتُ لكِ إنَّه ما من حاجةٍ إلى بقائك، ماري.

- ما الذي تفعله؟... لا تريد النُّهوض...

- بالطَّبع، أريدُ النُّهوض...

- لكنْ؛ لا يمكنك...

- ماري، الطَّبيب هو أنا.

- نعم، ولكنَّك لم ترَ نفسَك هذه الليلة... كنتَ في حالةٍ سيِّئةٍ حقَّاً، بدوتَ كالمجنون، وأنت تتحدَّث إلى الأشباح، وتصرخ...

- كنتُ أصرخ؟

- كنتَ مع *البحر*.

- آاااه، مرَّةً أخرى؟

- لديك ذكرياتٌ سيِّئة، يا دكتور. والذِّكريات السَّيِّئة تُفسِدُ الحياة.

- إنَّها الحياة السِّيِّئة، يا ماري، ما يُفسِدُ الذِّكريات.

- ولكنَّك لستَ بالإنسان السَّيِّئ.

- لقد فعلتُ أشياءَ هناك. وكانت أشياءَ مروِّعة.

- لِمَ؟

- كانت مروِّعة. لا يمكن لأحدٍ أن يغفرها لي. لم يغفرْها لي أحد.

- عليك ألَّا تفكِّر فيها بعد اليوم...

- والأكثر ترويعاً من ذلك، هو هذا: أعلمُ أنَّه ينبغي عليَّ، اليومَ، أن أعودَ إلى هناك، وأفعلَ الأشياء نفسَها.

- كُفَّ عن ذلك، يا دكتور...

- أعلم أنَّني سأفعل نفسَ الأشياء، بالضَّبط. أليس وحشيَّاً، هذا؟

- دكتور، أرجوك...

- أليس وحشيَّاً؟

- لقد بدأت الليالي تعودُ مُنعشةً من جديد...

- أجل.

- أودُّ أن أرافقك إلى منزلك، يا دكتور، ولكنِّي لا أريد ترك زوجتي وحدَها...

- لا، لا تزعج نفسَك.

- على أيَّة حال... أريدك أن تعلم أنَّه مبعثُ سرورٍ غامرٍ لي الحوارُ معك.

- ولي أيضاً.

- تعلم، عندما وصلتَ إلى هنا، قبلَ عامٍ، كانوا يقولون إنَّك...

- طبيبٌ متكبِّرٌ ومتغطرسٌ من العاصمة.

- أجل، شيءٌ كهذا. النَّاسُ، هنا، شكَّاكون. من حينٍ إلى آخر يأتون بأفكارٍ غريبة.

- أتعلم ما قالوه لي، عنك؟

- إنَّني ثريٌّ.

- أجل.

- وقليلُ الكلام.

- أجل. وإنَّك رجلٌ طيِّبٌ رغمَ ذلك.

- لقد قلتُ لك: إنَّهم قومٌ غريبو الأفكار.

- إنَّه غريبٌ. التَّفكيرُ في البقاء هنا. أن يفكِّر أحدٌ مثلي... أنا الطَّبيبُ المتغطرسُ القادمُ من العاصمة... في أن يشيخ هنا.

- يبدو لي أنَّك ما تزال أصغر سنَّاً بكثيرٍ من أن تبدأ بالتَّفكير في المكان الذي ستشيخ فيه، ألا تظنُّ ذلك؟

- ربَّما كنتَ على حقٍّ. ولكنَّ هذا المكان بعيدٌ عن كلِّ شيء... أتساءل إن كان سيوجدُ يوماً ما شيءٌ قادرٌ على جعلي أرحل من هنا.

- لا تفكِّر في الأمر. إن حدث ذلك، فإنَّه سيكون شيئاً جميلاً. وإن لم يحدث، فهذه المدينة الصَّغيرة ستكون سعيدةً ببقائك فيها.

- إنَّه لشرفٌ لي أن أسمع هذا الكلام من فم العمدةِ شخصيَّاً...

- آه، لا تذكِّرني بذلك، أرجوك...

- والآن عليَّ أن أذهب.

- نعم. ولكنْ؛ عُدْ، متى شئتَ. سيسرُّني ذلك. وزوجتي أيضاً ستكون في غاية السَّعادة لذلك.

- ثقْ أنَّني سأفعل.

- إذنْ؛ طابت ليلتُكَ، دكتور سافيني.

- طابت ليلتُكَ، سيِّد دوفِريا.

٧. آدامز

بقي صاحياً لساعاتٍ، بعد الغروب. الميقاتِ الأخيرِ النَّقيِّ من مواقيت حياةٍ بأسرِها.

ثمّ خرجَ من غرفتِه، وفي صمتٍ صعدَ الممرَّ، غاذّاً السَّيرَ ليقفَ أمامَ الباب الأخير. ما مِن مفاتيح، في نُزلِ آلماير.

يدٌ مستندةٌ إلى المقبض، والأخرى تمسك بشمعدانٍ صغير. هُنيهاتٌ كأنَّها إبَر. البابُ انفتحَ دونما جلبة. صمتٌ وظلام، داخلَ الغرفة.

دخلَ، وضعَ الشَّمعدان على منضدة الكتابة، وأغلق البابَ من خلفِه. انزلاقة المزلاج صرَّتْ في الليل: في نصفِ الدُّغشة، بين الدُّثُر، شيءٌ ما تحرَّك.

دنا من السَّرير، وقال:

- سافيني، لقد قُضيَ الأمر.

عبارةٌ كطعنةِ خنجر. انتصب سافيني في السَّرير، مجلوداً بقشعريرةِ ذُعر. نقَّبَ بعينيه في النُّور الفاترِ لتلك الشُّموع القليلة، رأى نصلَ سكِّينٍ يتلألأ والوجهَ المتحجِّرَ لرجلٍ حاولَ سنيناً أن ينساه.

- توماس...

نظرتْ آن دوڤِريا إليه شاحبةً. ومتّكئةً على إحدى ذراعيها، ألقت نظرةً في الغرفة، ولم تفهم شيئاً، بحثت مرَّةً أخرى عن وجه عشيقها، وانزلقت إلى جانبه.

- ما الذي يحدث، يا أندريه؟

واصلَ التَّحديقَ، مذعوراً، أمامَه.

- توقَّف عن ذلك، يا توماس، إنَّك مجنون...

ولكنَّه لم يتوقَّف. وصلَ إلى جانب السَّرير، رفعَ السِّكِّين، وهوى بها بضراوةٍ، مرَّةً، مرَّتين، ثلاثَ مرَّات. الدُّثُر غُمِّسَتْ بالدِّماء.

لم يكن لدى آن دوڤِريا وقتٌ حتّى للصُّراخ. حدَّقتْ بذهولٍ في ذلك المدِّ المظلِم وهو ينبسطُ فوقها، وأحسَّت بالحياة تنسلُّ خارجةً من جسدِها المفتوح، بسرعةٍ لم تترك لها وقتاً حتّى لفكرةٍ واحدةٍ أخيرة. هوتْ إلى الوراء، وعيناها مفتوحتان باتِّساعٍ على العدم. كان سافيني يرتعد. كانت الدِّماء في كلِّ مكان. وصمتٌ مُنافٍ للعقل. هاجعاً كان، نُزُلُ آلماير. هامداً.

- انهض، يا سافيني. خذها بين ذراعيك.

تصادى صوتُ توماس بوداعةٍ لا ترحم. لم يُقْضَ الأمرُ بعد، لا.

تحرَّك سافيني كأنَّه في غيبوبة. نهضَ، رفعَ جسدَ آن دوڤِريا وحاضناً إيَّاه بين ذراعيه، جرجرَ نفسَه إلى خارج الغرفة. لم يتمكَّن من قولِ كلمة. لم يعد يرى شيئاً، ولا تمكَّنَ من التَّفكير في شيء. كان يرتعدُ، وحسب.

موكبٌ صغيرٌ، غريب. الجسدُ البهيُّ لامرأةٍ محمولٌ في موكب. حِمْلُ دمٍ مَيتٌ بين ذراعي رجلٍ يتزحَّفُ مرتعشاً، متبوعاً بظلٍّ باردٍ يمسك سكِّيناً

في يدِه. جازا النُّزلَ، هكذا، إلى أن خرجا إلى الشَّاطئ. وخطوةً إثرَ خطوة، في الرِّمال، انتهاءً عندَ حافَّةِ *البحر*. أخدودُ دمٍ، من ورائهما. قليلٌ من القمَرِ، عليهما.

- لا تتوقَّف، يا سافيني.

مرتجفاً، دفعَ قدميه في المياه. كان يحسُّ بتلك السِّكِّين تضغطُ على ظهرِه، وعلى ذراعيه، بثقلٍ أصبحَ هائلاً. مثلَ دميةٍ تَجَرْجَرَ بضعةَ أمتار. أوقفه ذلك الصَّوت.

- أنصِتْ إليه، يا سافيني. إنَّه هديرُ *البحر*. هذا الهدير وذلك الثِّقل على ذراعيك، بإمكانهما مطاردتك طوالَ الحياة التي بقيتْ لك.

قال ذلك بأناةٍ، من غير عاطفة مع مسحةٍ مِن وَهَن. ثمّ ترك السِّكِّين تسقط في الماء، استدارَ وعادَ إلى الشَّاطئ. عَبَرُه، مقتفياً تلك البقع الدَّكناء، المتخثِّرة في الرِّمال. كان يخطو ببطءٍ، وقد بات خاوياً من أيِّ فكرةٍ أو حكاية.

مسمَّراً عندَ عتبةِ *البحر*، والموجُ يشكِّلُ زبدَه بين ساقيه، لبثَ متحجِّراً، سافيني، عاجزاً عن أدنى حركة. كان يرتجف. ويبكي. كدُميةٍ، كطفلٍ، كغريقٍ لفظَهُ *البحر*. كان يقطرُ دمعاً ودماً: شمعةً لن يطفئَها بعد تلك اللحظةِ أحد.

أُعدِمَ آدامز شنقاً، في ساحة القدِّيس أماند، فجرَ اليومِ الأخيرِ من نيسان. كانت تمطرُ بغزارة، ومع ذلك، جمّاً غفيراً جاء أولئك الذين غادروا منازلهم؛ ليستمتعوا بالعرض. وُوْرِيَ الثَّرى غداةَ اليومِ نفسِه. لا أحد يعلم أين.

٨. الغرفة السَّابعة

فُتِحَ الباب، ومن الغرفةِ السَّابعة خرجَ رجل. توقَّف على بُعْدِ خطوةٍ من العتبة، ونظرَ مِن حولِه. بدا مهجوراً، ذلك النُّزل. لا جلبة، لا صوت، لا شيء. كانت الشَّمسُ تدخلُ من كُوى الممرِّ، باترةً الغُبشَةَ، ومُلقيةً على الجدران لطخاتٍ صغيرةٍ من فجرٍ صافٍ وأبلج.

كلُّ شيءٍ داخلَ الغرفة كان قد رُتِّبَ بعنايةٍ طوعيَّةٍ، وإنَّما عَجلى. حقيبةٌ مليئةٌ، ما تزال مفتوحةً، على السَّرير. أكوامٌ من الورق، على منضدةِ الكتابة، أقلامٌ، كُتُبٌ، ومصباحٌ مُطفأ. طبقان وكأسٌ، على حافَّةِ النَّافذة. متَّسخةٌ، وإنَّما مرتَّبة. السَّجَّادة، على الأرض، طُويَتْ إحدى زواياها طيَّةً كبيرة، كأنَّ أحدهمَ تركها علامةً ليعودَ إليها، يوماً ما. على الأريكة كان ثمّة دثارٌ كبيرٌ مطويٌّ كيفما اتَّفق. وعلى أحد الجدران كانت تُرى لوحتان معلَّقتان. متطابقتان.

تاركاً البابَ مفتوحاً من ورائه، قطعَ الرَّجلُ الممرَّ، ونزلَ الأدراجَ مُدندناً لحناً مُطلسَماً؛ ليتوقَّف أمامَ مكتب الرِّيسبشن - كما كان يؤثر أن يسمِّيه. لم تكن ديرا هناك. كان ثمّة السِّجلُّ الكبيرُ المعتاد، مفتوحاً فوق مسندهِ الخشبيِّ. راحَ الرَّجل يقرأ فيه، فيما هو يسوِّي قميصه تحتَ سرواله. أسماءٌ غريبة. عادَ ينظر مِن حولِه. يقيناً ذلك كان النُّزلَ الأكثر إيحاشاً في تاريخ الأنزالِ الموحشةِ كلِّها. دخلَ القاعةَ الكبيرة، طافَ قليلاً حولَ الموائد، استنشق باقةً من الأزهار كانت تهرَمُ في إناءٍ مُربعٍ من الكريستال، ثمّ دنا من الباب الزُّجاجيِّ، وفتحَه.

يا لِذلك الهواء. يا لِلضَّوء.

كان عليه أن يُغمض عينيه، من شدَّتِه، وأن يشدَّ سترتَه عليه، مع كلِّ تلك الرِّياح، رياحِ الشَّمال.

الشَّاطئ كلُّه، أمامَه. وضعَ قدميه في الرِّمال. نظر إليهما كما لو كانتا عائدتين في تلك اللحظة من سفرٍ طويل. بدا بحقٍّ مشدوهاً من أنَّهما كانتا من جديدٍ هناك. رفعَ رأسَه فيما ارتسمَ على وجهه ذلك التَّعبير الذي يرتسم، من وقتٍ إلى آخر، على وجه المرء عندما يكون ذهنه فارغاً، مُفرَغاً، ومنتشياً. يا لها من لحظاتٍ غريبة! تستطيعُ فيها أن تقترفَ، دون أن تفهم لماذا، أيَّ تُرَّهةٍ تخطرُ لك. هو، اقترفَ واحدةً بسيطةً بسيطة. شرَعَ يعدو، ولكنْ كالمجنون، منقطعَ الأنفاس، متعثِّراً وناهضاً، دون توقُّفٍ أبداً، مندفعاً أسرعَ ممَّا يستطيع، كما لو أنَّ الجحيمَ نفسَه في أعقابه، في حين لم يكن في أعقابه أحدٌ، البتَّة، بل كان هو مَن يعدو وكفى، هو وحدَه، على طول ذلك الشَّاطئ المهجور، بعينين مفتوحتين على مصراعيهما وقلبٍ بلغَ الحلقومَ، شيءٌ لو اطَّلعتَ عليه، لقلتَ: لن يتوقَّفَ إلى أبد الآبدين.

جالساً على حافَّة نافذته المعتادة، ساقاه تتأرجحان في الفراغ، رفعَ دُوْد ناظريه عن *البحر*، التفتَ نحو الشَّاطئ، ورآه.

كان يعدو بصورةٍ إلهيَّة، لا شيء آخر يُقال.

ابتسمَ، دُوْد.

- لقد انتهى أمرُه.

كان إلى جانبه ديتس، ذلك الذي كان يبتكرُ الأحلامَ، ثمّ يهديها إليك.

- إمَّا جُنَّ، وإمَّا انتهى أمرُه.

في الظَّهيرة، كان الجميع عندَ حافَّة *البحر*، يرمون بحجارةٍ مسطَّحةٍ؛ لجعلها تتقافز، بحجارةٍ مستديرةٍ ليسمعوا صوتَ ارتطامها بالماء. كانوا جميعاً هناك: دُوْد، وقد نزلَ لتلك الغاية عن حافَّة النَّافذة، وديتس، صاحبُ الأحلامِ ذاك، ودُوْل، الذي رأى سفناً لا تُحصَى لأجلِ بلاسُّون. كانت هناك ديرا. وكانت هناك تلك الطِّفلة الفائقة الجمال التي كانت تنام في سرير آن دوڤريا، ولا أحد يعلم ما اسمها. الجميع هناك: يرمون حجارةً في الماء، ويُصغون إلى ذلك الرَّجل الخارجِ من الغرفة السَّابعة. بهوادةٍ، كان يتكلَّم.

- عليكم أن تتخيَّلوا رجلاً وامرأةً غارقَين في الحبِّ... غارقَين في الحبِّ. وينبغي عليه أن يرحل. فهو بحَّارٌ. يغادر في رحلةٍ طويلةٍ، في *البحر*. آنذاك تطرِّز هي بيديها منديلاً من الحرير... تطرِّز عليه اسمَه.

- جُوْن.

- جُوْن. تطرِّزه بخيطٍ أحمر. وتفكِّر: لَسَوف يحمله على الدَّوام معه، ولَسَوف يحميه من المهالك، من العواصف، ومن الأمراض...

- من الأسماك الكبيرة.

- ... من الأسماك الكبيرة...

- من سمك الموز(*).

- ... من كلِّ شيء. هي على يقينٍ من ذلك. غير أنَّها لا تعطيه له على

*) طبعاً لا وجود لهذا النَّوع من الأسماك، وإنَّما الإشارة هنا إلى قصَّة «اليوم المرتجَى لسمك الموز» لجيروم دايفيد سالينجر صاحب رواية «الحارس في حقل الشُّوفان». صدرتْ «اليوم المرتجى لسمك الموز» بالعربيَّة سنة ١٩٩٧ عن دار الفارابي، بترجمة بسَّام حجَّار، ضمن مجموعة قصصيَّة للكاتب، حملت العنوان نفسه؛ (م).

الفور، لا. قبل ذلك تحمله إلى كنيسة قريتها، وتقول للقسِّيس: عليك أن تباركه لي. هكذا يضعه القسِّيس هناك، أمامَه، ينحني قليلاً، وبإصبعٍ يرسم فوقه صليباً. ينطقُ عبارةً بلغةٍ غريبة، وبإصبعٍ يرسم فوقه صليباً. أتنجحون في تخيُّل ذلك؟ يتطلَّب الأمرُ منكم بادرةً صغيرةً للغاية. المنديل، تلك الإصبع، عبارةُ القسِّيس، عيناها؛ إذْ تبسُمان. هل كوَّنتم الصُّورة في ذهنكم؟

- أجل.

- إذنْ؛ فلتتخيَّلوا هذا الآن. سفينةً. سفينةً هائلة. على وشك الإبحار.

- سفينة البحَّار نفسِه.

- لا. سفينةً أخرى. ولكنْ؛ هي أيضاً على وشك الإبحار. نظَّفوها بأكملها على أحسن وجه. وها هي تطفو على مياه الميناء. وأمامَها تمتدُّ كيلومتراتٍ وكيلومتراتٍ من بحرٍ ينتظرُها، بحرٍ بقِواه الهائلة، بحرٍ مجنونٍ، قد يكون طيِّباً معها، وقد يسحقها بيديه، ويبتلعها، لا أحدَ يعلم. لا أحدَ يتحدَّث عن ذلك، ولكنَّ الجميع يعلم، كم هو قويٌّ *البحر*. بعدئذٍ، إلى تلك السَّفينة، يصعد رجلٌ صغيرُ البنية، متَّشحاً بالسَّواد. جميع البحَّارة على سطح السَّفينة، مع عوائلهم، نسائهم، أطفالهم، أمَّهاتهم، جميعهم هناك، يقفون، في صمتٍ. الرَّجلُ الصَّغيرُ البنيةِ يذرعُ السَّفينة جيئةً وذهاباً، مُهمهِماً بكلامٍ غير مسموع. يبلغُ القيدومَ، ثمّ يستدير عائداً، يسير ببطءٍ بين الحباليَّاتِ، والأشرعةِ المطويَّة، والبراميلِ، والشِّباك. يواصلُ الهمهمة بكلامٍ غريبٍ، بينه وبين نفسِه، ولا يترك ركناً في السَّفينةِ إلَّا ويمرُّ منه. في النِّهاية، يتوقَّف، عندَ منتصف سطح السَّفينة. ثمّ يخرُّ راكعاً. يخفضُ رأسَه، ويواصلُ الهمهمة بلغته الغريبة تلك، وكأنَّه يتحدَّث إليها، إلى السَّفينة، ويُخبرُها شيئاً. ثمّ على حين غرَّةٍ يصمت، وبيدٍ يرسمُ، بأناةٍ، علامة الصَّليب على تلك الألواح الخشبيَّة. علامة الصَّليب. وإذَّاكَ ينظر الجميع صوبَ *البحر*، وفي عيونهم

نظراتُ المنتصِر، ذلك أنَّهم أيقنوا أنَّ تلك السَّفينة ستعود، أنَّها سفينةٌ مبارَكة، ستتحدَّى البحرَ وستقدرُ على ذلك، ولا شيء بعدُ يمكن أن يضرَّ بها. إنَّها سفينةٌ مباركةٌ.

توقَّفوا حتّى عن رمي الحجارة في الماء. لبثوا آنذاك بلا حراكٍ، يُصغون. جالسين على الرَّمل، الخمسةُ كلُّهم، ومن حولِهم، على امتدادِ كيلومتراتٍ، لا أحد.

- هل فهمتُم جيِّداً؟

- أجل.

- هل كلُّ شيءٍ ارتسمَ، على أحسن وجهٍ، في عيونكم؟

- أجل.

- إذنْ؛ انتبهوا. فالمسألة الآنَ تصيرُ أكثر إلغازاً. عجوزٌ. جلدُه أبيضُ أبيض، يداه نحيلتان، يمشي بشقِّ الأنفس، وبفتور. يصعدُ الطَّريقَ الرَّئيسةَ للقرية. من خلفِه، مئاتٌ ومئاتٌ من النَّاس، أهلُ المنطقةِ طُرَّاً، ينثالون ويغنُّون، لابسين أجملَ ما عندَهم، ولا ينقص منهم أحد. العجوزُ يواصلُ السَّيرَ، ويبدو وحيداً، وحيداً تماماً. يبلغُ آخرَ بيوتِ القرية، ولكنَّه لا يتوقَّف. عجوزٌ حدَّ ارتعاشِ اليدين، والرَّأسِ قليلاً. غير أنَّه، هادئاً، ينظر من حولِه، ولا يتوقَّفُ، ولا حتّى عندما تبدأ حدودُ الشَّاطئ، بل ينزلق بين القوارب الجانحة في المياه الضَّحلة، بذلك الخطوِ، خطوِه المترنِّح الذي يبدو عِثاراً من لحظةٍ إلى أخرى في حين أنَّه لا يعثرُ أبداً. من خلفِه، الآخرون طُرَّاً، على بُعْد أمتارٍ منه، ولكنَّهم أبداً هناك. مئاتٌ ومئاتٌ من النَّاس. العجوزُ يمشي على الرِّمال، والأمرُ يزدادُ تعقيداً، ولكنَّه لا يحفلُ بذلك، لا يريد التَّوقُّف، وبما أنَّه لا يتوقَّف، فإنَّه يبلغ في النِّهاية حافَّةَ *البحر*. ذلك *البحر*. يكفُّ

النَّاسُ عن الغناء، ويتوقَّفون على بُعْدِ خطواتٍ من الحافَّة. الآن يبدو وحيداً أكثر من ذي قبل، العجوزُ إيَّاه، فيما يضع قَدَماً أمامَ الأخرى، بذلك الفتورِ نفسِه، ويدخلُ البحرَ، وحيداً وحيداً، يدخلُ قلبَ *البحر*. بضع خطواتٍ، إلى أن يبلغ الماءُ منه الرُّكَب. سروالُه، وقد انتقَعَ، يلتصق بِتَيْنَكَ السَّاقين النَّحيلتين النَّحيلتين، بجلدهما وعظْمِهما. الموجة تنزلق من أمامِه ومن خلفِه، وهو جدٌّ نحيلٌ حتّى لَتحسبها ستحملُه بعيداً. ولكنْ؛ لا شيء، فهو باقٍ هناك، كأنَّه مغروسٌ في الماء، وعيناه مسمَّرتان على ما أمامَه. العينان مصوَّبتان على عيون *البحر*. صمتٌ. لم يعدْ شيءٌ يتحرَّك، من حولِه. النَّاس يحبسون أنفاسَهم. إنَّه لَسِحرٌ.

آنذاك

العجوزُ

يخفِضُ

عينيه،

يغمسُ

يداً

في الماء

و

بأناةٍ

يرسمُ

علامةَ

صليبٍ.

بأناةٍ. يباركُ البحرَ.

وإنَّه لأمرٌ مهيبٌ، عليكم أن تُفلِحوا في تخيُّلِه، شيخٌ واهنٌ، حركةٌ لا تكادُ تُرَى، وفجأةً يرتجُّ البحرُ الشَّاسع، البحرُ بأكملِه، يرتجُّ حتّى آخر الأفق، يرتعدُ، يتزعزعُ، يتفكَّكُ، ينساحُ في عروقِه عسلُ تطويبةٍ تعوِّذُ كلَّ موجةٍ، وكلَّ سفنِ الدُّنيا، العواصفَ، الهُوَى الأبعد غَوراً، الأمواهَ الأشدَّ إعتاماً، البشرَ والحيوانات، أولئك المحتَضرين، أولئك الخائفين، أولئك النَّاظرين إليه، المفتونين، والمفزوعين، والواجفين، والفرِحين، والموسومين بسوء الطَّالع، عندما على حين غرَّةٍ، في لحظةٍ واحدة، يخفِضُ رأسَه، والبحرُ المهولُ، لا يعودُ لغزاً، لا يعودُ غريماً، لا يعودُ صمتاً، بل أخاً، وحضناً وادعاً، ومشهداً فخماً لبشرٍ ناجين. يدُ الشَّيخ. علامةٌ، على الماء. انظرْ إلى البحرِ، فإذا به يكفُّ عن كونه مخيفاً. الخاتمة.

صمتٌ.

يا لها من حكاية...، فكَّرَ دُوْد. التفتتْ ديرا لتنظرَ إلى *البحر*. يا لها من حكاية. الطِّفلة الفائقة الجمال شمختْ بأنفِها. ولكنْ؛ أتُراها حدثت حقَّاً؟ فكَّرَ ديتس.

بقي الرَّجل جالساً، على الرَّمل، وصامتاً. حدَّقَ دُوْل في عينيه.

- ولكنْ؛ هل هي قصَّةٌ حقيقيَّة؟

- كانت كذلك.

- ولم تعد كذلك؟

- لا.

- لماذا؟

- ما عاد في مقدورِ أحدٍ، تطويبُ *البحر*.

- ولكنَّ ذلك العجوز فعلَ ذلك.

- ذلك العجوز كان عجوزاً، وكان في أعماقه شيءٌ، لم يعد الآنَ موجوداً.

- السِّحر؟

- شيءٌ من هذا القبيل. سحرٌ بهيٌّ.

- وأين انتهى ذلك السِّحر؟

- تلاشى.

لم يستطيعوا أن يصدِّقوا، أنَّه تلاشى حقَّاً في العدَم.

- أتُقسِمُ؟

- أُقْسِم.

لقد تلاشى فحسب.

نهض الرَّجل. في البعيد تراءى نُزلُ آلماير، شفيفاً إلَّا قليلاً في ذلك الضِّياء المغسولِ برياح الشَّمال. الشَّمسُ بدتْ وكأنَّها تجمَّدتْ في الكبدِ الأشدِّ ألقاً للسَّماء. وقالت ديرا:

- أنتَ أتيتَ إلى هنا؛ لكي تطوِّبَ البحرَ، أليس كذلك؟

نظرَ الرَّجلُ إليها، خطا بضعَ خطواتٍ، دنا منها، انحنى عليها، وابتسمَ لها.

- لا.

- فإذنْ؛ ما الذي كنتَ تفعله في تلك الغرفة؟

- إذا كان قد أصبح من غير الممكن تطويبُ *البحر*، ربمَّا، فإنَّه ما يزال من الممكن سَرْدُه.

سَرْدُ البحرِ. سَرْدُ البحر. سَرْدُ *البحر*. ذلك أنَّ ما اشتملتْ عليه حركة ذلك الشَّيخ لم يذهب كلُّه أدراجَ الرِّياح، ذلك أنَّ بعضاً من ذلك السِّحر ما يزال يطوف في الزَّمن على ما أظنُّ، وشيءٌ ما قد يعثرُ عليه، ويُوقفُه قبل أن يتلاشى إلى الأبد. سَرْدُ *البحر*. لأنَّ البحرَ هو ما بقي لنا. لأنَّ علينا ونحن أمامَه، نحن الذين بلا صلبانٍ، بلا شيوخٍ، بلا سحرٍ، أن نمتلك سلاحاً، شيئاً من هذا القبيل، لكيلا نموت في صمتٍ، وكفى.

- سَرْدُ *البحر*؟

- أجل.

- وأنتَ كنتَ هناك كلَّ ذلك الوقت؛ لكي تسرُدَ البحرَ؟

- أجل.

- ولكنْ؛ على من؟

- ليس مهمَّاً على مَن. الجوهرُ أن نحاولَ سَرْدَه. أحدٌ ما سوف يُصغي.

فكَّروا في أنَّه كان غريبَ الأطوارِ قليلاً. ولكنْ؛ ليس على ذلك النَّحو الذي تصوَّروه من قبلُ. وإنَّما على نحوٍ أكثر بساطةً.

- وهل تلزَمُ كلُّ تلك الأوراق لسَرْدِه؟

كان دُوْد قد تحمَّلَ وحدَه وِقرَ تلك المحفظة الكبيرة المليئة بالأوراق، نزولاً عِبْرَ الأدراج. وقفتْ عند ذلك الحدِّ، تلك المسألة.

- حسناً، لا. إذا كان المرء متمكِّناً بحقٍّ، فإنَّ كلماتٍ قليلةً تكفيه... قد يبدأ من صفحاتٍ كثيرةٍ، ولكنْ بعدئذٍ، شيئاً فشيئاً، يعثر على الكلمات المناسبة، تلك التي تقول مرَّةً واحدةً ما على كلِّ الكلمات الأخرى أن تقولَه، فمن ألفِ صفحةٍ ينتهي إلى مئة، ثمّ إلى عشرٍ، ثمّ يتركها هناك، تنتظر، إلى أن تنزلق الكلماتُ الزَّائدة من الأوراق، وحينذاك لا يبقى سوى اجتناء تلك المتبقِّية، وعصرِها في كلماتٍ قليلة، عشرِ كلماتٍ، خمسٍ، أو أقلَّ؛ حيث إنَّ المرء حين ينظر إليها عن كثب، ويُصغي إليها، لا يبقى منها في النِّهاية في يدِه إلَّا واحدة، واحدةٌ فحسب. فإذا ما قلتَها، قلتَ البحرَ.

- واحدةٌ فحسب؟

- أجل.

- وما هي؟

- لا أحد يعلم.

- كلمةٌ كيفما كان؟

- كلمة.

- ولكنْ؛ حتّى من قبيلِ بطاطس؟

- أجل. أو النَّجدة!، أو إلخ، لا يمكن لأحدٍ أن يعرف ما هي، ما دامَ لم يعثر عليها.

كان يتحدَّث ناظراً من حولِه إلى الرِّمال، الرَّجلُ صاحبُ الغرفةِ السَّابعة. كان يبحث عن حصاة.

- ولكنْ؛ المعذرة... - قالَ دُوْد.

- هاه.

- لا يمكن استخدامُ كلمةِ بحر؟

- لا، لا يمكن استخدامُ بحر.

نهضَ. لقد وجدَها، تلك الحصاة.

- فذلك مستحيلٌ، إذنْ، إنَّه شيءٌ مستحيل.

- لا أحد يعلم، ما هو المستحيل.

دنا من *البحر* وقذف بها بعيداً، في الماء. كانت حصاةً مستديرة.

- بْلُبْ(*) - صاحَ دُوْل، الذي كان يصيخ السَّمعَ.

ولكنَّ الحصاة راحت تتقافز، على سطح الماء، مرَّةً، مرَّتين، ثلاثاً، دونما توقُّفٍ، تتقافز انتشاءً، أبعدَ فأبعد، تتقافز صوبَ الشَّاسعِ، كما لو أنَّهم في لحظةٍ ما فكُّوا غُلَّها. بدتْ غير راغبةٍ بعد تلك اللحظة في التَّوقُّف. ولم تتوقَّف بعد تلك اللحظة أبداً.

غادرَ الرَّجلُ النُّزلَ صبيحةَ اليومِ التَّالي. كان ثمّة سماءٌ غرائبيَّة، من تلك السَّماوات التي تجري سِراعاً، تتعجَّل العودةَ إلى ديارها. من الشَّمال كانت تهبُّ، قويَّةً، رياحٌ، ولكنْ من غير جلبة. الرَّجلُ كان يحبُّ المشيَ. حملَ حقيبتَه ومحفظتَه الملأى بالأوراق، وانطلق على طولِ الطَّريق التي كانت تمتدُّ بمحاذاة *البحر*. انطلق مسرعاً، دون أن يلتفتَ إلى الوراء أبداً. هكذا، لم يرَ نُزلَ آلماير، ذاك، وهو ينفصلُ عن الأرض، ويندكُّ متطايراً في ألفِ

---

*) يقلِّد صوتَ سقوط الشَّيء في الماء؛ (م).

كِسرةٍ وكِسرة، حتّى بدتْ كلُّ كِسرةٍ خماراً يصعدُ في الهواء، يهبطُ ويصعد، يطيرُ يطير، وكلُّها تحمل معها كذلك، إلى البعيد البعيد، تلك الأرضَ وذلك البحرَ، والكلماتِ والقَصَصَ، وكلَّ شيءٍ، ولا أحد يعلم إلى أين، لا أحد، علَّ أحداً ذاتَ يومٍ يكون مُتعَباً إلى درجةِ رفعِ الحجاب عن ذلك.

النِّهاية

فهرس المحتويات

"روايةٌ خارجةٌ عن المألوف... كتابٌ حول الكينونة والوجود، ميتافيزيقا ملعوبةٌ بدهاءِ مهرّجٍ عجوزٍ حكيم، إنّها روايةٌ أقلُّ ما تفعله أنّها توحي بأنَّ ثمّة في الحياة أموراً أكثر ممّا قد يخبركَ به أيٌّ من العقلانيّين."

توم بونشا- توماتزوفسكي (ذي إندبندنت)

مكتبة ٣٠٦

تروي «البحرُ المحيطُ» حكاية غرق فرقاطة تابعة للبحريّة الفرنسيّة، منذ زمن بعيد، في أحد المحيطات. يحاولُ الرِّجالُ الذين كانوا على متنها النَّجاة على طَوْف صنعوهُ لذلك الغرض. البحرُ هو المكان التي تجتمعُ فيها مصائر شخصيّات غرائبيّة؛ مثل بارتلبوم الذي يحاولُ تحديدَ أين ينتهي البحر، أو الرَّسّام بلاسُّون الذي يرسمُ بمياه البحر، وغيرهما من الشَّخصيّات التي يبحث كلٌّ منها عن ذاتِه، شخصيّات حيواتُها معلّقة على حافّة المحيط، وأقدارُها مدموغةٌ بأحوالِ البحرِ. وعلى البحرِ كذلك يُطلُّ «نُزلُ آلماير» حيث تلتقي العديدُ من القصص وتنصهرُ في بعضِها. هكذا، من خلال البحر، بما هوَ استعارة وجوديّة ورمز وجوديٌّ، يروي لنا البارع باريكّو عن شخصيّاته السُّرياليّة، متنقّلاً بين عدّة أشكال أسلوبيّة، سرديّة وشِعْريّة.


ISBN 978-88-99687-72-4

المتوسط